رواية

صنعائي

نادية الكوكباني

صنعائي

رواية

نادية الكوكباني

إلـــــــــــــى:

عـبد الـرقـيـب عـبـد الـوهـاب

I

يحكى أن حُجرة خاصـــة تدعى "المنظر" في أعلى أدوار المباني القديمة في صـــنعاء تجعلك قريباً من "إل مقَّه"، إلهك الأثير وقمرك المعبود، وأن حجر رخام النافذة الشفاف في تلك الحُجرة، باســـتدارة شـــكله، وبالضـــوء الخافت النافذ منه، يمنحك الجرأة لمسامرته حتى الفجر كعاشقٍ ولهان، مثرثراً بعمرٍ مضى أو بعمرٍ سيأتي...

لابد من صنعاء!...

أخيراً عاد والدي إلى صنعاء، بعد طول غياب؛ لكنه عاد جثة هامدة. تكالبت عليه أمراض الشيخوخة والقهر المزمن الذي أصابه عليها، فقرر قلبه التوقف فجأة فيما كان يمسك بألبوم صوره الأثير في أرجائها. ودع صنعاء كما يريد، ولو بالنظر لصورٍ منحته دائما متعة حب المدينة، وأوقفت عقارب الساعة عند تلك اللحظة التي التقطت فيها الصور.

كعادتي بعد دخولي المنزل، مررت لأسلم عليه. طرقت الباب، وتقدمت باتجاهه، أثار دهشتي انسدال رأسه للأسفل. حاولت إيجاد سبب لجمود عينيه عن الحركة غير أن يكون قد فارق الحياة. أخذت ألبوم الصور من بين يديه وألقيت به بعيداً ورحتُ أهزه بعنف. علا صراخي مستنجدة بأمي وبأخي "نصر". هرولت أمي و"نصر"؛ أمي تجس نبضه، تضغط على قلبه، تهز جسده... عله يستعيد الحياة التي فقدها منذ دقائق، دون فائدة. أيقن ثلاثتنا أنه أصبح جسداً بلا روح. استقرينا أنا وأمي تحت قدميه يطبق علينا صمت حزين، أمي تذرف الدمع وتولول بكلمات لم أفهمها، وأنا واجمة في اللاشيء. حاول "نصر" تهدئتنا، وتذكير ثلاثتنا بواجب تنفيذ وصيته.

كانت وصيته أن يدفن في "مقبرة خزيمة" في قلب صنعاء، صنعاء التي غادرها طائعاً منذ ثلاثين عاماً، رافضاً العودة ولو من

باب زيارة الأهل والأصدقاء، مهووساً في ذات الوقت بمتابعة أدق تفاصيل أخبارها، السياسية والاجتماعية وكأنه يحيا فيها.

وجودنا (أنا وأمي وشقيقي) في الطائرة، وشعورنا بأن جثمانه بين الحقائب، كان مؤلماً جداً. شد من أزرنا أنّنَا ننفذ وصيته ورغبته التي حلم بها طويلاً.

استقبلنا في المطار عدد من أصدقائه الذين كانوا دائمي الزيارة لنا في القاهرة. رتبوا كل ما يخص سير الجنازة للدفن في "مقبرة خزيمة". لم يُسمح لي وأمي الدخول إلى المقبرة، بحُجة أن حضور النساء للمقابر مكروه في الإسلام. ذهب شقيقي فقط للدفن وتلقي العزاء، فيما اكتفينا بالانتظار على البوابة الخارجية للمقبرة.

في اليوم الثالث من الدفن أصرت أمي على زيارة القبر. وضعنا عليه بعض الزهور والريحان، التي تباع خارج سور المقبرة مع إناء به ماء لرش القبر ولا أعرف لماذا يفعلون ذلك! ضاقت صنعاء بحزني في تلك اللحظة حتى شعرتني أكاد أختنق، جدران المقبرة تكاد تطبق على أنفاسي. صرير الريح التي هبت فجأه وتقاذفت تلك الاوراق الذابلة لأشجار المقبرة وارتفعت بالجاف منها لأعلى؛ نسجت مع ذرات التراب دوامة بين الأرض والسماء؛ ترتفع وترتفع وترتفع وكأني بها تنأى بروح أبي إلى حيث لا أعلم. أمي تقرأ الفاتحة وتدعو لأبي بالرحمة والمغفرة. تجثو على ركبتيها؛ يختنق نحيبها وهي ممسكة بيدي كمن يستنجد برمق حياة. أثناء ذلك رافقتنا نظرات رجل طاعن في السن، ثيابه رثة؛ لكن نظراته حزينة كمن يعرفنا ويعرف أبي. يبدو أنه غير مدرك لما حوله؛ لكن هروبه من مواجهة نظراتي تقول إنه مدرك

تماماً لكل ما يدور. يوم الدفن لفت انتباهي بارتباكه الشديد ودورانه السريع حول الجنازة بنظرات زائغة وحزينة في آن. اختفى متعمداً ذلك، بعد أن لاحظ توجهي نحوه. تُرى من يكون؟!

وأنا أودع المقبرة يمر في مخيلتي تلك المرأة اليهودية "خزيمة" التي اسلمت وهي في رعاية أسرة صنعانية بعد وفاة والدتها؛ وجدت لديها رغبة في حفظ القرآن مع اطفالها فاسلمت ومنحت قطعة الارض التي ورثتها عن ابيها لتكون مقبرة لصنعاء. ترى؛ هل كان أبي يشعر بدنو أجله وهو يسرد لي تلك القصة الجميلة عن "خزيمة" قبل وفاته بأيام؟

لم أجد قبر صديق أبي، الذي طلب أن يُدفن إلى جواره. مررت أبحث بين القبور وأقرأ الشواهد التي تعلوها وتحتوي أسماء الموتى... اه يا ابي: (إنها سنوات مضت، لم تتخيل فيها ما قد يحدث لمقبرة يتمنى الأحياء أن تدفن أجسادهم في بطنها وتتسول أرواحهم الفاتحة التي يقرؤها المارون عليها طيلة اليوم. ترى كم جسداً استقر مكان جسد صديقك؟! وكم جسداً سيستقر مكان جسدك يا أبي؟! ما أعلمه الآن أنك في نعيم مدينتك، ابتلعتك صنعاء في جوفها، صنعاء التي عشقت، صنعاء التي فضلتَ الابتعاد عنها لتحتفظ بحبها طاهرا في قلبك، صنعاء التي أراها أمامي ممتدة، ولم تعد "مقبرة خزيمة" على حدود سورها القديم كالسابق، بل في وسط صنعاء الجديدة؛ توسعت المدينة، تشعبت أذرعها في كل اتجاه كالأخطبوط. لم تستطع رغم حداثة موادها أن تبني كياناً إنسانياً لنسيجها المعماري مصدره حاجتها وحاجة سكانها. غلب أهلها الطمع وحب الذات فلم يتركو أي فرصة لنهب

اراضيها في كل اتجاه. يستشري عطشها يوما بعد يوم بنفاد مخزون المياه في جوفها، ويزداد متسولوها يوما بعد يوم. خارج أسوار المقبرة تمتد أيادي الصغار، تتسول ما يسد رمق يومها. عائلات تتخذ الرصيف بيتا والسماء سقفا لعوراتها التي لم تعد تهتم إذا ما انكشفت على المارة، بقدر ما تهتم بعطف المارة على تلك العورات ببعض المال أو بقايا ما تلفظه قصور لصوصها من خيرات.

سأحدثك عنها يا أبي في غيابك الحاضر في أعماقي ما شاءت لي الرغبة، وما شاءت لي الفرحة، وما شاء لي القهر، والأهم ما شاء لي القدر أن أفعل ذلك، لك فقط؛ لأنك لن تغيب. قد أفهم ما أردت إخفاءه عني طيلة تلك السنوات عن صنعاء؛ وما فعلته بك!...

***

صباح السابع من يوليو 2009

زحام شديد للسيارات في قلب العاصمة صنعاء، تحديداً في "شارع القصر الجمهوري" والطرق المؤدية إلى "ميدان حرب السبعين يوما". جنود مدججون بالسلاح يفتشون السيارات والمارة ببطء شديد، دون اكتراث إذا ما تأخر الموظفون وطلاب المدارس عن مواعيد حضورهم.

لم يثر الأمر فضولي فقط وأنا متجهة لمقر عملي، لمعرفة السبب، بل وأيضا فضول أحد المارة الذي سأل الجندي المنهمك في تفتيشه عن سبب هذه الإجراءات المفاجئة. رد عليه الجندي بصوتٍ تشوبه مسحة غضب: إجراءات أمنية لاحتفالات "يوم

النصر 7/ 7! سيمر موكب كبار الشخصيات والضيوف من هنا باتجاه ميدان السبعين للاحتفال"!

بدا على السائل أنه لم يستوعب الكثير (مثلي تماما)؛ "7/ 7"! و"يوم نصر"!... التقطت اليوم والمناسبة، وبدأت كغيري أفتش في ذاكرتي! نصرٌ لمن؟! وعلى من؟!... مر عابرٌ آخر وردد الكلمات ذاتها، وكأنما يقرأ أفكاري، مضيفا إليها سخرية لاذعة وغضبا دفينا من شدة الزحام! زجره الجندي طالبا منه المرور بهدوء وإلا سيتخذ إجراءاته!

علا صوت أحد الجنود طالبا من السيارات التزام جهة اليمين بسرعة، مر موكب مهيب من سيارات المرسيدس السوداء، على زجاجها الفارهِ ظهرت صورة باهتة لبؤس أكثر المارة بثيابهم الرثة وبفقرهم المدقع. حُلت الأزمة بمرور الموكب.

حاول كل من تأخّر عن الدوام اللحاق بعمله. تنفس أصحاب المحلات بعمق وفتحوا محلاتهم، وبدأ البساطون في فرش بضائعهم على الأرصفة، وعادت الحياة تدب في أوصال "شارع الشهيد علي عبد المغني".

اعتقدت عند عودتي من القاهرة أنني سأجد صور هؤلاء الشهداء في بدايات الشوارع، أو على الأقل تلك المعلومات التي حكاها لي أبي وجدتي وأمي عنهم؛ لكني لم أجد شيئاً. أذكر أن جدتي لأمي كانت معجبة بـ"سيدة الياجوري"، أم الشهيد علي عبد المغني، مؤسس "تنظيم الضباط الأحرار" الذي قاد ثورة 26 سبتمبر 1962؛ لأنها لم تذرف دمعة واحدة عند سماعها خبر استشهاده فداء للوطن. وأبي كان معجباً بشجاعته وقراره التضحية

بحياته عندما قال لأمه وهو يقبل يديها: "والله يا أمي ما أموت إلا موتة الأبطال، ولن أسلم رأسي لبيت حميد الدين". أمي أيضاً كانت تذكر رضا قلب الأم بقضاء الله وقدره: انتظرت أن تزف ابنها إلى عروسه وشاء الله أن يُزف إلى الجنة. اما أنا فقد بهرني في كل ما قرأت عنه شهادة أعداءه انفسهم بشجاعته وبكاء الرئيس جمال عبد الناصر عندما سمع باستشهاده بعد أن التقاه وتحدث معه على متن باخره مصرية في شرم الشيخ قبل اشهر من وفاته.

واصلت سيري، تموج بي تلك الذكريات، باتجاه الطريق المؤدي إلى "السايلة". "السايلة" طريق منخفض يشبه الوادي، ويفصل الجهة الشرقية لصنعاء القديمة، التي كان يطلق عليها قبل ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي "القطيع"، عن الجهة الغربية التي كانت أرضا خصبة تدعى "السرار". تسيل إلى "السايلة" مياه الأمطار من منحدرات خفيفة حول المدينة وتخرج للحقول الزراعية شمال صنعاء. تم رصفها بالحجارة السوداء، لتصبح طريقا للسيارات منذ أواخر التسعينيات.

دخلتُ مدينة صنعاء القديمة مخترقة أزقة ضيقة لا تسمح إلا بمرور سيارة واحدة فقط. وضعت سيارتي في أقرب موقف لها، جوار "بستان شارب"، وترجلت باتجاه مقر عملي. تأخري لا يمنع العم "صالح" من القيام بمهامهِ. يفتح المرسم وينظفه ويستقبل الزائرين، وقد يبيع لهم مما يحويه المرسم من مشغولات يدوية ورسومات لحين وصولي.

قلق "عم محمد" كان واضحا وهو يسألني متجهماً عن سبب تأخري! لم أمُر لأخذ سندوتش البطاطا! فطوري المعتاد في أيام

تواجدي في المدينة القديمة. طمأنته وأنا أقول: "اليوم 7/7 يا عم محمد". أبدى دهشته هو الآخر من هذه الإجراءات. حاول إفهامي ما دار في هذا التاريخ 1994/7/7م، بوصفي كنت خارج اليمن حينها، وبوصفه أحد خريجي جامعة صنعاء – قسم التاريخ، ولم يجد عملا غير بيع البطاط على عربة أو "عربية" متنقلة:

"أطلقت الصحف على أحداث مايو 1994 "حرب الانفصال"، وسمَّت نتيجتها في يوم 7 يوليو من العام ذاته "نصرا" على من كانوا يطالبون فيها بالعودة للتشطير بعد أن كان قد مضى على الوحدة اليمنية بين الشمال والجنوب أربع سنوات".

يواصل بحماس من طُلب منه الرأي في مؤتمر صحفي: "إن عدم الاحتفال بيوم النصر في الأعوام السابقة، ومحاولة جعله يوما عاديا، كان فيه الكثير من الصواب".

شردتُ قليلاً عن حديث العم محمد. أفهم الآن جيداً مقولة أبي في متابعة سنوات الاحتفال بيوم النصر: "عندما تحل العائلة مشكلة سببت لها الكثير من الألم، لا تعود لانتزاعها من أغوارها كل عام محتفية بحلها، ومتجاهلة ما يسببه تذكرها من ألم لمن عانوا منها؛ ألمٌ لن ينتهي إلا بوفاة آخر حفيد لكل أولئك الذين ماتوا من الطرفين في تلك الأيام البغيضة لدى طرفي النزاع!".

غادر "عم محمد" وهو يضرب كفا بكف عائدا لـ"العربية" التي يبيع عليها سندوتشات البيض والبطاط والجبن لطلاب "مدرسة نشوان"، وللمارة في طريقها. ولولا تلك العربة ما استطاع إعالة زوجته وأولاده الثمانية ووالدته. يتباهى "عم محمد" –كغيره من اليمنيين– بكثرة "العول"، ولا يتباهون بجودته! لم

يكمل أحد أولاده حتى تعليمه الإعدادي، ومع ذلك مازال مصرّاً على الاستمرار في إنجاب الأطفال، رغم بلوغه الخمسين عاما. بعضهم يساعده في الوقوف على "العربية" وتجهيز متطلباتها، والبعض الآخر في أعمال المباني المختلفة. يبتسم في وجهي وهو يقول: "رِزقَهُم على الله يا بنتي، خليهم يشتغلوا ويحصلوا رزقهم، ما فعلت لي الشهادة الجامعية، ولا شي!...".

رددت بيني وبيني: إذا كل شيء على الله، ماذا نفعل نحن يا "عم محمد"؟!...

***

مرسمي:

منزل قديم في قلب مدينة "صنعاء القديمة". هكذا باتوا يطلقون عليها بعد قيام ثورة سبتمبر 1962، وعندما انضمت إلى قائمة التراث العالمي، في العام 1971، أصبح اسمها "مدينة السور القديمة" Old walled city. ورغم تهالك السور من ثلاث جهات، وصموده بعد ترميم جيد في جهتها الجنوبية؛ إلا أنه مازال حاضرا ودافئاً في أذهان ساكنيها، محتضناً ذكرياتها وتاريخها بكل ما أوتي من تدعيم لطينه وحجارته على مر السنين.

هناك، خارج السور، صنعاء أخرى جديدة، حديثة، بمبانيها الإسمنتية، وسكانها المتحضرين، الفارين من كل قديم يذكرهم بعهدٍ مضى، عانوا فيه الكثير من الظلم والقهر والحرمان... ماضٍ يجب أن ينسوه بالابتعاد عنه؛ لذلك يتسربون من بين أزقة المدينة القديمة كلما وجدوا فرصة مناسبة بالحصول على منزل في المدينة الجديدة، ولو في حُجرات عشوائية باردة يتم بناؤها ليلاً، خوفا من

"البلدية"، ليسكنوها في الصباح... بيوت ليلية شكلت أطراف المدينة الجديدة، لتتناسل أطرافاً أخرى تنهش جمال المدينة على مر التاريخ، وتسلب البشر كرامة العيش...

وحدهم كبار السن باقون فيها، يمنحون صنعاء القديمة دفء ما مضى من ذكريات حياتهم، ليستمروا فيها بحبٍّ على أن يغادروها. يقومون بأعمال وطقوس مشتركة في أماكن متفرقة من جسد المدينة المتشعب، بأزقته وحاراته ومبانيه، كأنهم رجل واحد، يخرج للصلاة فجرا مهما كان البرد قارصاً، ويبتهج بالجلوس عصراً مع أصدقائه في "صرحة" الحارة، ذلك المكان الواسع الذي تطل عليه منازلهم وذكرياتهم في آن... المكان الذي يقتسمون فيه أحزانهم وأفراحهم بالتساوي.

اشتريت المنزل قبل تسعة أعوام. كان سعره مناسباً جداً، مقارنة بجنون أسعار هذه الأيام. حجرة "المنظر" تتربع قمة ثلاثة طوابق، نوافذها حرة من ثلاث جهات، تطل على "جبل نقم" من الشرق، وسمحت البيوت غير المرتفعة إلى جواره برؤية قمة "جبل عيبان" من الغرب. تحولت تسمية تلك الحُجرة إلى"المفرج" الإسم الذي أطلقه الأتراك اثناء تواجدهم في اليمن في الجزء الغربي لمنطقة بستان السلطان ونقلوها من أعلى دور لتكون في الأرضي وتصبح "مفرج" يتفرج منه الساكنين على "شذروان" من الماء في وسط حديقة خضراء في مقيلهم لتناول القات او في اجتماعاتهم العائلية.

جعلتُ من الدور الأرضي معرضاً لبيع أعمالي الفنية. في أحد أركانه أبيع ما يريد أهل المدينة بيعه من منتجات قديمة،

إضافة إلى بيع بعض المشغولات اليدوية التقليدية التي تروقني، تُحضرها لي بعض ربات البيوت، وتستهوي مزاج السُياح الذين يتوافدون لزيارة صنعاء القديمة طيلة أيام العام. لا يكترث بعض هؤلاء السُياح لعمليات اختطاف انتشرت في السنوات الأخيرة حال خروجهم لزيارة بعض المدن التاريخية من قِبل بعض مشايخ القبائل. يصرون على زيارة المدن التاريخية من شدة شغفهم بها. حكى لي "ماركو" الإيطالي أن فترة اختطافه كانت تجربة فريدة لم يشعر فيها بالخوف، بل بالإثارة، وهو يستمتع بكرم ضيافة القبائل حتى تنفذ لهم الدولة مطالب المشايخ، كالإفراج عن مساجين لديها أو حل قضايا ثأر بين العائلات الحاكمة في تلك المدن...

أما الدور الأول من المنزل فقد جعلتُ منه معرضاً دائماً خاصاً بالزوار على اختلافهم، سواء كانوا أجانب من السياح، أم من أهل صنعاء المهتمين بالرسم والتشكيل. الدور الثاني خاص بي، أحتفظ فيه بكل أدواتي، من ألوان وأقمشة وبراويز وقوائم خشبية... في أحد أركانه أنجز أعمالي بمزاج تفرضه اللحظة التي أمر بها. لا ألتزم بوقت محدد للرسم فيه، وأترك حالتي المزاجية هي المسيطرة، لا يشاركني في دخول هذا الدور أحد، فيما عدا بعض النماذج من سكان المدينة التي توافق على رسمها. أسعد أوقاتي وأنا أتوحد مع رسم وجوه نساء ورجال تحرك فيّ ساكنا، أو أطفال لهم ملامح شيطانية بشقاوتها، أو طافحة ببراءتها، أو معجونة بمزيج "صنعاني" خاص في العيون اللامعة الذكية والبشرة الرائقة...

أعلى، في حُجرة "المنظر" التي تطل على بستان شارب وحوله بعض المباني، أختلي بذاتي كثيرا، يأخذني حنين إلى قليل أيامي في صنعاء وأنا طفلة. لم تكن تشبعني تلك الزيارات المتفرقة في الإجازات. أتأمل من نوافذه الواسعة المدينة المتفردة في العالم بعمارتها ومبانيها العالية التي تصل مداها بالأدوار السبعة والمزخرفة بـ"الجص" الأبيض حول نوافذها وأبوابها الخشبية. انعكاس الضوء من الخارج على "القمريات" الملونة، يجعل من "المنظر" نابضا بالرومانسية والهدوء. فأدرك لماذا كانت حجرة للإختلاء لمناجاة الألهه "إل مقه" في اليمن القديم وينتابني خدرٍ لذيذ لجسمي باسترجاع تلك الأساطير التي لفّت المدينة ومبانيها وساكنيها بعالمٍ مبهرٍ.

أفتحُ مرسمي من الثامنة صباحا حتى الثانية عشرة، أغلقهُ وقت صلاة الظهر، بعد سماع ارتفاع صوت الأذان بتتابعٍ مدهش من خلال المائة مئذنة المتواجدة فقط في مدينة صنعاء القديمة. لا يحب سكان المدينة استفزازهم، بالذات في أوقات العبادة. لا يفرضون طقوسهم على أحد؛ لكنهم يمتنّون لمن يحترمها ويراعي مشاعرهم في تأديتها. أغادر في الخامسة عصراً إلى منزلي في صنعاء الجديدة في حين يظل هناك العم "صالح" لبيع المنتجات حتى التاسعة مساء.

نادراً ما أرسم لوحة سريالية مبهمة، أو تجريدية خيالية. أحب الواقعية. أتقن رسم "بورتريهات" الوجوه، خاصة لكبار السن. أتحدى نفسي في إتقان تغضن بشرتها، وكأني أمدها بالحياة التي

كادت أن تذوي في عروقها. ما أعشقه أكثر هو رسم هذه المباني القديمة العالية كأول ناطحات سحاب في العالم، والتغلغل في تفاصيلها، أتخيل فيها عوالم لم أعشها. تغشاني بين الحين والآخر حالة شجن وأنا أمر بريشتي للتفنن في إبراز ضوء خافتٍ ينبعث من نوافذ منزل صغير، أو رسم "تجوابٍ" عالٍ لنهاية منزلٍ مطلٍّ على المدينة القديمة، تاركة المدينة الجديدة خلفية باهتة مترامية الأطراف.

أختلي بذاتي كثيراً في المرسم. ليس لي طقوس معينة في الرسم مثل باقي الرسامين. لا أنكش شعري، أو أرتدي ملابس غير نظيفة. لا أدخن بكثرة وأنا أرسم؛ لكني أستمتع بنفخ تعبي في نهاية كل لوحة بسيجارة بنكهة النعناع. أستعدُّ للرسم استعدادي لملاقاة حبيب. أسرح شعري، أُكحل عيني، أضع مسحة ماكياج خفيف على وجهي، أرتدي غالبا قميصاً عاري الكتفين وبنطلوناً قصيراً.

بعض الأيام أشعر فيها برغبة جامحة للاستمرار في العمل حتى وقت متأخر من الليل، أضطر فيها للمبيت في المرسم، يزعج ذلك أمي كثيراً، لكنها تتقبله على مضض. هي من أصرت على عدم السكن في المدينة القديمة، دون أن تظهر لي الأسباب. رجوتها شراء بيت أوسع من المرسم ليكون سكناً لنا ومرسماً في ذات الوقت؛ لكنها رفضت وبشدة. شيءٌ ما لا تريد أن تتذكره! شيءٌ ما سبب لها جراحاً لم تندمل بعد، وترفض الحديث عنها. بقينا في منزلنا الذي غادرناه قبل ثلاثين عاماً، قضيناها في القاهرة، وسمحت لي بشراء هذا المنزل الصغير في "حارة شارب"، في طرف الجزء الجنوبي لصنعاء القديمة.

في مرسمي أتنقل بخفة، مرتدية ملابس ملونة، أتحلل من سواد البالطو خارج المنزل. لم يعد ظهور شعري مشكلة لزوار المرسم، كما لم يعد نصفه الظاهر من غطاء الرأس ملفتاً للأنظار خارجه. "مقارم" غطاء شعري الصارخة بألوان الحياة تثير الانتباه، ربما أكثر مما يظهر منه!

عدتُ مع أمي في العام 2000 من القاهرة، بعد أن قضينا فيها تلك المدة الطويلة. عدنا بشكل نهائي، تحديدا بعد وفاة والدي بعام واحد. ورغم حب والدي العظيم لليمن، وبالذات صنعاء، لم يفكر مطلقاً بالعودة لها، ولو من باب الزيارة، من منفاه الذي اختاره بكامل إرادته، ليكون القاهرة منذ أوائل السبعينيات، كما لم يتوقف يوماً عن الحديث مناجياً صنعاء، كمعشوقة أبدية يحتويها كل ليلة بين جوانحه، يطبق عليها جفنيه وينام قرير العين، محتفظاً بالصورة التي يريدها، وربما الصورة التي غادرها قبل انقضاء كل تلك السنين. يتناول البُن اليمني كل صباح، وكل صباح يرتشف الرشفة الأولى متعمداً إصدار صوتٍ عالٍ، منتشياً بمذاقها الخاص لديه. راقبْتُه مراراً وهو يحمصها بيديه على النار، يقسم بأناقة أي كمية متوفرة إلى نصفين، غامق وفاتح، ثم يضيف لها بعض الهيل، ويطحنها بكميات قليلة، حتى لا تفقد نكهتها التي يحب.

لم أسأله يوماً ماذا يتذكر عن صنعاء، أو ماذا يشعر؛ لكني كنت أشعر بالنشوة ذاتها، وأعيش معه اللحظة بمزيدٍ من الأمل في العودة لها وبناء ذكريات لي فيها، كما فعل هو، حتى لو جرحته بل أدمته وتركته ينزف حتى كاد أن يموت!...

كان، بكل حبه لها والحديث عنها، يجذر في داخلي حبها وحب العودة إليها وأمل الحياة فيها. صنعاء، تلك الساحرة بتاريخها، النائمة تحت سفح جبل عارٍ من الأشجار الوارفة أو الصخور الحامية. "تشعر دائما بالبرد وعدم اليقين بالأمان فيها" كما كان يقول عنها دائما. صنعاء التي لا يسأل إلا عنها وعن أحوالها وأحوال ناسها، بعد كل عودة لي وأمي وشقيقي "نصر" من إجازتنا السنوية التي كنا نقضيها بدونه في صنعاء.

لم تتحمل أمي البقاء في القاهرة بعد وفاته، خصوصاً بعد أن اطمأنت على شقيقي الذي تزوج بفتاة مصرية.

الزواج من جنسية أخرى لم يكن يشكل لشقيقي أو لأمي، أو حتى لوالدي، مشكلة؛ لكنه بالنسبة لي كان كارثة؛ كيف أتزوج من رجلٍ لا يشبه أبي في تربيته وبيئته في موطنه، رجلٍ غريبٍ عني، رجلٍ لا يعرف عن بلدي غير ما سمعه عنها، رجلٍ لم يشاركني يوماً السير في شوارعها واللعب في حواريها والاختباء في أركان أزقتها، رجلٍ لا يتذوق نكهة ذكرياتي عندما أحكيها له، ولا يصله نبض فرحها وحزنها وخيباتها وآمالها...؟!

لم أصرح بهذا يوماً لأبي أو لأمي، حتى لا يشعرا بخيبة الأمل في تربيتي كما أرادا: تربية تقبل الآخر دون النظر لجنسه أو لونه أو دينه. لا يريدني أبي بالذات أن أفكر كأولئك الذين قالوا له يوما إنه "مُوَلَّد" وليس صنعانياً خالصاً؛ بسبب أمه الحبشية. كنتُ كذلك متمدنة حتى العظم، فيما عدا أن أكون لرجلٍ من غير وطني! لذلك أتقنت فن خلق الأعذار لرفض كل من تقدم لخطبتي أثناء دراستي الجامعية في القاهرة.

حلمتُ دائما بالزواج؛ لكن من رجل صنعاني، نعم، صنعاني خالص مائة بالمائة، نشأ وتربى في المدينة القديمة تحديداً، يعرف أزقتها، لعب في حواريها، وعجنته عاداتها وتقاليدها الإنسانية، حتى غدا إنساناً يجري في دمه حب المدينة وألقها الذي لم يخبُ لحظة منذ ألفي عام ويزيد، رجل صنعاني مثل أبي... بحميمية صغائر خباياه مع أمي، بحبه العظيم لها، بتفاصيل رجولته الصنعانية اليومية التي لا أعرف من أين جاءته، هل من أهل صنعاء الطيبين، أم من أمه، جدتي "مسرة"، المرأة الإثيوبية الجميلة، التي منحته لونها الأسمر وكل حنانها! ومنحتني المزيد من عشق المدينة التي يقع في غرامها حتى الغرباء.

في الثالثة عشرة من عمري، ولسبب لم أدركه إلا وقد تجاوزت العشرين عاما، حكت لي جدتي "مسرة" عن جدي ما لا يمكنني نسيانه، حكت عن انتظاره لها حال عودتها من الحمَّام التركي العام، بكوب من شراب الورد البلدي البارد، يكون قد نقعه لها من مساء الليلة الماضية، واعدا إياها بليلة ساحرة، ومرددا على مسامعها أغنية الحمام الصنعانية، حتى لا تنسى مراحل طقوسه التي يعشقها: يريد جسداً لخليلته مخضب بالحنا، وشعراً تفوح منه رائحة العنبر، وخدوداً لونها وردي، وعيونا كحيلة ومثيرة... كل هذا من أجل الحلا والسلا والسمر والمنادمة في تلك الليلة الموعودة والواعدة بالفرح والسرور لنجاة المحبين من هموم الحياة!

علمها جدي اللهجة الصنعانية، المتميزة برنة حروفها في المخارج وبدلعها في اللفظ حتى أتقنتها. وعلمها الرقص الصنعاني بحركاتٍ

الغُنجِ والدلالِ التي يعشقها، حتى أصبحت مصدر ابتداء نشوته وخاتمتها. يقضيان ليلهما بين الأحاديث الجميلة والرقص، حتى يداهمهما الصباح دون أن يشعرا... تقول جدتي "مسرة" إنها لم تنم يوماً إلا بعد أن ينام، ولم تستيقظ بعده يوماً، إلا فيما ندر، لتكون آخر وجه يراه قبل نومه وأول وجه يستقبله حال استيقاظه.

كان بال جدتي طويلاً وهي تعلمني الرقص الصنعاني بحركاته الثلاث المتتابعة كما فعل معها جدي. قالت لي باختصار: في خطوات"الدعسة" مايلي جسمك بدلال؛ وفي خطوات "الوسطى" مايلي جسمك بتناغم مع ايقاع قدميك؛ وفي خطوات "السارع" اضيفي فرح وبهجة للجسم وايقاع القدم معاً.

سماعنا للأغاني اليمنية في القاهرة كان له مذاق خاص. ينصت لأنغامها وكلماتها الجميع بوله. تغنى بصنعاء الفنانين لتضيف لفنهم فناً آخرفي القلوب. من تغنى بصنعاء اقترب من الله والتصق به الحب وفهم معنى وطن! بل وعاش الحياة مبهورا ببساطتها في حزنها وفرحها معاً. سماع تلك الأغاني كان يحرك في اعماقي شجناً حزيناً! وحلماً بلقاء مغنوها وأماني بسماعها برفقة من أحب. أترك أبي منسجماً دون مقاطعة او سؤال مني وهو يستمع لها. لكن مع جدتي كنتُ أكثر فضولٍ في معرفة كل شيء عنها. تفسر لي بعض كلماتها حتى حفظتها. وعرفت أكثر عن شعرائها وعن مغنيها. تقول جدتي: عندما يغني "محمد الحارثي" من كلمات الشاعر الذي لقب "بالحميني" "محمد شرف الدين" أشعرهما نسيجاً احد عاشا الفترة ذاتها، رغم ان بينهما اكثر

من اربعمائة عام. تمسك بيدي وتغيب في عالمها ونحن نرقص على أغنية تقول كلماتها:

عليك سموني وسمسموني وبالملامة فيك عذبوني
وجروا المصحف وحلفوني وقصدهم بالنار يحرقوني
حلفت ما احبك فكذبوني وقبل ذا كانو يصدقوني
هم يحسبو أضمرت في يميني فقلت الله بينهم وبيني

وعندما يشع الضوء من صوت الفنان علي الانسي فهو يردد كلمات الشاعر "ابراهيم الحضراني" أو "عباس المطاع" أو "مطهر الإرياني". او "محمد شرف الدين" فتستمع بوله لكل اغانيه. تتذكر جدي وتكاد تشعره إلى جوارها، ينادمها ويراقصها ويدللها ويردد لها كل تلك الكلمات النابضة بالحب "لشرف الدين" وكأنه كتبها لها:

ممشوق القوام أفدي بروحي قوامه
باخل بالكلام لمه بخل في كلامه
لو رد السلام أحيا فؤادي سلامة
هل خاف الملام ممن يطوَّل ملامه

سألتها: كيف يشع الضوء من الصوت؟ قالت عندما تشعرينه يضيء اعماقك بالسعادة ويجعل قلبك "ساع الوردة" على قول أهل صنعاء. يوماً عن يوم. كان يصلني ذلك الضوء. اشعره يغمرني نشوة فيتمايل جسمي عذوبة، ويغشى صوتي لهفة ليردد تلك الاغاني ويعرف المزيد من حكاياها واسراراها الناضحة بالعشق. ارقص مع جدتي فأحلق باحلامي وامنياتي فوق صنعاء التي اريد.

أحببت جدتي، وتمنيت أن أُحب رجلاً كأبي.

***

"حميد" لم يكن مثل جدي أو أبي.

قابلته لأول مرة عندما جاء إلى المرسم كزائر عادي يريد شراء لوحة لمنازل صنعانية متجاورة. ولأنه يمني – ونادرا ما يزور اليمنيون المرسم، ولأنه أنيق وثيابه نظيفة جدا ووسامته مثيرة للانتباه؛ داهمتني مشاعر متناقضة؛ لكنها كانت طازجة عليَّ، أبهجتني كتناول فاكهة باردة في ظهيرة صيف حار...

بدا لي حجمه فارعاً، جعلني أشعر بأني سأكون كحمامةٍ يغمرها الدفء والسكون في حضنه... هكذا! صورة لا أعرف كيف داهمت ذهني أو من أيّ وادٍ سحيق صعدت إلى ذاكرتي! بصعوبةٍ تخلصت من خيالاتي وأنا أتفاهم معه على اللوحة وقيمتها، وبصعوبة أكثر حاولت ألا أفكر فيه بقية اليوم. لكني بسهولة نمت ليلتها في المرسم منتشية برسم سيناريو لقضاء ليلة سمر صنعانية ساحرة!...

لم يعد بعدها "حميد" لأخذ اللوحة كما وعد، ولم أعد أنا لخيال البارحة برفقة رجل صنعاني، حتى أنني تجنبت النوم في المرسم بعدها لشهور، لأتخلص من تلك القامة الطويلة والمنكب العريض والوجه القمحي بعينيه العسليتين وأسنانه البيضاء المتراصة!...

***

يثير بعض المارة على المرسم فضولي من شدة ذكائهم وإحساسهم باللون وتفسيره في اللوحات وإدراك قيمة العمل وفلسفته. بعضهم الآخر يثير حنقي بغبائه. صرت أكثر خبرة يوماً عن يوم بنوع الزائرين وغرضهم الجاد أو التهكمي الاستعراضي على مرسم تديره امرأة يمنية في قلب مدينة صنعاء القديمة، تجاهر بألوانها الصارخة لتذيبها في نسيج المدينة البشري والحجري معاً. أُدركُ ذلك وأتحمله، أمنحهم وقتاً لاستيعاب الفكرة ومن ثم قبولها.

كان من الممكن أن يكون مرور "حميد" عابراً مثل غيره، وأن تكون عودته غير ذات أهمية بالنسبة لي، مثل أولئك الذين يكررون زياراتهم للمرسم كلما مروا بصنعاء القديمة؛ لولا جرأته التي أبداها المرة الأولى في التنقل بين أجزاء المرسم وفي الحديث مع الزوار، ولولا عودته للمرة الثانية بتلك الحالة التي أثارت في نفسي الشفقة والفرحة معاً، وجعلتني حائرة في كيفية التعامل معه؛ إن أبديت له أنني مازلت أذكره بعد مضي هذه الفترة التي تجاوزت الشهرين، قد يستغرب! وإن تجاهلته فقد لمس اهتمامي في الإجابة على كل أسئلته ومناقشته كضليع في فن التشكيل دون سؤاله عن تخصصه أو مهنته!

شفقتي كان سببها تعكزه على عصا يساعد به إحدى رجليه على المشي، وشحوب واضح على وجهه، مما يدل على أنه مر بفترة عصيبة. وعندما لم أستطع منع نفسي من سؤاله شرح لي سبب استناده إلى ذلك العكاز، أنه كان حادث سيارة... كُسرت

ساقه ومازالت في الجبس، لذلك يستخدم العصا لمساعدته على المشي.

بدوت لنفسي واجمة منذ دخول "حميد" المرسم، مرتبكة دون سبب واضح! أريد فقط النظر إليه والحديث معه. هو أيضا لم يألُ جهداً في مراقبتي والاستغراق في تفاصيل وجهي، بنظرات لم أجد لها تفسيراً! قطع شرودي وسألني، بعد مرور سريع له في أرجاء المرسم، عن لوحته التي حجزها في زيارته السابقة وفضلتُ أنا بقاءها لحين انتهاء المعرض الذي كان مقاماً في حينه. شعرت بالذنب. اعترفت له ببيعها بعد يأسي من عودته، ووعدته بالتكفير عن فعلتي والإسراع برسم غيرها... أدركت في خباياي أنه كان وعدا لمد جسر تواصل ولعودة منه أتمناها...

ودعني "حميد" بهدوء ابتسامته، قال إنه سيعود لأخذ اللوحة بعد أسبوع. وعدته بإنجازها في تلك الفترة، وفي أعماقي تمنيت ألا يعود؛ لا أعرف لماذا! ولا أعرف لماذا يرتجف جسدي الآن!...

غادر، ومع ذلك لم يخف ارتباكي أو تهدأ نبضات قلبي! انتابتني حالة وجوم أكثر من سابقتها، وتفكير فيما كان منذ لحظات!... تمنيت لو أن هناك شاهداً أميناً يصف لي ما دار بيني وبينه، كلمة كلمة، ونظرة نظرة... شاهداً يقول إن لهفتي لشرب ملامح وجهه وأنا أحدثه لم تكن، وأن التقاطي لتفاصيل هيئته لم تفضحها عيناي، وأن إعجابي بذلك الشكل الصنعاني لرجل طويل القامة، قمحي البشرة، آسرٍ بحديثه المنمق وبهندامه الأنيق جداً، كان حلماً لا غير، وأن تلك النواجذ التي شغلني بياضها وهو

يحدثني لن يتفنن في تقطيع مشاعري وآمالي بها يوماً ما، مهما حدث من تقلبات الأيام وغدر الزمان!...

ارتباكي من قدومه المفاجئ أنساني سؤاله عن مهنته. ترك لي مجالاً لأخمن ماذا يعمل "حميد"! رقته وكلامه المنمق توحي بأنه شاعر! اندماجه في التعامل مع الآخرين وجرّ حكاياتهم من خلال الكلمات القليلة التي علق بها على اللوحات وألوانها، وأيضاً تبادله للحديث بالانجليزية مع بعض السائحين توحي بأنه روائي أو كاتب قصة قصيرة! أما وسامته وأناقته في المرة الأولى والثانية التي رأيته فيها فتوحي بأنه مسؤول علاقات عامة في إحدى الشركات الكبرى!

لا يهم، مهما كانت مهنته، المهم أنه جاء وحرك فيَّ كل ساكن!...

مر الأسبوع. جاء "حميد" في موعده ليأخذ اللوحة. مازال يتعكز على تلك العصا الجميلة. أبديت إعجابي بلونها الخشبي الأنيق، وبالزخرفة الملونة في منتصفها، فقال إنها من خشب الأبنوس، الخشب الذي رغم هشاشته إلا أن سهولة صقله تجعل منه مادة مغرية للتلبيسات الخشبية على الأثاث. وأضاف، وهو شديد التركيز على عينيَّ متعمداً هدوء نبرة صوته الرَخِيم: "لكنه خشب ناعم جداً، ولبُّه الخشبي الغامق اللون، ونُسُغهُ الرمادي والأبيض، الضارب للوردي، سهل النحت، لذلك تُصنع منه المفاتيح السوداء لآلة البيانو الموسيقية وآلة الناي والمنحوتات الجسدية والجمالية التجريدية التي نشاهدها في ميادين العالم المتقدم ومتاحفه المتنوعة وتضفي على ذواتنا متعة وتساؤلاً عن كيفية

إنجازها الدقيق المدهش!... وأنتِ فنانة وتعرفين هذا أكثر مني بالطبع"!...

أمتعتني نظرته وإسهابه في الشرح، وأدهشني عجزي عن تفسير ذلك! هل يريد محاورتي عن نوع العصا، أم عن منحوتات المدن، أم عن الفن؟! أضاف، وهو يتمعن في عصاه الجميلة: "إنها هدية، وصلتني من الهند، ولا مانع لديّ من العودة للمنزل بدونها وإهدائها لك بكل سرور"!...

تضاعفتْ متعتي بعرضه السخيّ، الذي قابلته بالشكر، وبكثير من الوجوم، قبل انسحابي بهدوء من أمامه للرد على تساؤل أحد السائحين.

لمحتُهُ مغادراً المرسم حاملاً اللوحة بيده، بعد أن لفها له "صالح" في ورق يحميها. التفتَ فجأة ليجدني متلبسة بمراقبته. دحرجَ لي ابتسامة وتلويحاً هادئاً بالعصا، قائلاً: "شكراً على تخفيض قيمة اللوحة. مع السلامة!".

***

تكرر مرور "حميد" على المرسم. وفي كل مرة، يبتسم بهدوء موجهاً كلامه لي: "فقط مررتُ أسلم عليك! عاهدتُ نفسي على ذلك كلما مررتُ من هذا الطريق لاختراق قلب مدينتي". قهقه وهو يؤكد: "لا تندهشي من كثرة زيارتي للمدينة! إنها مدينتي ومعشوقتي وحبيبتي التي لا أستغني عنها، التي أتنفسها كالهواء، وأشربها كالماء، لأحيا. أشعر بالغيرة كلما أبدى أحدٌ إعجاباً بها أكثر مني، أو ولهاً أكثر مني. إنها غيرة لا أستطيع مقاومتها...

تحمليني!" ضحك بصوت عال وانصرف دون أن ينتظر مني ردا على كلامه!

لم أفهم حينها أنه كان يقصدني، وأن مرسمي في المدينة أثار حنقه وغيرته، فقد كان تعبيراً صادقاً عن حبي لمدينته وعن رغبتي في تخليدها بالرسم... لكني فهمت قصده ولو بعد حين!...

حاولت جاهدة ألا يكون مرور "حميد" المتكرر مثيراً للتساؤل، فعاملته كغيره من زوار المرسم. كما حاول هو ألا يدرك أحد غيري اهتمامه بي وبنظراته الملاحقة لي في كل زوايا المرسم! فلم يكن يتحدث معي إلا فيما ندر، ويكتفي بالحديث مع من يتواجد في المرسم من سائحين تثير في نفوسهم مكوناتُ المرسم ومحتوياته أسئلةً لا نهاية لها. وأحياناً يشرح لراغبٍ بشراء إحدى الأعمال المعروضة وجهة نظره ورأيه فيها. يفتح مواضيع كثيرة مع الطلبة وهواة تعلم فن الرسم.

أستقبل في المرسم بعض أطفال الحي، وبعض الطلبة من كليات مختلفة، لتقوية مهاراتهم في الرسم. ألزمهم جدولاً لاستقبالهم، حتى أحافظ على نظام سير المرسم. أستقبلهم عادة في هدوء فترة بعد العصر. طلب مني "حميد" يوماً الانضمام إليهم ليتعلم أبجديات الرسم. ابتسمت لطلبه، ولا أعرف إن كان جاداً أم مازحاً. بعد يومين رحب كثيراً بطلبي أن أرسم له "بورتريه" للوجه. أبدى استعداده بسرور طافح من وجهه، أخذ نفساً عميقاً وارتسمت على ملامحه ابتسامة ماكرة تقول: لن تهربي مني!...

رسمُ البورتريه بمادة الفحم يأخذ في أقصى حالاته يومين لإنهائه؛ لكني طلبت منه الحضور يوما ثالثاً لعمل اللمسات

الأخيرة. لم يرفض، أبدى نفس الغبطة التي وافق بها. كان هادئاً، لحوحاً، بنظراته الحانية، فيما عدا أسئلته الثلاثة التي انتقاها بعناية ليثير انتباهي...

في اليوم الأول سأل: "هل أنت يمنية خالصة؟". استغربت من سؤاله، وماذا يعني بقوله: خالصة؟! فقال إن طول قامتي ورشاقة جسدي لا يوحيان بأني من أبوين يمنيين. قلت: "بل من أبويين يمنيين؛ لكن جدتي إثيوبية، تزوجها جدي في إحدى سفرياته إلى الحبشة، حيث كان يمتهن التجارة بين عدن والحبشة، رغم استقراره في صنعاء"... اكتفى بذلك الجواب واستمر في مراقبتي عن بعد! لا أعرف إن كان قد وصله ارتباكي. بجهدٍ واصلت الرسم!

حال مغادرته رحتُ أتفحص ملابسي أمام المرآة. كانت فضفاضة، الفوطة الزرقاء والفانيللة الملطخة بالألوان، لا تظهران شيئاً من تفاصيل جسدي، فكيف استطاع تمييز رشاقة قوامي كما قال؟! أم أن غرضه كان إرباكي والمضي فقط؟!

اليوم الثاني سأل: "أين تعلمت الرسم؟". أجبته دون أن أرفع رأسي عن قضبان الفحم التي أحاول تهذيب رؤوسها بآلة حادة استعدادا لمواصلة الرسم: "أنا خريجة كلية الفنون الجميلة. درست في القاهرة". لم يندهش، وأردف: "توقعت ذلك! حتى الآن لا يوجد لدينا هذه الكلية في اليمن، ولا يوجد من يهتم بالفنون التشكيلية في الأصل!!".

اليوم الثالث كان سؤاله منفذاً لنقاشٍ طويلٍ وأخذٍ وردٍّ في الحديثِ. لم أخض فيه، واعتذرت؛ كون الإجابة تحتاج إلى وقت

طويل، لن أشغله بها. لم يعلق أو يلحّ على سؤاله في معرفة سبب دراستي في القاهرة، وقبِلَ اعتذاري بهدوء.

***

هذا هو "حميد"، معي دائماً منذ بداية حكايتنا، يأخذ من كلامي ما يريد، ما يهمه ويهم مزاجه، أو حتى رغباته. لم يشاركني أحلامي. لم تأخذه تفاصيلها الصغيرة. لم يدعني يوماً أكمل له جملة أو أشرح له فكرة، أو حتى أسترسل له في حكاية قديمة عَلِقَتْ في ذاكرتي... منذ وقف أمامي لأرسم له البورتريه وهو يتقن تفاصيل جسدي. أندهش من إمساكه بتلابيب تلك التفاصيل في تلك الساعات القليلة التي وقفها أمامي! أشياء صغيرة تلهبه وتجعل منه حطباً مشتعلاً، طالباً المزيد.

كيف يمكن أن يكون الحب منفصلاً بهذه الطريقة؟! وهل شعور "حميد" تجاهي منذ تلك اللحظة هو حب أم رغبة فقط؟!...

باغتني "حميد" قبل رحيله سائلاً:

– هل ستسمين اللوحة؟

– التسميات لم تعد مهمة، للمتلقي حرية اختيار تسميتها كما يراها، أو لنقل كما يشعر بها!

– وهل من السهل وصول هذا المفهوم الحداثي لأهل صنعاء؟

– نعم، بذات سهولة قراءة التسمية على اللوحة.

– أيهما أفضل، رسم البورتريه بالفحم والرصاص أم بالألوان الزيتية؟

أجبته باقتضاب؛ لأني شعرت بأنه سؤال استعراضي لمعلوماته في الرسم والألوان:

– لا أفضل بقاء الشخص أمامي فترة طويلة أو عدة أيام، وهذا ما تتطلبه ألوان الزيت لتجف. وإذا لم أقتنع باللوحة بأقلام الرصاص أحولها لألوان الزيت، دون الحاجة للشخص من جديد.

فاجأني مجدداً بعدها بطلب شراء اللوحة.

اعتذرت. أبديت شعوري بعرفانٍ جمٍّ لصنيع ما فعله معي في الثلاثة الأيام الماضية، وقلت له إنها ستكون ضمن المعرض الدائم في المرسم. اعتذرت له أيضاً عن عدم إيضاحي لشروط رسم اللوحة منذ البداية. ليس هذا فحسب، بل إنني عرضت عليه مالاً مقابل صَنيعه.

أثار عرضي هذا حنقه، فغادر المرسم ممتعضاً، دون وداع.

بعد يومين، جاء إلى المرسم قبل غروب الشمس، مرتدياً معطفاً لونه كحلي، يصل إلى ركبتيه وحول رقبته يضع وشاحاً داكن الخضرة. طلب مني مبتسماً قبول دعوته لتناول القهوة الصنعانية في "سمسرة وردة". ولما وجدني مترددة، لم يفعل أكثر من الانتظار بالابتسامة ذاتها. قبلتُ دعوته. كان مبرري هو التعبير عن امتناني لبقائه ثلاثة أيام متتالية أمامي لرسم اللوحة.

سرتُ إلى جواره مبهوتة بهذا الرجل ذي المعطف الكحلي، كأني في عمق قراءة صفحات من رواية أسطورية. يتحدث بتلقائية عن كل ما يجده أمامه في المدينة. دفء صوته يثير فيَّ شجناً لا أعرف سببه! يشبه شجن اشتياقي لأبي ولرؤيته ولاحتضانه! شعور مُحيِّر!

للوصول إلى "سمسرة وردة" من المرسم، عبرنا "حارة الأبهر" و"حارة الجامع الكبير" و"حارة سوق البقر". في ركن

"سوق العسوب" لصناعة "الجنابي" والخناجر اليمنية تقع "السمسرة". مصطبة مرتفعة يصنع فيها "طه" –مالك "السمسرة"– البنَّ اليمني، وقهوة "القشر"، والشاي أيضاً. يولي كل زبون اهتماماً خاصاً، كأنه يعرفه منذ زمن، وكأنَّ قهوته مميزة. يغمر الزبون النشوة والامتنان معاً وهو يرى "جزوة طه" لا تتسع إلا لفنجانه الذي يناوله "طه" مبتسماً وهو يقول: "بالعافية!".

لا تتسع "السمسرة" لكثيرين داخلها؛ لذلك يستغل "طه"، وأصحاب "السماسر" الأخرى المتفرقة في أنحاء المدينة، وقت ما بعد الفجر لاستقبال عشاق القهوة الصنعانية، حتى موعد فتح دكاكين السوق أبوابها بين التاسعة والعاشرة صباحاً، إضافة إلى وقت قبل أذان المغرب وحتى أذان العشاء؛ يكون معظم أصحاب الدكاكين في المسجد لأداء الصلاة.

حال وصولنا، اختار لنا "حميد" مصطبة مرتفعة خارج "السمسرة" تسمح لنا بالانزواء عن الأعين، ولو من جهة واحدة، واعتذر؛ كون المكان شعبياً ومتواضعاً؛ لكن قهوته في منتهى النكهة الصنعانية الأصلية. لا يعلم –ولم أخبره– أن سَيْري في شوارع صنعاء القديمة بعد الفجر أو قبل المغرب ينتهي بقهوة "سمسرة وردة"، تحديداً في هذا الركن الذي أحدثه فيه، وأن لي أحاديثَ متنوعة وشيقة مع كبار السن من رواد "السمسرة" يلقونها من على كواهلهم لي من باب التندر أحياناً، ومن باب استرجاع زمنهم الذي لن يعوض كما يقولون.

اختزلتُ تفاصيلي مع المدينة، وآثرتُ السكوت، في حين راح هو يحكي ويتذكر ويضحك... وكأنه يعرفني منذ سنين! وكأنّا صديقين، بل حبيبين يتبادلان الذكريات ليعرف كل حبيب ما فاته من حياة قبل رؤية حبيبه! بدأ بأسى اكتسح وجهه سارداً بعض ذكريات طفولته في حارات المدينة، وعرج بعدها باستمتاع لسرد حكايات الحب التي تقاطع معها وجعلت المرأة نعيماً أساسياً في حياته. أدهشني بتلقائية حديثه عن تلك الذكريات الخاصة جداً، وكأنَّ تلك اللحظة كانت مخبأة في جعبة أحلامه وأخرجها دفعةً واحدةً!

لم أمنحه في تلك اللحظات غير الإنصات، ولم أخفِ غير الدهشة، وأسئلة كثيرة تزاحمت في جمجمتي عن سبب تدفق تلك الذكريات، ولي أنا بالذات!

لماذا يحدثني بكل هذا، هذا "الحميد"؟! لماذا؟!!

***

II

تتوسط الجنبية جسد الرجل اليمني، دليل عنفوانه ورجولته. يقال لرأسها المصقول من ناب حيوان وحيد القرن " صيفاني" ولجسده المثبت بها" سلة" من حديد فاخر لا يصدأ. تعارف الناس على ان لمس مقبضها في الشجار دليل النوايا العدواني. وإخراج الخنجر حتى منتصف غمده إنذارا بالهجوم، أما سحب الخنجر بكامله فهو المعركة والدماء التي يجب أن تسيل قبل أن يعود إلى غمدهِ مضرجاً بها...

الصنعاني!...

ما الذي جعل خط سيري في صنعاء القديمة يبدأ من طريق مرسم "صبحية" منذ اكتشافي له؟ ما الذي جعلني أعود لأخذ اللوحة من مرسمها بعد أن قضيت كل تلك الفترة في التفكير فيها؟ هل تكون "صبحية" قدري فيما تبقى لي من عُمر في هذه الحياة؟! أم هو قدري الذي أستعيده من تلك السنين التي مضت منه؟!!

في ذلك الحادث اللعين، حين انزلقت سيارتي عن مسارها بسبب عطل في إطارها، ومضتْ "صبحية" في ذهني كالبرق، بقامتها الآسرة وابتسامتها الجذابة، وهي تعدني بالاحتفاظ باللوحة لحين عودتي. اندهشت من ذاتي بعد أن استيقظت من إغماءة بسيطة نتيجة ارتطام رأسي بزجاج السيارة الأمامي! فأنا لم أفكر في عائلتي، لم يشغلني أمرها فيما لو متُّ أو أصابني مكروه... كانت "صبحية" وحدها حاضرة وبقوة، هي، فقط هي.

عدتُ إلى مرسمها متكئاً على عكازي، العصا التي أعجبتها. عدتُ وهي لا تعرف ماذا حدث لي! تحقق لي ما أردتُ. عدتُ مرة أخرى لتعوضني عن تلك اللوحة التي باعتها، وتباغتني بطلبٍ منها لم أكن أحلم به: أن أقف أمامها لترسم وجهي المعبّر عن ملامح الرجل الصنعاني، كما قالت. لم أسأل ما هي اللوحة أو كيف ستكون؛ لكني وافقت على الفور، تاركاً انبهاري بها وبمرسمها وبما طغى على مشاعري حينئذٍ يقودني دون سؤال.

تعمدتُ مشاغلتها منذ مروري بالصدفة على مرسمها لمجرد إثارة الانتباه لا غير. طلبي للوحة وعودتي لأخذها، نظراتي التي

حيرتها، اهتمامي لتحركاتها داخل المرسم... كل هذا كان لتحريض مشاعرها أو اللعب بمشاعرها... لا أدري! بدوت لذاتي مرتبكاً غير قادر على التفريق بين الحب والرغبة! استفزني مرسمها وهو يجاهر بوجوده في مدينتي، وسألت نفسي حينها: ما الذي جاء بها إلى مدينتي وبهذه الثقة التي جعلت مرسمها مقصداً للسكان وللسائحين ولمتعطشي الفن من الطلاب وهواة الرسم من الأطفال؟!

يتحدث عنها وعن مرسمها الصغار والكبار باحترام شديد وبحب صادق، خاصة بعد مساهمتها في بيع منتجات النساء اليدوية في مرسمها، وبعد أن اقتطعت لها ساعات في أيام الأسبوع لمساعدتهن ولو بالإنصات. هل أردتُ الانتقام منها أو ملاحقتها لترحل عن مدينتي فجأة كما داهمتها فجأة؟!

صنعاء مدينتي وحبيبتي ولا يمكن لأحد أن يحبها أكثر مني. أحبها حتى لو لم أرسمها كما تفعل "صبحية"، أو أكتب عنها غزلاً كما يفعل الشعراء، أو أصفها في صفحات منمقة كما يفعل الروائيون.

هل تعمدتُ إيذاءها من باب التسلية، أم من باب التوق لعيش تفاصيل لم أعشها مع امرأة مختلفة عن كل من عرفت من النساء؟!

المرة الأولى التي وافقت "صبحية" فيها على السير معي في الأزقة، والذهاب لتناول القهوة الصنعانية في "سمسرة وردة"، بعد رفضها لطلبي مرات عديدة، لم أصدقها في أعماقي! ليس من السهل على أي امرأة يمنية قبول دعوة رجُلٍ عابرٍ لها للخروج برفقته! قلتُ بيني وبيني إنها تكذب عليَّ ولن توافق. خيط رفيع من

الأمل تمسكتُ به رغم ذلك. تأخر ردها على طلبي لثوانٍ أشعرني باليأس، نهشتني فيها الوساوس وتركتني حائراً متسائلاً عن موافقتها من عدمها. انتظرت ردها مبتسماً، هادئاً، رغم طوفان القلق بداخلي؛ لكنها وافقت!...

وافقتْ، خيبتْ كل توقعاتي! سرتُ إلى جوارها متعمداً الاتكاء على أركان الأزقة، وملامسة حجارة المنازل بيدي، لأشعر أنني لا أحلم، وأنها كانت إلى جواري بالفعل. خمسون عاماً مضت من عمري وأنا أحلم أن أسير في أزقة صنعاء القديمة متأبطاً ذراع امرأة، أهمس في أذنها بأمنياتي، وأدغدغ مشاعرها بأحلامي!... سئمت الحوائط التي تجمعني بالنساء، وسئمت القيود التي جعلت من ملابسهن خيمة سوداء متنقلة في الشارع، في السيارة، في السوق... مرسم "صبحية" زاهٍ بالألوان، وغطاء نصف شعرها مليء بالورد. ملابسها تنضح بالحياة. وجه "صبحية" يتنفس الهواء، تغازله الشمس في الظهيرة وتسامره النجوم في آخر الليل.

عندما جاءت اللحظة لم أصدقها! رغم أنها إلى جواري إلا أني مرتبك، غير قادر على تحديد واقعية اللحظة من أسطوريتها!...

أنهينا شرب القهوة. مزاجها خاص في الاستمتاع بتناولها قليلة السكر. الرشفات الأولى تفضلها ساخنة، والبقية دافئة. لم تستأ من شعبية المكان؛ كأنها تعرفه! اختارت المصطبة المرتفعة التي اشرت لها ان نجلس عليها. استندت في جلوسها إلى جدار يسمح لها برؤيتي، في حين لم أجد ما أستند إليه لمحادثتها، وكأنها تعرف أن حديثنا وجهاً لوجه أمر غير مفضل لدى المارة و"المتقهوين"

في "السمسرة". تبعثرت نظراتي إلى المارة، وتركتُ لها حرية التقاط كلماتي السريعة وأسئلتي عن القهوة ومذاقها. أعجبتها القهوة. شكرتني بشكل رسمي جداً. ضيق المكان لا يسمح بالبقاء فيه بعد تناول القهوة. طلبتُ منها السير في الأزقة والاستمتاع بمراقبة المدينة وهي تلج ليلها، وبيوتها تستقبل عودة سكانها: الرجال من "مقايلهم"، والنساء من "تفاريطهن"، والأطفال من أزقة لعبهم...

أخذتها فرحاً بعد تناول القهوة إلى "صرحة" اللعب التي شهدت طفولتي، في "حارة الفليحي". حكيت لها جزءاً من ذكرياتي، بهدوء أدهشني، وباسترسال من يعرفها منذ زمن: من هذه "الصرحة" الفسيحة كنت أنا وأصدقائي نتصيد بنات الجيران بالغزل البريء والساذج. فيها، كنتُ ألعبُ الكرة مستمتعاً بمهارتي وتفوقي على أقراني! لا أنسى اليوم الذي اخترقت قطعة معدن حادة جوف كرتي الجديدة وجعلت منها خرقة مترهلة على الأرض. حرمت نفسي من "بقش الجعالة" اليومية أسبوعين، ولم تدم معي الكرة أكثر من ساعتين! اكتشفت في صباح اليوم التالي أن أحد الأصدقاء الغيورين تعمد إخراج القطعة الحادة من مخبأها في الجدار، لتجد الكرة هذا المصير المؤلم من أول رمية لها. لم أعاركه؛ لكني كرهته وألزمت نفسي عدم الحديث معه.

هذا هو "جامع أحمد عبد الله الفليحي"، بل هو جامع الأربعين حلقة؛ لوجود أربعين عالماً كانوا يقومون بتدريس القرآن والعلوم الشرعية من حديث وأصول فقه. تعلمت فيه الصلاة، وحفظت فيه القرآن. "المِعلامة" التي أمامه تعلمتُ فيها القراءة

والكتابة وحفظت كل ما أورده أبن آجرُّوم في كتابه "المقدمة الآجُرُّومية في مبادئ علم العربية"، وبفضلها أصبحت أجيد التمييز بين أنواع الكلام وإعراب الجمل بسهولة... هنا أجمل أيام حياتي وذكرياتي. يقودني حنيني إليها قبل قدميّ. أجدني فيها متغلغلاً بكياني، ومستمتعاً بمذاق ما مضى بنكهة الصفاء والبراءة.

أجلس إلى جوار "صبحية" على ذلك الحجر المستطيل في ركن "الصرحة" كأني لم أحب قط، وكأن قلبي يخفق للمرة الأولى ويتعلم أبجديات الحب مع امرأة حَلُم أن يسير معها في الأزقة تحت المطر ليهذي من فرط عشقه ومن فرط ذكرياته.

"خمسون عاما أبحث عن امرأة تحبني". أدهشتها هذه العبارة، وأراحت استرسالي لأحكي لها عما مضى من حياتي، عن علاقاتي المرتبكة بالنساء، دون أن أعرف ما إذا كان العيب فيهن أم فيَّ! عن صدفة مرور امرأة تقلب ميزان حياتي كل فترة، وعابرات سبيل لا أتذكر حتى ملامحهن.

كان إنصاتها لي مدهشاً، لم تخذلني "صبحية" يوماً عن الإنصات بكل حواسها. ثرثرتُ لها بحكاياتي دون خوف أو شعور بالخجل لحديثي الذي كان من طرفي فقط!

حكيت لها عن "تَقِيّة"، التجربة الأولى التي مررت بها وأنا لم أتجاوز الثامنة من العمر. لم أكن أدرك سر انجذابي إليها؛ هل حنانها الذي كانت تتعامل به معي ومع أولاد وبنات "حارة طلحة"؟ أم جمالها الباهر الذي كانت تهبنا إياه ولا تضع اللثام لتغطي به وجهها وهي تلعب معنا في الحارة، وكأننا مميزون لديها؟! أم هو شعوري بأني وحدي مميز لديها، لدفاعها عني

وضربها وتهديدها كل من يتعرض لي؟!... تقول إني "حالي" ولا يجب أن يتعرض لي أحد بالضرب.

"تقية" تكبرني لا أعرف بكم؛ لكنها أطول من كل الذين كنت ألعب معهم من الأولاد والبنات. لجسدها نتوءان صغيران في صدرها، وفي أعلى ساقيها تختلف عن باقي بنات الحارة. لم أكن أعرف ما الذي كان يعنيه لها الاختلاء بي في دهليز منزلهم المظلم بعد المغرب واحتضاني وتقبيلي لتشكرني على شراء "الجعالة" التي كانت تطلبها من الدكان في آخر الشارع. كان لعبث أصابعها على تفاصيل جسدي الحميمة لذة خاصة، تقول: "يا رب احفظ حميد الصغير". وبعد مرات عديدة أصبح "حميد الصغير" يستمتع بملامسة جسدها، وبصوتها الذي كانت تصدره بعد كل ملامسة. وفي نهاية كل مرة تحذرني من أن أخبر أحداً بملامستنا حتى لا تموت "تقية".

كلمة "موت" كانت كابوساً جاثماً على صدري؛ لأنها تعني أن أفقد ملامسات "تقية"، وهذا ما لم أكن أريده؛ لكنه حدث سريعاً! فبعد عام تزوجت "تقية"، رأيتها مع أولاد وبنات الحارة وهي مرتدية الفستان الأبيض في انتظار شقيقها ليصطحبها إلى منزل الزوجية. لمحتني من بعيد مختبئاً بين باقي الأطفال ودحرجتْ لي ابتسامة خفية وهي تعض على شفتها السفلى.

ليلتها لم أتوقف عن البكاء حتى غلبني النوم، وفي الصباح كان كل شيء في حارتنا بلا طعم؛ لم تعد "تقية" إلى الحارة أبداً ولو لزيارة أهلها، ذهبتْ مع زوجها المغترب إلى السعودية ولم أرها بعد ذلك؛ لكنها تعود إلى مخيلتي بين حين وآخر مرتدية

"ستارتها" الملونة على كامل جسدها، وواضعة اللثمة على وجهها الأبيض، تسبقني بين الحارات وأنا أتبع الضوء الصادر منها دون أن أعرف أين ينتهي بنا المطاف.

في أول بلل شعرت به، وأنا في الرابعة عشرة من عمري، داهمتني "تقية" بقوة. استعذبت لسانها ورضابها وأصابعها من جديد، قبل أن تختفي من ذاكرتي للأبد. عندما حلت مكانها "حظية" بنت الجيران في "حارة معمر"، الحارة الجديدة التي انتقلنا إليها، تناسيت كل ما حدث في دهليز "تقية"، وصنعتُ لي عالماً شاركتني فيه "حظية". في دهليزها اكتشفنا ببراءة جسدينا، وخنقنا فيه نشوتنا حتى لا يُفضح أمرنا. وعدا تلك الملامسات الخاطفة، كنا نكتفي بتبادل النظرات من نوافذ منزلينا المتقابلين، بذلك الوجد الذي يغشانا في الدهليز.

أدركت "حظية" أن مستقبلها امرأة، ومستقبلي مازال مشروع رجل... أنهت كل ذلك بموافقتها على الزواج، لتتسرب هي الأخرى من حياتي كأنها لم تكن، ومع ذلك أحتفظ في ذاكرتي بتفاصيل لفة ستارتها حول قامتها القصيرة المكتنزة، وسروالها القصير عن كاحلها الذي كان يظهر مدى بياض بشرتها. أما أسنانها المتراكبة على بعضها، وعيناها الناعستان اللتان تربكانك وهي تتحدث فلا تعرف ما تقول، فهما سر احتفاظي بكل تلك التفاصيل.

في أيام الجامعة مرت المرأة الثالثة في حياتي: "أمينة"، صديقة شقيقتي، أحببتها بصمت طيلة ثلاثة أعوام، وعندما صارحتها بذلك رفضتني؛ لأنها أحبت صديقي دون أن يخبرني هو

ذاته عنها، ربما كان خفف عليَّ وطأة ما حدث لي من جُرحِ رفض امرأة لحبِ رجل!

لم أُحدث "صبحية" عن امرأة عمري، المرأة التي مرت عليها حكايات غيرها وتلقتها بمنتهى الهدوء! المرأة التي لا أستطيع وصف حبها بل وصف وجودها في حياتي! لا يوجد من يفهم ما حدث لي معها، مع "حورية" أو "مسك"، بل "حوريتي مسك" كما أحب أن أدعوها منذ ذلك الفجر الذي رأيتها فيه، في جوف "كظامة" حبس الماء في "باب شعوب"، تغتسل في غبش ذلك الفجر. تعودت قبل رؤيتها انتظار الكثير من الرجال الذين يأتون للاغتسال أو الوضوء في "الكظامة" قبل أن يتوجهوا إلى المسجد لأداء صلاة الفجر. تسقط من جيوبهم بعض "البُـقَش" دون أن يشعروا وهم يؤدون حركات الوضوء أو يغسلون ملابسهم. تمكنت من رؤية بعضها صدفة في ضوء انبلاج الصباح، قبل أيام، وها أنا أتفيدها بهدوء وأتمنى ألا يكشف سري أحد وأضطر إلى تقاسم "البقش" معه.

أجمع "البقش" بشغف ويصبح لديّ في بعض الأيام مبلغاً لا أحلم به. مصدر الماء في "الكظامات" الثلاث يأتي من الغيل الأسود خارج صنعاء، في منطقة "سواد حزيز". تقع على خط واحد. تغلق عند أذان المغرب، ويُحبس فيها الماء بسد فتحتها بقطعة حجر أو قماش حتى أذان الفجر، ليفتحها من عليه دور السقاية ويفك خرزتها لينساب الماء ويروي مزارع "بير العزب" خارج صنعاء. أمر على الأولى جوار "مقبرة خزيمة"، وأمر على الثانية أمام قبة "مسجد المتوكل" في "باب السبح". أما الثالثة في

"باب شعوب" فأقترب منها حذرا؛ لأنها خاصة بالنساء، حيث تعتمد البيوت على مياه الآبار للأكل والشرب، ومياه الغيل الأسود تُعتمد في غسل الملابس والبطانيات. يبدأ يومهن من بعد طلوع الشمس وحتى قرب العصر. على مسافة منهن يوجد مساحة مخصصة للرجال الذين يغسلون الثياب والبطانيات بالأجرة. غسل ملابس النساء الوالدات حديثاً كان يروعني فيها رؤية الماء مصبوغاً باللون الأحمر! يثير مخاوف لا أعرف مما أو لِمَ! عدم وضوح إجابة أمي على سؤالي كان يزيد من مخاوفي، تقول إنها الأوساخ في البطانيات الكبيرة، وليس دماً كما أظن، فلا داعي لخوفي. وتضيف بحماس: "الرجال لا يخافون، قعْ رجال!". لم يكن هناك ما يحفزني للذهاب إلى "كظامة باب شعوب"! بعد أن أدركت سر ماء "الكظامة" الأحمر بأنه ألم النساء مسفوحاً عائداً إلى جوف الأرض...

في أحد الأيام احتجت إلى أن أستوفي مبلغ العرض السينمائي الذي يقوم به الجيش المصري في "شارع علي عبد المغني"، في معسكرهم المعروف حينذاك باسم "القوات العربية"، وهو (المبلغ) "نُص ثُمن"، أي بقشتان ونصف البقشة من الريال البالغ أربعين بقشة. كنا نحن الأطفال نجلس على الأرض فوق الحصى أمام شاشة عبارة عن طلاء أبيض على جدار أحد مباني المعسكر، وخلفنا جنود وضباط مصريون. اليوم جمعة، والمبلغ لم يكتمل بعد! ذهبت إلى "الكظامة" قبل أن تأتي النسوة وتجعل الدم يسيل مع مائها، لأجد "حورية" تغتسل في ذلك الفجر، عارية! سألت نفسي حينها: أين من عليه دور السقاية؟ هل فك الخرزة لينساب

الماء من "الكظامة" في السواقي المتشعبة لري المزارع خارج سور المدينة في منطقة "بير العزب" أم لا؟!! هل يعرف بقدوم "حورية"؟ أم أنها استغلت عودته للنوم لتغتسل سريعاً قبل قدوم الرجال للاغتسال والذهاب إلى المسجد؟ أم أنني ما زلت أحلم؟!! هل ما أراه حقيقة أم خيال؟! أشارت إليّ "حورية" بيدها لأقترب منها. فعلت ما أمرتني به، مُنساقاً بنشوة غامرة. تلامسنا. كلُّ ما فعلناه هو التلامس، تتلاحق أنفاسنا كأنها تجري! نلهث، تصم أنفاسنا هدوء ذلك الفجر. بدأ الضوء يشقشق على المدينة. قد تأتي إحدى "المصبنات" وتداهمنا. همست "حورية" في أذني: "أراك غدا، أنت الرجّال حقي"! لتبدأ حكايتي مع ذلك الجسد البض في بزوغ براعمه ورغبته في آن...

حتى اللحظة، مازالت "حوريتي مسك" لي، وفي هذه اللحظة أنا مع "صبحية" ولم أخبرها عن "حوريتي مسك"، ولا أعرف لماذا!!

لم تسألني "صبحية" عن وضعي الاجتماعي؛ ربما لاعتقادها أن الرجل المتزوج لا يُلمّح بالحب أو يطلب الخروج لملاقاة امرأة، لذلك لم أخبرها عن المرأة التي لم تكن الأخيرة في حياتي: زوجتي وأم أبنائي الأربعة. زواجنا كان تقليدياً، اختارتها والدتي من أقاربنا، قالت لي في أول وصف لها إنها جميلة وبشرتها بيضاء! هذه مواصفات يفضلها أغلب الرجال اليمنيين. كانت كذلك؛ لكني وبعد أن تزوجتها اكتشفت أنني لا أحب ذوات البشرة البيضاء، كما لا أحب المرأة صارخة الجمال! خشيتُ أن أصارح أمي بذلك، حتى لا تقول إنني غبي في فهم جمال النساء. لذلك طيلة العشرين

عاماً التي قضيتها معها لم أحبها الحب الذي أريد. تعودتُ عليها لتسير الحياة. كان من الصعب أن تلبي نداءً خفياً في أعماقي، وتكون "تقية" و"حظية" و"أمينة" في آن. اكتفيت بها وبـ "حورية"، "حوريتي مسك".

أيقنت أن لقائي بـ "صبحية" هو قدر وعليَّ الإيمان به. حب جارف يقتلع تعاسة سنوات مضت. كل من عرفتهن قبلها كُنَّ جسراً للوصول إليها، إلى سِدْرةِ المُنْتَهى، شجرتي التي أستظل بها في الدنيا، وسأجدها في السماء السابعة بلا شك! هكذا أحدث نفسي وأنا أنوي خوض قدري مع "صبحية".

***

غادرت صبحية. توقف بي الزمن في ركن تلك الصرحة؛ عاد بي للوراء؛ لطفولتي، لأبي وامي وأخي واختي وجدتي. أغمضت عيني ورحت أسترجع كل شيء طازجاً كأنه حدث للتو: بعد رحيل أبي كان ما تحدثنا امي عنه وعن تاريخ اليمن كثير. حدثتنا عن فشل إعلان القضاء على آخر الأئمة، "يحيى حميد الدين"، في ثورة 1948 بعد فترة حكم دامت أربعة وأربعين عاماً بعد خروج الأتراك من اليمن. ورغم موت الإمام "يحيى" في عملية اغتيال محكمة لمجموعة من الثواروهو عائد إلى صنعاء في منطقة "حزيز"على يد"علي ناصر القردعي" إلا أن ابنه "أحمد يحيى حميد الدين" التقط الفشل وحوله إلى نجاح لحكم عائلته، عاقب الثوار وجزَّ أعناق الكثير منهم، وعوقبت صنعاء عندما أباحها لجشع ووحشية القبائل، اقتحموا أبوابها وتسلقوا سورها ووصلوا إلى قلبها، نهشوا خيرات أسواقها ونهبوا مخازن حكامها

وأغنيائها، دمروا منازلها وقتلوا من وجدوه من البشر، لم يفرقوا بين أطفال أو نساء أو شيوخ... ليواصل الإمام أحمد مسيرة والده لأربعة عشر عاما أخرى؛ لكن ليس في صنعاء، التي أصبحت مدينة مهجورة بعد اغتيال والده، بل في مدينة تعز، قضى فيها على معظم معارضيه، قبل أن تفشل محاولة اغتياله في العام 1959، لتتدهور صحته وينتقل إلى مدينة الحديدة، ثم إلى منطقة "السخنة" التي كان يعالج فيها من آثار محاولة الاغتيال. بعد وفاته اتيحت الفرصة لمجموعة من الثوار أطلقوا على أنفسهم في ديسمبر 1961 "تنظيم الضباط الاحرار" واتيح لهم التدريب على استخدام الأسلحة، وبزعامة "علي عبد المغني" القيام بثورة 26 سبتمبر 1962، وأعلنوا فيها النهج الجمهوري مساراً لها بعد هروب آخر الأئمة "محمد البدر"وإنهاء الحكم الإمامي في اليمن.

حدثتنا أمي أيضاً عن الثورة الوليدة التي قامت في فجر ذلك اليوم العظيم، وأراد أبي أن يحياها يوماً بيوم، وساعة بساعة لذلك اشترى بما لديه من مال بيتاً متواضعاً مطلاً على "صرحة الفليحي". كنت لم أتجاوز السادسة حال قدومنا إليها، في العام 1965م. دَوَّن أبي ذلك في أحد المصاحف التي يضعها في "صفيف" الديوان، ليكون ذلك الرف بمصاحفه واضحاً أمام من يريد استخدامه من داخل أو من خارج المنزل. دَوَّنَ عليه أيضاً تاريخ ميلادي بالتقريب 1959م. لم يفقه لضرورة تاريخ ميلادي إلا عندما جئنا إلى صنعاء واحتاج أن يدخلني المدرسة. "حسن" أكبر مني بعام واحد فقط، أما شقيقتي "نور" فقد كانت محظوظة بميلادها في صنعاء في العام 1966 وليس في القرية. يروق لها

أن تتفاخر على كلينا بأنها ابنة المدينة العريقة المتفردة في العالم "صنعاء".

دافع أبي عن نظام صنعاء الجمهوري الجديد بعد اندلاع ثورتها بخمسة أعوام، عندما حاصرتها القبائل التي حولها من أنصار ومريدي الحكم الإمامي السابق، تحديداً في 28 نوفمبر 1967، حصاراً استمر سبعين يوماً، قُطعت طريق "صنعاء – تعز" وطريق "صنعاء – الحديدة"، وانقطعت كل المؤن الاستهلاكية والضرورية عن العاصمة كل هذه المدة. دافع أبي عن صنعاء بحب. استنكر أن يكون هذا حال من يحاصرونها ويتمنون لها الدمار ولأهلها الطيبين الهلاك لمجرد أنهم أرادوا حقوقهم في الحياة الكريمة، أرادوا دخول العالم الجديد بمدارسه ومستشفياته ومؤسساته الخدمية لمواطن هو أول وآخر همها، أمام حُكم عائلة انفردت بتوارث حكم اليمن لقرون طويلة أباً عن جد.

لم تكن عودة والدي إلى البيت منتظمة أيام الحصار. أحياناً يأتي لزيارتنا يوماً أو يومين متتاليين في الأسبوع، وأحياناً قد لا يأتي، لذلك سهلت لنا مهمته الجديدة رؤيته بكثرة طيلة أيام الحصار، وهذا ما افتقده الكثير من أصدقائي ممن لم تسمح لهم الظروف برؤية آبائهم سوى يوم أو يومين، ومنهم من لم يره، وتلقى عزاءه فقط دون رؤية جثته.

مهمته الجديدة نقل الأخبار بين محاور القتال الأربعة من جميع الجهات حول صنعاء، وما يجري في كل محور: مدى أدائه في المواجهة، حالة معنويات جنوده، خسائره من العتاد والعدة... نحن الغانمون، أنا وشقيقي "حسن" وشقيقتي "نور". أمي كانت

القلقة الوحيدة لمهمته تلك. أما نحن فقد تحول قدومه إلى متعة لا يضاهيها شيء. ما كان يحكيه لنا من أنباء تلك المعارك كان يدخلنا في عالم أسطوري ساحر يعيد تشكيل طفولتنا، من الصبية الصغار إلى الفتية الكبار، بمعرفة أدق تفاصيل الحرب الدائرة. "نور" هي الصغيرة التي لم تتجاوز الثالثة من عمرها، ومع ذلك كانت تنصت لما يقوله ونظراتها مبحلقة فيه بولهٍ عاشقٍ وصل لتوه من سفر بعيد.

يبدأ حكايته بتسمية ما يدور في صنعاء بأنه "حرب المعمعان"، قائلاً: "كان ياما كان في قديم الزمان يوجد حرب المعمعان، في حرب المعمعان تلك ضُربت سيارة كانت تنقل جماعة من الأبطال الجمهوريين ببازوكا من الخلف. قُتل جميع الأفراد فيها وأصيب من استطاع القفز من السيارة. حاول أحد الأبطال اللحاق بالمدرعة التي كانت أمام السيارة ومتجهة إلى تمركز قوات الصاعقة؛ لكنه لم يستطع. توقف في مكانه من شدة الضرب الذي كان مستمراً عليه. حاصرته قوات الأعداء عن بُعد من الثامنة صباحاً حتى الرابعة عصراً. أيقن أنه ميت لا محالة؛ لكن ومع دخول الظلام تقدمت نحوه مدرعة وحملته وهو في حالة إغماء. تم معالجته. وفي صباح اليوم التالي كان مع الجنود في المكان المخصص لهم لصد الهجمات!

وفي "حرب المعمعان" خيبت قرية "دار سلم" في المحور الجنوبي آمالنا باستبسالها في الدفاع عن الملكية. وللأسف تعرضت القرية للضرب الشديد بالأسلحة الثقيلة من قِبل الملكيين والجمهوريين معاً. شُرِّد أهلها، من رجال ونساء وأطفال، مع

حيواناتهم، إلى منطقة خَبت "بني بهلول" و"بلاد الروس" و"سنحان". حاصر الجمهوريون القرية بسبع دبابات. وأمام إصرارهم في الدفاع عن الملكية تم حرق بعض المنازل ودمُرت أخرى بالطائرات وقذائف الهاون. انهزمت الملكية ولم تنهزم القرية في ولائها، ولم تُجمهر إلا بعد دحر الملكيين منها نهائياً".

عند خروجنا صباح اليوم التالي نقوم بما فعله معنا أبي؛ لكن مع أترابنا في "حارة الفليحي"، التي كنا نسكنها في قلب صنعاء القديمة. نجتمع في "صرحتها" الفسيحة بعد صلاة العِشاء لساعة، قبل الولوج في حلكة الليل والحرب معاً. إضافتي للمزيد من الأحداث المثيرة على كل تلك البطولات، وجعل الجنود بعددهم البسيط وبعدتهم المتواضعة أشاوس لا يُرى إلا غبار معاركهم، ولا يسيرون إلا على جثث أعدائهم... لم يكن يرضي أخي "حسن". "حسن" اسم على غير مسمى، وما يفعله من تأنيب لي حال عودتنا إلى المنزل نابع من شعوره بالغيرة مني، ولما أفعله في جذب الانتباه من قبل أصدقائنا. كنتُ أشعر بذلك في نظراته غير البريئة تجاهي، والتحقير الدائم لكل ما أفعله، لذلك كان كل واحد منا في طرف خاص به، منذ كنا في قرية القابل في منطقة همدان على حدود صنعاء قبل نزوحنا إليها.

باع أبي الأرض التي يملكها للشيخ. أخذها بثمن زهيد. شعر الشيخ برغبة أبي الشديدة في بيعها بسرعة فاستغل الظرف وهضمه في سعرها. تغيرت أخلاق الشيوخ مؤخراً، كما قال أبي. تحولوا من الحماة إلى الطغاة المستغلين لظروف الناس بأبشع الطرق. لم يهتم أبي كثيراً؛ كان يكفيه أنه من القبيلة "همدان" التي

تناسلت منها قبائل اليمن في طرفها الشمالي، قبيلتا "حاشد" و"بكيل"، القويتان الحاكمتان في المناطق الشمالية. اكتفى بما لديه وببعض المال الذي ورثه عن جدي.

وجهته كانت صنعاء وهي تدخل عالمها الجديد، صنعاء المدينة التي سمع وقرأ عنها الكثير: فهي التي تستعيد أجزاءها بعد أي خراب يصيبها عبر ألفي عام، وتعيد قمرياتها المدورة صفاء ضوء القمر، ويغزل بهاء معمارها المزين بالجبس دلال العذارى ولوعة المحبين... لأزقتها رحابة قلوب ساكنيها، ولدفء سورها حرارة احتضان الأحبة. دبيب الحياة في بشرها وحجرها ينبع من خُضرة أشجارها ومن وله أطفالها بها. أهلها من صنعوها فأحسنوا الصنعة، صنعة البناء وصنعة فن زخارفها وفنونها المروية والمُغناة. انتقوا موقعها بين جبلين: "نقم" جبلها الشرقي الدافئ، و"عيبان" جبلها الغربي الحامي؛ ليسكنوا فيها ويستكينوا بها.

لهذا كله كانت قِبلته صنعاء...

***

هل أمتلك جينات وراثية –كما يقول العلماء– اجتزأتها من والدي الذي كان يعشق صنعاء، وضحى بروحه فداء لها؟! أم أن عشقي لها نتيجة حديثه الحاني عنها كآلهة مقدسة تم انتهاك قدسيتها وجلالها بالتخريب والنهب وبالإهمال على مر تاريخها؟!

أبي كان لا يتوقف عن الحديث في أشياء كثيرة ونحن نعبر الأزقة وصولاً إلى منزلنا من كل اتجاه: من الجامع، من المدرسة، أو حتى من السوق. يمسك بيدي ويضغط عليها في كل ركن حميم إلى قلبه وذاكرته. حديثه كان يشعره بالراحة، حتى لو لم أفهم ما

يقول! وهو ممسكاً بيدي، كنتُ طائراً يسير على قدمين. ورغم أنه يمسك "حسن" باليد الأخرى، إلا أن "حسن" كان يضجر من حديثه ولا يتجاوب معه، ويرفض أحياناً كثيرة الخروج معنا، بحجة حماية أمي وأختي وعدم تركهما لوحدهما.

كان أبي يحب النساء، بل مولعاً بهن، وله –مثل سكان المدينة الأسطورية صنعاء– حكايا تختبئ في أركان الأزقة وبين جدران المنازل وعلى أسطح "السماسر"، تشبه حكايا الشاعر عمر بن أبي ربيعة مع نسائه، كما تقول كتب التراث العربي عنه. حكايا يعرفها الجميع وتدور بين سكان المدينة بأريحية العشق وعذاب الشوق ومتعة الغواية، يسمعها الأبناء بحواسهم ويلتبس عليهم الأمر بين الحقيقة والخيال...

في ساعات صفائه الخالصة يلبس "الزنة" البيضاء ويضع مسحة من عطر "جنة النعيم"، ويطلب مني مرافقته. يغدق عليَّ المال لأنتظره أمام منزل لا أعرفه؛ لكن مع الأيام تعودتُ عليه. ألعب مع الأطفال واشتري لي ما شئت من "جعالة" متنوعة، وحتى آيس كريم شراب "الفيمتو" الأحمر المُبَرد في المنازل، والذي كان يؤلم حلقي ويسبب لي وله مشاكل مع أمي، سمح لي بشرائه، سمح لي أيضاً بدق باب المنزل كلما شعرت بالعطش وطلب الماء من الخالة "ذهبة"، ساكنة المنزل. كنتُ أميناَ جداً؛ حافظت على أسرار والدي، كنتُ رجلاً –كما قال– رغم صغر سني، فاستحققت صداقته وأبوته معاً.

الخالة "ذهبة" كانت امرأة جميلة، "مربوعة"، أي معتدلة الطول، كما يحلو لأبي تسميتها. يظهر شعرها المنسدل ناعماً خلف

غطائه الشفاف عندما تفتح لتسقيني الماء، وتظهر بقوة "صديرية" بيضاء مقفلة تصل حد رقبتها تحت ثيابها، طالما تمعنت في زخارفها الخفيفة ذات اللون الأزرق والأحمر، المشغولة باليد، وأنا أرتشف الماء وكأني أحلق في عالم آخر. وداع حنان ابتسامتها ظل عالقاً في ذهني طويلا!

كلما كبرت فهمت أبي أكثر، وفهمت مقولة أمي عندما تردد: "لا يوجد رجل مخلص، وعلى المرأة أن تدرك ذلك، وأن تعرف وبذكاء كيف تتعامل مع غراميات زوجها بحكمة حتى لا تخرب بيتها!". هل كانت حكيمة؟! أم منكسرة وعديمة الحيلة ولا تملك اتخاذ قرار؟! أم مَحبةً خالصة؟!. لم يشعر أحد بما كانا يفعلانه غيري، وسرهما كان في حرزٍ مكينٍ. حتى أسرار جارة أمي، الخالة "حبيبة" لم أقلها لأحد؛ لكن كان يحلو لي مع بعض فتيان الحارة محاصرتها حتى لا تلتقي عشيقها "زيد" وهو يخرج قاذورات حمامها على حماره، ومن ثم يبيعها لإحراقها في الحمامات العامة أو سماداً لتربة "المقاشم". شعرنا بالذنب عندما صعقت الكهرباء "زيد" الذي مات في الحال، أما حماره فظل يتعذب وينهق من الألم على صاحبه ومات بعده بدقائق! وانتقاماً منا ظلت الخالة "حبيبة" تقذف فوق رؤوسنا ماء "غساول" مطبخها غير النظيفة حتى تبللنا بها، كلما مررنا من تحت منزلها.

ربما أخذتُ من أبي أيضاً هذا "الجين الوراثي" الخاص بحب النساء. لا أتخيل نفسي يوماً بدون قصة حب، أو بدون رؤية امرأة جميلة، ولو في الطريق العام. زوجتي لم يكن لها حكمة أمي، أو حتى حب أمي لأبي، لتعتبر أن نزواتي هي جزء مني وقد تكون

مرضاً خارج سيطرتي. استاءت مني ذات يوم وأنا أقول لها إذا ما كانت قد شعرت بالملل مني أو من طول فترة زواجنا فيمكنها التفكير في غيري وعدم إخباري. اتهمتني بسوء نيتي في تمهيدي لتركها أو الانفصال عنها.

لم أكن أضمر شيئاً مما خطر في بالها. أبي كان حاضراً، وحبه لصاحبة البيت "ذَهبة" كان أرقى ما مر عليَّ في حياتي، لم ينتقص لها قدراً، بل زادها تقديساً... لم أهرب من روتين الحياة الزوجية، ولم تكن "حورية" في حياتي تقليداً لحكايا والدي؛ لكن كل هذا كان قراراً لحياة استمتعت بها.

القدر ليس دائماً عادلاً. لا يمنحنا ما نريد! فلماذا نعول عليه إنقاذنا أو جرنا إلى دائرته التي لا تلائم هوانا غالباً؟!

صنعت قدري قبل معرفة "صبحية"، لتأتي وتكون هي القدر الذي لا مفر منه...

***

قبل انتهاء حصار السبعين يوماً بأيام مات أبي. فُتح الطريق في المحور الغربي المؤدي إلى مدينة الحديدة أولاً. وضعت للمحور خطة حصيفة من القادة. استبسلوا في المقاومة. لم ينجُ أبي من تلك القذيفة التي ألقاها الملكيون عليه. مات مبتسماً وهناك علامات نصر استشعرها لفك الحصار على مدينته الحبيبة، واستعادة الجمهورية التي فتنته بأهدافها وبرسمها مستقبلاً يحبه لليمن.

ولولتْ أمي كثيراً. حزنت عليه بشدة. راحت تذكر مآثره في أيام العزاء، وتواصل نحيبها. وفي ساعات قمة حزنها تدعو الله أن

يرجعه لها ولن تمانع في زواجه ممن يريد، ولن تعاتبه على "عينه الطويلة" على بيت جيراننا الجدد، وستسمح له بمعاشرتها أربع مرات كل ليلة دون أن تمنعه أو تمتعض من تلك الرغبة المتأججة فيه كلما اختلى بها وكأنها المرة الأولى!...

تريده فقط أن يعود ليكمل فنجان قهوته الذي شرب نصفه وخرج. ستودعه إذا عاد. ستكحل عينيها برؤيته. ستهيئ ذاتها على أنها المرة الأخيرة التي تراه فيها. ستحتضنه، ستضمه إلى صدرها للمرة الأخيرة، وستملأ رئتيها برائحته التي تعشق سريان خِدرها في جسدها... فقط يعود ليكمل فنجان قهوته. هذا كل ما تريده!

ذلك الفنجان وضعته أمي في خِزانة تستقر أبوابها في منتصف حائط حجرتها تسميها "مغفرة"، إطارها خشبي مائل للحمرة وزجاجها ألوانه قاتمة حزينة. تبخرت القهوة الباقية، وتشقق وجه البن أسفل الفنجان. تتلمسه بحنو كلما فتحت "المغفرة". لم يعد للفنجان ولقليل مما احتفظت به من ثيابه أي رائحة. ما تبقى هو الحزن المعجون بشوق لم يزُل من قلبها يوماً أو حتى تخبو ناره... ألمح ذلك في وميض دموعها كلما مرت بنا سيرته أو ذكرياتنا معه.

في كل من عرفت من النساء لم يكن لأمي شبيهة.

أنا و"حسن" و"نور" انزوينا في ركن المنزل. نرى الوجوه المُعزية والتي تتفوه بمرارات عالمٍ قاتمٍ آتٍ بلا أب، وبيُتم هجم علينا في وقت مبكر، وبمتاعب وصعاب سنكون أقوياء لو تحديناها وسرنا قُدماً للحياة، وبدعوات خالصة لأرملة شابة جميلة ستواجه

الحياة وصعابها مع ثلاثة أبناء استشهد والدهم في أعظم ميادين القتال للدفاع عن الوطن.

أدركت أنني فقدت والدي للأبد، تماماً كما أدركت أنه يجب ألا يفارقني للأبد... يمتعض "حسن" من حديثي مع أبي الغائب، وتعتبر أمي أنني إنسان لم أتعافَ من إصابتي بالصدمة في عدم تقبل موت والدي. "نور" تقول إن أبي ملاك، لذلك يزورني، وتسأل لماذا لا يزورها وهي تحبه كثيرا مثلي؟! أقول لها إنني لا أعرف لكن عليها أن تغمض عينيها كلما أرادت رؤيته.

كانت سنواتي التسع تحضر معه كل يوم. كبر معي أبي وشاركني أشياء كثيرة. كان أول من احتضنني بعد نجاحي في الثانوية العامة وأول من ألقيت عليه تحية الجنود وأنا أتخرج في كلية الشرطة. وفي زواجي أهداني "جنبيته"، "الصيفاني" العزيزة إلى قلبه، وطلب مني الاحتفاظ بها، وأعطى مسدسه الروسي وبندقيته "الجرمل" لشقيقي. تبادلنا الأدوار، وأصبح هو من ينتظرني أمام منازل نسائي، وحال خروجي يفاجئني دوماً بابتسامة حانية وبقوله: "ابن الوز عوام"، قبل أن تسبقه خطواته السريعة للمنزل.

في اللحظات التي تفوق طاقة احتمال أمي كانت تحتوي ثلاثتنا بين ذراعيها وهي تردد: "يا همتاه للعمر ما يتمه!". همت الأرملة الحسناء بقية العمر وحيدة على عاتقها مسؤولية ثلاثة أبناء. لم تتزوج، اختارت ذلك وكان قرارها الذي أصرت عليه، ورفضت طلب عمي للزواج منها وتربيتنا؛ كيف لا ونحن أبناء شقيقه؟! رفضت أيضاً العودة إلى القرية بعد أن طلب منها خالي

العودة حتى لا يعايره الناس من بقائها وحدها في صنعاء. قالت إنها ستكتفي براتب الحكومة لتربيتنا وبالبقاء في المنزل الذي تركه لنا أبي.

أصر عمي على طلبه وعلى ملاحقته لأمي لتقبل الزواج منه. رفضها كان يسبب له الكثير من التوتر والكثير من الغموض حول بقائها وحيدة وتربيتها لأولادها دون رجل. لجأت أمي لوسائل كثيرة هادئة لإقناعه، دون فائدة. اضطرت ذات مساء لفتح الباب له وهي تعلم غرضه؛ لكنها فضلت الهدوء على أن يتحول مجيئه إلى فضيحة. في الهزيع الأخير من الليل انتظرها في الدرج وهي تستعد لصلاة الفجر وتجهيز العجين الذي ستخبزه لفطورنا. تحرش بها وهو على ثقة أنها لن تردعه، ولن تصرخ أو تستنجد، خوفاً من إفزاعنا من النوم أولاً، ومن الفضيحة التي قد تصل إلى الجيران ثانياً. أثناء ذهابي للحمام تكومتُ في أعلى الدرج وأنا أسمع رجاءه لها بأن تبعد يدها عن خصيتيه حتى لا تفقده رجولته وهو لن يكرر التحرش بها أبداً.

بعد تلك الليلة لم أرَ عمي مجدداً، ولم يعد يبعث لنا بالمال الذي اعتبره مساعدة لأولاد أخيه، أو حتى ببعض أقداح من الحبوب التي تجود بها الأرض. قالت أمي إنها ليست بحاجتها، فقد باع أبي كل أرضه واشترى منزل صنعاء.

أما خالي، الذي يعتبر نفسه المسؤول عن العائلة بعد وفاة جدي، فقد اعتبر أمي خارجة عن طاعته؛ كيف تجرؤ وتقول له إنها لن تعود إلى القرية، وستربي صغارها في صنعاء وحيدة؟! كيف تجرؤ على قول إنها لن تتزوج عمي ولن تتزوج أي رجل

آخر وستنذر حياتها لتربية صغارها؟! لم يعد يزورنا خالي حتى في الأعياد. وبعد عام ونصف أرسل جدتي لتعيش معنا وتساعد أمي! حُجته المراوغة تلك كشفتها جدتي، واتضح كذبه حين قالت إن مشاكلها زادت مع زوجته المتسلطة فأرسلها إلى صنعاء لتساند ابنتها الأرملة في تربية أولادها وتحافظ على سمعة العائلة ليفهم الناس أن الأرملة ليست لوحدها.

كنت أعلم أن جدتي هي الوحيدة التي يمكن أن أناديها بـ"جدتي"، وأن أُلقي بنفسي في حضنها لأسمع حكاياتها؛ لأن الباقين، جدي وجدتي لأبي وجدي لأمي، متوفون منذ زمن. التصقت بجدتي كثيراً، فقد كانت الوحيدة التي لا تبدي دهشتها عندما أحدثها عن مرافقة أبي لي إلى المدرسة وسيري معه في أزقة المدينة وفي أركاننا المفضلة... بل إنها كانت تطلب مني أن أُسلم عليه منها، وهذا عكس ما كانت تقوله أمي و"حسن" و"نور": أنني أتخيل أشياء لا تحدث!...

جمال جدتي كان في حنانها وهدوئها وحكاياتها، وفي "البقش" التي كانت تمنحنا إياها من جيب ثوبها البني المنقط. تشتري أمي كل متطلباتنا. وتعطي جدتي مالاً إضافياً. كان هذا يمنح جدتي إشراقاً في وجهها من عطاء ابنتها لها ومن عطائها لنا.

جدتي كانت لي، فيما عدا تلك اللحظات التي أشعر فيها بالغيرة عندما تهتم بأختي وتعلمها أشياء كثيرة عن أسرار البنات. الصباح الذي لا أجدها إلى جواري أعرف أنها مع "نور": إما خرجتا للتنزه وشراء حاجيات البيت، أو في الانهماك في تعليمها فنون المطبخ. ذلك الصباح كانتا في الشمسية الملحقة بالمطبخ،

والتي تجفف أمي في جزء منها ما يتبقى من الخبز لتأكله أغنام جيراننا، وبعض الكراث الأخضر الذي يضاف للحلبة لإضافتها على "السلتة"، وجبتنا المفضلة، حتى لا تضطر للخروج لشرائه كل يوم.

افترشت جدتي و"نور" الأرض، ووضعت كل واحدة منهما قطعة بيضاء على رجليها وأزالتا غطاء رأسيهما وراحتا تمشطان شعرهما. كانت تُعلِّم "نور" كيف تنظف شعرها من القمل الذي أصابه، حتى لا تنتقل العدوى إلى باقي من في المنزل. في ذلك الصباح رأيت شعر جدتي للمرة الأولى. كان أسودَ، ما عدا بعض الشعيرات البيضاء المتناثرة بين سواده كاللؤلؤ... قسمته نصفين، وظفرت كل نصف منفرداً، شبكت القسمين معاً من أسفل قبل أن تعيدهما للخلف وتعيد غطاءه على الطريقة التي لم أرها إلا بها، وهي "اللثمة" وتغطية الجبين والرقبة...

لم يسأل خالي عن جدتي منذ قدومها للعيش معنا، ولم تكن تبدي لنا حرقتها عليه؛ إلا قبل وفاتها بأيام. قالت لأمي: "إذا رأيتِ أخاك مجدداً فأخبريه أنني سامحته". لم تعلق أمي، أو أحدٌ منا، على ما قالته، واكتفت بدموعها للتعبير عن شدة ما تعانيه. لم تستيقظ جدتي في اليوم الثالث. لحقت بأبي، كما قالت أمي وهي تنتحب؛ لكنها كانت تأتي كل مساء لتواصل سرد الحكايات التي لم تنهها لي.

افتقدت حنان جدتي وتدليلها وحكاياتها...

اهتمام أمي بتوفير حاجاتنا، واجتهادها لتبدو الأرملة التي أحسنت تربية أولادها أمام سكان الحارة، أخذها مِنَّا. لا أتذكر أنها

احتضنتني أو قبلتني في غير الأعياد، كنتُ أدنو لأقبل ركبتيها، كما علمتني جدتي. تلتقف وجهي بيديها وترفع هامتي بحنانها وتقبلني كروتين احتفالي في رأسي، وتقول: "بارك الله فيك!". ليست قاسية؛ لكنها لم تخصني يوماً باحتضان مباغت أو قبلة وداع لخروجي من المنزل أو استقبال عند عودتي. أحصي احتضانها لي وقُبلها في المناسبات وأجدها لا تتجاوز عدد أصابع اليد. تُرى هل لأمي رائحة إذا احتضنتها مثل أبي وجدتي؟! ولماذا لم أبادر أنا باحتضانها وتنفس رائحتها؟! لم أجرؤ ولم أحاول. أقصى ما أستطيعه هو تقبيل يدها والنوم على رجليها وإلحاحي على أن تغلغل أصابعها في منتصف شعري وتفركه حتى أنام.

أحب أمي وأحب البقاء معها لاسترجاع ذكريات أبي وما فاتني منها. لم أرَ له أصدقاء، فهل كان؟ لم أره يوماً يبكي، فهل كان؟ لم أره يوماً يصلي أو حتى يقرأ القرآن، فهل كان؟ كنتُ مولعاً به في كل ما يخص المدينة والنساء. عدا ذلك لم تدهشني تفاصيل البقية الباقية من حياته. حاولت استرجاعها من أمي كلما كانت في مزاج رائق للحكي ولإفراغ ما في جوفها من ذكريات. رجوتها الحياة معي بعد زواجي، حتى لا تحرمني من ذلك الحنين والشوق لأبي الذي لم يغادرني. لذلك تستشعر أمي كدري وفرحي، تقول لفرحي: "ما سرنا اليوم؟!"، وتقول لكدري: "ما غثانا اليوم؟!". لا تنتظر إجابة؛ لكن فقط لتعلمني أنها معي مهما صمتّ.

تأجير الدور الأرضي من منزلنا ساعد أمي كثيرا في مصاريفنا، إضافة إلى راتب الشهيد الذي كانت تهبنا إياه الحكومة. جدتي عَلَّمت أمي حياكة أحزمة "الجنابي" وبيعها في "سوق

الملح". أصبح لها زبائنها المعجبون بحياكتها. ومنذ أصبح عمري 12 عاماً وأنا أقوم بمهمة بيعها لتاجر بسعر زهيد لا يوازي تعبها أمام ما يجنيه من ربح. حرّضتُها على رفع السعر بما يوازي جودة خياطها، وإلا أن نبيع لغيره! عندها رضخ لما تطلبه ثمناً لتعبها. تلقيت أنا أول جزاء لي بقولها: "أصبح ابني رجلاً أعتمد عليه، عوّضني الباري بحميد، ابن أبيه!".

الفقر تلك الأيام جعل البعض يكتفي برؤية الآخرين يأكلون، بينما نحن صار وضعنا المادي أفضل. استطاعت أمي أن توفر بعض المال لنوائب الدهر، كما تقول، دون أن تحتاج لأحد. اعتمادي على ذاتي منذ وقت مبكر أشعر أمي بالاطمئنان عليَّ وبأني "ابن سوق" و"مفحفح" أستطيع تدبر أموري؛ عكس "حسن"، الذي أنهكها بكسله واتكاليته لدرجة تثير استغراب كل من يعرف أننا شقيقان ومن بطن واحدة.

***

أسير الآن ويطغى عليَّ الشعور بالبهجة إلى جوار الأطفال وهم يبيعون الحلويات البسيطة في "صندقة" يصنعونها من الحديد ويغلقونها بمفتاح عند عودتهم للمنازل، أو يؤجرون دراجاتهم فيما بينهم أو يساعدون الجيران في قطف محتويات "المقاشم" من الخضرة الموسمية مقابل بعض الريالات. في تلك المواسم تتحول رائحة المدينة إلى فاكهة ناضجة يجرفها الهواء إلى رئتينا فيغمرنا الشبع. وفي مساءات نادرة كنا نتقاسم تفاحة تقطعها أمي، نتناولها مع الخبز فتذوب في أوردتنا لذة الحرمان.

أتذكر أروع أيام طفولتي وقد مررتُ بكل ذلك. كانت صنعاء القديمة مرتعاً خصباً لطفولتي التي عشتها بغنى حقيقي في اللعب والضحك والجري مع أولاد حارتنا والحارات المجاورة لنا، بل والمجاورة للمجاورة لنا. كنت وحيداً، لا صديق لي أبثه مشاعري وأتحدث معه عن أحوال يومي وأحوال عائلتي؛ لكني لم أكن وحيداً من أصدقاء كثيرين شاركوني طفولة نادرة استمتعنا فيها بصناعة ألعابنا بأنفسنا وبيعها لمن لا يستطيع صناعتها.

أزقة المدينة في طفولتي كانت شوارع فسيحة، جرينا فيها ولعبنا كرة القدم، صنعنا من إطارات السيارات عجلات ودرنا بها في الأزقة، لعبنا "زمب" ببذور التمر، وبأغطية علب البيبسي الزجاجية وبـ"زراقيف" ملونة في حفر تحتويها وتعلن فوز أحدنا بعدد ما التهمته. ذكريات لعبة "الغُمى" في الاختباء عن الأعين، خاصة مع البنات، لا تُنسى. لا أعرف كيف كانت أجسادنا الصغيرة تنحشر في تلك الشقوق الضيقة بين المنازل، أو خلف الأشجار، أو تحت ارتفاع الدَّرَج في دهاليز الجيران...

"مقاشم" المدينة الخضراء كانت حدائق وارفة الظلال، تقينا الشمس، وتسد جوع من لا يملك قوتاً. أشجار التين لم نكن نشعر بأشواكها. أشجار المشمش كانت معطاءة لكل من يمد يده لأغصانها المباركة. تَشاركنا في سرقة ثمارها أحياناً لنملأ بها بطوننا أو لنعلن عن وجودنا قبل هروبنا وولوجنا عالماً من السعادة وسماع صوت "القشام" يصيح: "اخرجوا يا عيال الكلب من المقشامة!...".

في مراهقتي تحولت الأزقة إلى مانحة للحياة، تضخ الحب في جميع شراييها، في ثناياها تختبئ ألوان قوس قزح، تشرق في لحظاتها الخاصة لتبهر نظرات الصبية وتبهج وجوه الصبايا. يخبئونها في أحداقهم كلما ولجوا منازلهم، وينشرونها كلما خرجوا خيوطاً متلألئة لا تذوي. خارج الزقاق لا حياة، لا ألوان...

بعد زواجي أصبح كل ذلك تاريخاً وذكريات. لم تتمكن زوجتي من حب المدينة. لم تكن ودودة مع جريان حب المدينة في دمي!... فعلت مثل أبي وأنجبت ثلاثة أبناء: بنتين وولداً. في أعماقي تمنيت لو كان ثلاثتهم ذكوراً. البنات هَمٌّ كبير، لذلك تخلصت منهما وزوّجتهما في سن مبكرة لأول خاطبين طرقا بابي. لم أكترث برجاء الصغرى وهي تقول إنها تريد إنهاء الثانوية العامة ومن ثم الزواج. كان العريس الغني ابن شيخ، فرصة لن تعوضها إياها شهادة الثانوية العامة التي طلبت إنهاء دراستها. مزاج ابني كان مختلفاً؛ فضّل الخروج، مثل عمه، وهاجر إلى كندا بحثاً عن حياة كريمة ومستورة ومستقبل يحلم به لنفسه ولأولاده، كما قال وهو يودعني.

***

صرتُ ابنَ شهيد، أحظى بالتقدير أينما ذهبت. خفتْ هذه الوجاهة تدريجياً. لم يعد الدم أو الحياة التي قدمها الشهيد ذات أهمية بالنسبة لمن لا يعرف تاريخ هذا الحصار. في البداية توالى التكريم على كل أبناء الشهداء، وشارك فيه كل الناس، وحكى بعضهم لبعض عن تلك البطولات التي قام بها الشعب اليمني لأن

إيمانه بثورته كان بلا حدود... كانت حكايات أقرب للأساطير رغم حقيقتها.

من يصدق أن أربعة آلاف مقاتل جمهوري واجهوا ثمانية آلاف جندي مدرب، وخمسين ألفاً من رجال القبائل حول صنعاء ومئات المرتزقة؟! من يصدق أن لجان المقاومة الشعبية من المواطنين هي التي قامت بحراسة المدينة وتقاسمت مع السكان الماء والغِذاء والوقود أمام شدة الحصار الذي منع عنها كل شيء؟! ما يومض في ذهني هو الطرْق الخفيف على باب منزلنا ليبهر بصري ما تكوم أمام الباب من "قاز" للوقود وماء للشرب وبعض الحبوب المطحونة من القمح والشعير والذرة لعمل الخبز...

أنهيت دراستي الابتدائية في "مدرسة النصر"، المطلة على "ميدان التحرير"، وواصلت في "ثانوية الكويت". تلقت اليمن مساعدات كثيرة من الكويت، تلك الفترة، لبناء المدارس والمستشفيات والجامعات، واستمرت حتى غزو صدام حسين للكويت في أغسطس 1990. ورغم أن اليمنيين لم يكونوا مع ذلك الغزو، أمام الصمت السياسي المُهين الذي عبرت عنه الحكومة في اليمن، إلا أنها قررت معاقبة الشعب وليس الحكومة، وأوقفت كل مساعداتها لليمن. قرار مواصلة مسيرة والدي في الالتحاق بكلية الشرطة كان رغبة أكيدة في حماية الوطن، وفي نثر كل القيم التي زرعها في وجداني لكل من حولي.

اطمأنت أمي على فترة نشأتنا وسداد احتياجاتنا بذلك المبلغ الشهري الذي وهبته الدولة لعائلات الشهداء. أقول "وهبته" لأنها لم تتعامل على أنه حق مفروض عليها وأقل واجب لما قدمه هؤلاء

الشهداء بفدائهم الوطن بأرواحهم. ومع تزايد احتياجاتنا وإصرار أمي على ألا ينقصنا شيء، أصبح بيع ما تنتجه كافياً لمعيشتنا وإدخار مبلغاً كافياً تمكنا به من الحصول على منزل في "شارع حدة"، في أول مدينة سكنية بُنيت لذوي الدخل المحدود في أوائل الثمانينيات، وبالتقسيط.

جذوري ونشأتي في المدينة القديمة، طفولتي، مراهقتي، صباي، وشبابي؛ لكن المدينة الجديدة كانت ابني الذي أراه ينمو ويكبر يوماً بعد يوم، وتدب الحياة في أوصاله حيوية ورغبة في العيش. شوارعها، سياراتها، مبانيها... أشعر بالعطش كلما تم شق طرق جديدة إلى أحياء لا يصل الماء لساكنيها. وأشعر بالبرد كلما تم استعمال الجبال وتخطيطها للسكن دون أبسط الخدمات الطبيعية لحياة الناس كبشر، لا كحيوانات تتمتع بالإيواء فقط.

كان طولي مناسباً، ولياقتي البدنية عالية. أعشق اللبس العسكري على اختلافه. يوحي لي بالرهبة والقدسية وتحمل المسؤولية. أذكر والدي وتلك البدلة المرقطة التي كان يعود بها إلينا من مهماته المختلفة. ارتبط وجودها وجمالها ودفئها بوجوده. عندما مات، كان يرتديها، ورفضوا إعطاءها لنا حسب رغبة أمي. دفنوه بها، وبالدم الذي عليها! قالوا إن دمه سيتحول إلى رائحة المسك يوم القيامة. لا يعلمون بأن رائحته في الأساس هي مسك، وأن النوم بين ذراعيه كان هو الجنة بذاتها.

تزوجتُ مع شقيقي فور تخرجي في كلية الشرطة وأصبحت ضابطاً له القيمة والكل يسعى لمصاهرته. لم أسمع منذ ذلك الحين كلمة "ابن مرملة"، التي كانت تتردد كلما قمت بعمل لا يعجب

المحيطين بي في الحارة. "حسن" سمعها كثيراً، وكانت ردات فعله عنيفة مع كل من يقول له هذه الكلمة. لا يشعر بالراحة إلا وقد رأى الدماء تسيل من فم من قالها. ورغم قوته تلك إلا أنه لم يفضل الالتحاق معي بكلية الشرطة. فضّل التجارة.

تُجار الثمانينيات كانوا أفضل حظاً من تجار التسعينيات وبداية الألفية الثالثة. كانت التجارة شطارة وجهداً وعرقاً ومكسباً. وهذا ما حدث مع "حسن" حصل على وكالات لمحركات زراعية مختلفة، وبعض الوكالات لأدوات كهربائية، احتكرها وعمل عليها بجهد حتى أصبح تاجراً مرموقاً وله موظفون وفروع للشركة ومحلات في كل المدن. قال لي مراراً إن وطنيته تدرُّ للدولة مالاً ووطنيتي تدرُّ للدولة أخلاقاً، وهذا وذاك لا غنى للدولة عنهما.

في منتصف التسعينيات اختلف الأمر، وغيّر جملته تماماً؛ قال إن وطنيته تنهار ولا يستطيع مقاومة التجار الجدد والمستثمرين المستغلين لتسهيلات فاسدين في جهاز الدولة في كل مكان. أصبح يخسر وطنيته وأمواله أمام إغراءات لا يرفضها إلا "حمار" لمن كان له قريب في أي مصلحة حكومية... يوظف أهله، أو يسهل أمورهم، أو يأخذ عمولات له ولأقاربه ولأقارب أقاربه... شبكة فساد عنكبوتية تسري في جسد الدولة وتنخر عظامها ببطء، وتقوض كل ما أسس له تجار الأمانة والإخلاص للوطن.

قال إن يوماً سيأتي تصاب فيه الدولة بالشلل والاقتصاد بالانهيار... لم يقاوم، فضّل بقاء وطنيته في قلبه خارج بلده. هاجر بأمواله وعائلته إلى كندا، بدأ فيها من جديد. قال إن مدينة

"فانكوفر" الكندية هي جنة الله على الأرض. ورجاني أكثر من مرة اللحاق به، أنا وأمي، وحتى شقيقتي "نور" وأولادها وزوجها لو أرادت.

ثلاثتنا، أنا وأمي و"نور"، كانت جذورنا في صنعاء، بل لا نتخيل حتى مغادرتها. فكرة مغادرتها كانت فكرة جنونية. أقصى ما استطعت فعله في فساد الدولة هو تقديم استقالتي في وقت صرت عاجزاً فيه عن الاحتفاظ ببريق البدلة العسكرية التي ارتديتها لحماية الناس وحفظ حقوقهم؛ عاجزاً عن مواجهة وساطات الوظائف لغير المستحقين وإقصاء المستحقين بحُجج واهية. أتذكر كلام أخي "حسن" وأشعر بالقهر على تضحية والدي من أجل هذا الوطن وما يفعله به أهله الآن!...

العقد الأول من الألفية الثالثة يكاد ينتهي، وأوضاع اليمن السياسية والاقتصادية والاجتماعية تزداد سوءاً. اختلت الموازين؛ زاد الغنيَّ غنى، وزاد الفقير فقراً. أكلوا صنعاء ورموا عظامها للفقراء. مع ذلك، هؤلاء الفقراء، عاشقو صنعاء، لم يقبلوا حتى أكل عظامها، فضّلوا الموت جوعاً. المدينة تمتد كأخطبوط، دون دراسات علمية لاحتياجها. المدينة تحتضر من العطش ومن البرد ومن الجوع... فمن ينقذها؟!

استقالتي أعادت لي ذكريات الأيام الجميلة: طفولتي، مدينتي، أبي، أمي، شقيقيَّ، أصدقائي، "صُبحيات" الصبا... أعادت لي وطني الذي أريد العيش فيه بكرامة، لا وطني الذي يريدون أن أحيا فيه بشروط فسادهم.

أرى مرسم "صبحية" وأقول بيني وبيني: مسكينة هذه المرأة! ستشعر باليأس عما قريب من وضع البلاد والعباد وعدم رغبتهم في تغيير أوضاعهم، وستعود أدراجها، إما إلى القاهرة أو إلى أي بلد يفتح أحضانه للشرفاء!

آه! موجع أن تفتح لك الأوطان أبوابها، ويوصده بلدك في وجهك! البقاء في وطنك وأنت تدرك حجم مأساته وحجم مكابدتك له هو حب لا يقل عظمة عن خروجك منه وعدم مشاركتك في ألمه وألمك.

للتو فهمت أخي "حسن" وهجرته.

***

III

منذ بلوغ الفتاة مبلغ النساء، بِحُمرة سائلها الشهري، وأمها تخبئ لها في "زمبيل" صغير من سعف النخيل ثلاث حبات من زبيب العنب الأبيض وحبة لوز من شجرة بِكر. في يوم زفافها تهديها ما جمعته وتهمس في أذنها نصائح تحمرُّ لها وجنتاها خجلاً. من ذلك اليوم تصبح الفتاة امرأة، تُنهي نهارها وتبدأ ليلها بتناول ثلاث حبات من زبيب العنب الأبيض وحبة لوز من شجرة بِكر. وتخبئ لبناتها منذ بلوغهن في زنبيل صغير من سعف النخيل مثل ما خبأته لها أمها، وتردد على مسامعهن ما قالته لها، وتضيف أن الزبيب واللوز يجعل منهن نساء خارقات يعاشرن أزواجهن بوله كل ليلة لينجبن الأبناء دون عناء.

خرافة جدتي!...

عودتي إلى المنزل بعد تلبية دعوة "حميد" كانت متأخرة جداً. لم تهتم أمي كثيراً لمعرفة السبب. منذ عودتنا من القاهرة إلى صنعاء أصبح اهتمامها بـ"مقايل" النساء لـ"تخزين القات"، وخروجها شبه اليومي، مسيطراً عليها. كنتُ أبدي دهشة كبيرة عندما تحدثني أمي عن الاهتمام المبالغ فيه بهذه "المقايل" وبطقوسها وبتكاليفها الباهظة؛ لكن تحول الأمر إلى اعتيادي بعد أن اتضح لي أن هذه هي الحياة التي تدور في فلكها معظم نساء صنعاء، ماعدا القليل. الكارثة أكبر بالنسبة للفتيات الصغيرات. أقارن أهم الأساسيات الترفيهية والثقافية المتوفرة في الحياة التي عشتها في القاهرة، من حدائق ومتنزهات ومعارض كتاب وفنون وصالات سينما ومسرح وموسيقى... وبين بعضها الذي يتواجد في صنعاء، وبعضها المعدوم، فأشفق عليهن أمام السخط الذي يجدنه من المجتمع.

حبي للرسم وانشغالي به أبعدني –ربما– عن هذه الدوامة، بعد أن رفضت أمي وبشدة عودتنا لمواصلة العيش في القاهرة؛ كأنها تريد أن تعوض الحياة التي فقدتها بعيشها في القاهرة كل تلك السنوات خاضعة لرغبة أبي لا رغبتها! ربما تعوض ما فاتها من نعيم الحياة في مدينتها ومع أهلها وصديقاتها! أجد بتصرفها هذا تفسيراً مناسباً لتلك الساعات التي كانت تقضيها صامتة وشاردة أمام نافذة شقة القاهرة المطلة على نهر النيل. حياتنا الاجتماعية في القاهرة كانت محدودة إلى حد كبير. أنشأت علاقة صداقة وطيدة

مع جارتي؛ لأن الصداقات في المدرسة لم تكن مسموحة، لكي لا نتبادل الزيارات إلا فيما ندر، وبرفقة أمي على العكس منها كانت علاقتنا مع العائلات اليمنية المقيمة في القاهرة قوية وغنية بتبادل الزيارات والمشاركة في المناسبات الدينية والسياسية والاجتماعية.

شعوري بالحياة في القاهرة كان يوافق شعور كثير من العائلات اليمنية التي فضلت السكن فيها؛ لأنها مدينة حياة، بل هي ضاجة بالحياة في كل شبر فيها. هناك الحياة الاجتماعية البسيطة المرتبطة بذاتها وبكل ما حولها، وهناك الحياة الثقافية الغنية بالإنتاج الأدبي والفني المتجدد مع العصر ومع تطوراته، وهناك السياسة وارتباطها بالعالم فالقاهرة في القلب العربي جغرافياً وروحياً... العمارة التي نسكنها، فيها أحد السياسيين الذين نجوا بحياتهم من خلافات سياسية في منتصف السبعينيات صفّتْ معظم زملائه. وهناك تاجر وجد أن تسهيلات تجارته في القاهرة أفضل بكثير منها في اليمن على الأقل لا يوجد شيخ قبيلة يحميه ويأخذ نسبته دون أن تعبر قطرة عرق واحدة عن تعبه. في القاهرة وجد القانون -لا الشيخ- هو الحامي. هناك أيضا الكثير من طلاب وطالبات الجامعات الذين يتشاركون إيجار شقة وينفرد كل واحد منهم بغرفة مستقلة.

لم يفرض علينا أبي نمط الحياة هذا؛ لكنَّا استحسناها، ماعدا شقيقي، الذي كان اندماجه كبيراً في البيئة الاجتماعية المصرية منذ المدرسة وحتى الجامعة. انتهى به الأمر بالزواج من فتاة مصرية، "هبة" أو "هبة الله"، بنت الجيران. قضى معها طفولته وكل مراحل عمره، ولم تلق هذه العلاقة اعتراضاً من العائلتين.

كان هدف أمي الشاغل هو أن تنسج علاقات اجتماعية مع تلك العائلات؛ قد تجد لي عريساً مناسباً من بلدي. كان ذلك واضحاً في كثرة شرائها للملابس واهتمامها بترتيب شكلي وتسريحة شعري في كل زيارة لعائلات يمنية. صرت بعدها أعشق الملابس والألوان، أنمق ألوانها وأبتكر تصاميم تخصني، أرسمها على صفحات بيضاء أعلقها على حائط حجرتي لأيام ثم أدخلها في ألبوم خاص بها.

استغلت أمي شغفي بالرسم وراحت تُكثر من شراء الألوان وأدوات الرسم، حتى لو لم أكن أجيد استخدامها في البداية. أسأل مُدرّسة الفنون عنها وأشتري ما يلائم تلك الألوان من ورق، وأحيي عالماً من الاكتشاف اللذيذ. علاقتي باللون كانت ومازالت "دهشة" لعالم مليء بالغموض. قلدتُ كل ما كان يحرك فيَّ من مشاعر: وجوها، أشجارا، منازل، حدائق... ما كنت أفكر فيه هو ابتكار موديلات الفساتين لصديقاتي. رغبة كل واحدة منهن في التميز بموديل خاص حررني من شعوري بالملل. لم أكن ودودة مع صديقات أمي الراغبات في خطبتي ويتحججن بطلب رسم موديلات لفساتين. أبي كان متفهماً، بل محايداً، فيما يخص قبولي أو رفضي لمن تقدموا لخطبتي في تلك الفترة.

استيعاب أبي لتناقضاتي واحتياجاتي كان رائعاً. أرادت أمي تغطية شعري منذ سن السادسة عشرة، وترك لي أبي حرية الاختيار واحتمال حنق أمي وشقيقي معللاً بأنها حرية شخصية وما هو لي فلي مطلق الحرية في التصرف فيه دون إيذاء للآخرين، ويعتقد أن شعري لن يؤذي أحداً. ظلت هذه العبارة عالقة

في ذهني ومؤثرة على قراراتي الخاصة التي لا تؤذي أحداً. فتجاوزت شعور المهانة لتصرف أمي أمام إصرارها على أن أفضل حماية للبنات هي الزواج، ونحن في غربة ولا بد أن تفكر في مستقبلي. صرتُ أكثر انعزالاً يوماً بعد يوم، ماعدا بعض الصداقات النادرة مع بعض بنات الجيران وبعض صديقات المدرسة. أتنفس الحياة من شذى مزج الألوان، وأراها من خلال تعبيري بضربات الفرشاة على وجه القماش أو على بياض الورق، لأجسد ما أشعر به وما أريد أن يشعر به الآخرون.

يوماً عن يوم صار اللون محرضاً لي على أن أكون ذاتي ولذاتي. وقوفي في السنة الجامعية الأولى نصف عارية في مرسم جماعي لزملاء وزميلات جعلني أميز بين الفن والرغبة، وجعلهم يدركون تماس الخيال مع الحقيقة. صرنا معاً أكثر ثقة وأكثر جرأة في التعبير عما نريد وقت ما نريد بإيجابية اللون في الحياة وفي مُتعها.

متعتي الأخرى كانت في البقاء مع والدي والحديث معه عن صنعاء وعن حياته فيها وذكرياته قبل قراره البقاء والعيش في القاهرة. لم أكن أفهم من كلامه الكثير. كان هناك تلميحات لا يشرحها -ولا يريد- حتى لو سألته عنها! كان غامضاً أحياناً وشفافاً أحياناً أخرى! وما كان يهمني هو أنه يتحدث، فبعد كل حديث له أرى قسمات الرضا على وجهه، وفي ذلك الرأس الصغير كنتُ أحتفظ وأتخيل من كلامه ما استطعت وأنسج علاقة حب مع مدينة لا أعرفها! يقول إنني ولدتُ فيها؛ لكني غادرتها ولم أكن قد خطوت على ترابها ولو خطوة واحدة!

كنتُ بين يديْ والدتي طفلة رضيعة لم تتجاوز الستة أشهر، وأخي ممسكاً بيد والدي في تلك الصورة التي كانت على جواز السفر العائلي، تذكار اللحظة الأخيرة لعائلة غادرت صنعاء في منتصف العام 1974 لأسباب لا يعرفها غير والدي. وبالرغم من ذلك لم ينقص فضولي يوماً لمعرفة السبب، دون فائدة منه أو من أمي!!

أمام إلحاحي ورغبة أمي الشديدة بزيارة صنعاء، سمح لنا أبي بزيارتها في بعض إجازات آخر العام، بعد أن ملَّ زيارة مدينة الإسكندرية في الصيف، وملَّ أيضاً زيارة بعض أصدقائه ممن خرجوا من اليمن -مثله- لبعض عواصم الدول الأوربية كفرنسا وألمانيا ولندن. لم أكن أشعر ببهجة أو فرح في كل تلك المدن. لم تكن تعنيني إلا بعماراتها المزخرفة أو بمبانيها الزجاجية وناسها المتحضرين، وبقول والدي من باب السخرية المعجونة بالمرارة: "كان من المفروض أن تكون اليمن هكذا لو أخلصوا لها!".

الزيارات تلك كانت تزيد من ظمئي. أعود وأنا لم أرتوِ من صنعاء. وفي كل عودة لي منها إلى القاهرة أجلب معي تذكاراً أكون قد اجتهدت حتى ترافقني أمي إلى صنعاء القديمة لشرائه. مع مرور السنوات أصبح لي في حجرتي ركن دافئ يحوي مدينة بأكملها. أحب ذلك الركن، وأرتب محتوياته كلما شعرت بحنين لتلك المدينة التي هجرها أبي. بعد أن كبرت أصبحت أجيد ترتيب التذكارات كما أجيد فهمها. منازل صغيرة متعددة الطوابق غنية بالزخارف أتأملها بحنو وشوق. أدوات زينة نسائية من الفضة مشغولة بمهارة، عندما أضع القرطين ليتدليان من أذنيّ، أو أترك

السلاسل تلتصق على صدري، أو أضع الحزام على خصري، يغشاني شجن أحلق به في المدينة رغم المسافة. ذلك الصندوق الخشبي الكبير، المُطعم بزخارف نحاسية في منتصفه وأطرافه، تعاركتُ مع أمي لأفوز بشرائه أمام رفضها. قلت لها إنه ليس كبيراً كما تظن بل هو صغير كما يلزم لأحتفظ بمدينتي في جوفه.

صنعائي كانت في صندوق؛ لكن القاهرة كانت مدينتي الحرة التي تضخ الدماء في شراييني. اكتشفت أن لي مدينتين ولهجتين ووطنين في سن مبكرة. حادثة حُفرت في جدار الذاكرة لأبدأ معها ازدواجية الهوية وحنين الغُربة للوطن. حتى السادسة من عمري وأنا أتحدث خارج المنزل بلهجة وداخل المنزل بلهجة أخرى. اعتقدت أن كل الأطفال مثلي، وأن أطفال جيراننا يفعلون ذلك كلما احتوتهم منازلهم؛ حتى تشاجرتُ مع زميلتي في المدرسة واضطرت إدارة المدرسة لاستدعاء وليي أمرنا. اندهش الجميع من حديثي مع والدتي. زميلتي لم تكن تتحدث مع والدتها مثلي، بل كانت تسخر مني وأنا أستميت في الدفاع عن نفسي بلهجتي الخاصة مع أمي، عن براءتي من ضربها إلا للرد على اعتدائها؛ أخذتْ قلمي الرصاص الجديد ذا اللون الأحمر وأخفته في حقيبتها، فكان لا بد من استعادته حتى لو بضربها!

لا أعرف كيف ينقل بقية الآباء خارج وطنهم هذه المعلومة لأولادهم؛ لكن السنوات الست كانت سناً متأخرة لتخبرني أمي وأبي أن البلد الذي أعيش فيه ليس وطني، وأن لي وطناً آخر! لا أعرف لماذا لا أعيش فيه! ولماذا لا أزوره! ولماذا لم يحدثني أحد

عنه من قبل!... وأن لي اسمين: "صباح" في المدرسة و"صبحية" في المنزل!

عشق والدي لرؤية انبثاق أول خيوط الفجر الفضية منسلخة من آخر هزيع ليليّ، جعله يسميني "صبحية" ويصر عليه في المنزل. أما صعوبة لفظة من صديقاتي في المدرسة جعله "صباح"، فكنتُ "صباح" و"صبحية" معاً.

زارتنا بعد هذه الحادثة بشهر جدتي لأمي، لتلقي العلاج من سرطان الثدي. في حديث أمي عن جدتي قبل مجيئها كنت أشعر بمدى اشتياقها لها ورغبتها في رؤيتها أو زيارتها وزيارة صنعاء، المدينة التي شهدت طفولتها وذكريات صباها وألق زواجها بوالدي. وصول جدتي أعاد لها بعض الفرح، رغم الأيام الصعبة التي تعيشها جدتي. جدتي "حليمة" رفضت أن تصحب معها ابنها الوحيد أو إحدى ابنتيها المتزوجتين الأكبر سناً من أمي؛ حتى لا تثقل عليهم ولا تجعلهم يتركون عائلاتهم. اكتفت بأمي من أبنائها؛ ربما لتعوضها المدة التي غابت عنها دون إرادتها! بعد عام ونصف من صراعها مع مرضها الذي تفشى في أنحاء صدرها، تقبلت قدرها بهدوء وابتسام وغادرتنا إلى عند الله بعد أن امتحنها وعرف حقاً مدى صبرها على بلائه وهي راضية كما كانت تردد لي ولأمي.

كان لحكايات جدتي "حليمة" رائحة مدينة أحلم بها، وخيال عالم أسطوري أتمنى اختراقه، وبقايا ذكريات تودعها بِنَهَمٍ دون أن تقول إنها راحلة.

نجا شقيقي "نصر" من أسر مدينة صنعاء بهروبه من حكايات الجدات! شعر بالفزع من أول حكاية قالت فيها جدتي "حليمة" إن أشجار "مقشامة حارة القاسمي" كانت تمسك فروعها بالأطفال "الورشين" وتُلقي بهم في جوفها ولا تخرجهم إلا بعد أن يكونوا قد بالوا على سراويلهم من شدة ظلام جوفها وبعد أن تكون قد انتزعت منهم وعداً بعدم عصيانهم لأمهاتهم وأذية أشقائهم الصغار.

أنا لم أنجُ مثله. كنتُ موغلة في تلك الحكايات وفي تخيل عالمها المفزع والمحزن والمضحك. قبل مجيء جدتي "حليمة" كانت جدتي "مسرة" تحكي لي ما استطاعت وهي تمارس طقوس صنع قهوتها الحبشية في بلكونة شقتنا في "شارع الدقي" بالقاهرة. البلكونة مطلة في جزء منها على النيل. تكون هي للتو قد استيقظت من "تعسيلة" بعد الغداء، وأكون قد انتهيت من واجباتي المدرسية.

لجدتي "حليمة" نظام مختلف؛ حكاياتها لا تحب ضوء النهار، وتعشق حلكة الليل. قبل النوم، أتكور جوارها لتحكي وتحكي وتحكي؛ لكني لا أتذكر حكاياها؛ كأني أسمع كل يوم حكاية جديدة. تقول في اليوم التالي إنها ستكمل الحكاية من الجزء الذي غلبني فيه النعاس ونمت؛ لكني أرفض، وأطلب أن تحكي لي "حزوية" الجنية التي سكنت "قصر غمدان"؛ جنية ربتها منذ ولادتها شجرة، جنية ولدها أبوها من دُبرهِ وهرب فزعاً، معتقداً أن ألمه الشديد وأن ما خرج منه هو عِقاب له على ظلمه زوجته وأكله حبة التمر الخاصة بها كل يوم وهم في شدة قحط القرية وخلوها من الطعام. هرب واختفى إلى الأبد وهو يعتقد أنه تبرز "سفرجلة"

أرهقه حملها في بطنه عامين كاملين. لم يكن يعلم أن في جوف السفرجلة فتاة فائقة الحُسن. حملت العصافير تلك السفرجلة إلى أعلى الشجرة. بعد أيام خرجت من خلف قشرتها الصفراء المُخضرة الفتاة لتصبح من حينها ابنة الشجرة! ظلت الفتاة عارية فوق أغصان الشجرة حتى أصبحت شابة يافعة رشيقة لا يستر جسمها غير شعرها الطويل، لا تقتات إلا ما تجود به تلك العصافير عليها من حبوب. ذات يوم رفض حصان الأمير الشاب وريث عرش أبيه أن يشرب من غيل الماء أطراف حديقة قصره. استغرب الأمير من تصرف حصانه وهيجانه كلما حاولوا إرغامه على الشرب. أدخل الأمير عصاه في جوف الماء وراح يدور بها في جوف الماء بحركات باحثة عن سبب علة الحصان. لا شيء غير شعرة طويلة عَلِقت في العصا. حاول كشف مكان سقوطها. رفعها بالعصا على مدى بصره ليدرك طولها. في نظرته للأعلى اصطدم بنهاية الشجرة التي تحتضن أغصانها جنيته. كانت متدثرة بشعرها الفاحم السواد وتاركة بعض بياض جسمها يتسلل إلى عيون الأمير كلما تحركت. صعد الأمير بخفة فارس إلى أعلى الشجرة، أمعن النظر إليها بشدوه تام للحظات ومن ثم ألقى عليها شاله الذي انتزعه من على كتفيه وأنزلها برفق من الشجرة. عرف حكايتها، وعرف سر تعلمها للكلام من زوار العين. ذهب بها إلى القصر، وتزوجها! وعاشا في ثبات ونبات، وخلفوا الصبيان والبنات...

يومها سألتُ جدتي حليمة: هل يلد الرجل؟ قالت: لا؟ قلت: لماذا؟ قالت: النساء هُن من يُنجبن؛ لكن ما حدث للرجل والد الجنية

هو عقاب له على ظلمه لزوجته، وليشعر ببعض آلامها. أردفتُ بسؤالي التالي: ومن أين تلد المرأة؟ وقبل أن تجيب جدتي نهرتني أمي بشدة وقالت: "من علمك قلة الأدب هذه؟!". نظرتْ إليها جدتي نظرة استنكار وردت عليَّ بهدوء وابتسامتها لم تغادر محياها: "للمرأة فتحة أسفل بطنها، لها غشاء رقيق هو دليل عفتها ولا يفضه إلا زوجها، ومن هذه الفتحة تلد النساء، يخرج منها دم فاسد كل شهر، وهو دليل بلوغها مبلغ النساء، وعليها أن تضع قطعة من القماش لامتصاص الدم الخارج منها طيلة سبعة أيام، تغتسل منه بعد ذلك وتتطهر للصلاة؛ لذلك على الفتاة أن تحافظ على ما تملك حتى تتزوج وتنجب الأبناء من زوجها". تبادلت جدتي وأمي الابتسامات. لم تتحدث أمي معي كما فعلت جدتي حتى عندما جاءتني أول دورة شهرية، اكتفت فقط بإعلامي بمكان الحفاظات القطنية التي يجب أن أستخدمها لامتصاص الدم، عوضاً عن قطعة القماش الذي تحدثت عنه جدتي والتنبيه عليَّ كلما اشتريتها أن أخفيها في كيس أسود وكأنها فضيحة فيما لو شاهدها أحد! شتان بين جدتي التي ربت أمي بذلك الهدوء والصراحة، وبين أمي التي تركت المدرسة والصديقات يقمن بدورها.

لم تفارق خيالي جنية "قصر غمدان"، ولم يفارق خيالي حب الأمير للجنية وتفانيه في إسعادها رغم كره أمه لها وكره كل من في القصر لتلك المجهولة التي لا يعرفون من أين جاء بها الأمير.

ومنذ حكايات جدتي، ومثل كل البنات، تمنيت أميراً، وتمنيت قصرا مثل "قصر غمدان"، متعدد الطوابق، فخم الإنشاء، رفاهيته وصلت أسماع القاصي والداني في بقاع الأرض، من عاش فيه

سعيد، ومن مر بجانبه وجد السعادة، ومن تحدث عنه أبهجته ألوانه ونوافذه الواسعة وأسقفه الرخامية المتعددة وعاش على تلك الأمنية مدى حياته.

عندما كبرت بحثت عن القصر وعن حكايات جدتي "حليمة"، بل أساطير جدتي "حليمة". عشت أساطير أخرى للقصر الذي لا يعرف أحد مكانه ووصفه، إلا ما تتناقله تلك الأساطير، وما دوّنه "الهمداني" في الجزء الثامن من كتابه "الإكليل" عن ارتفاعه الشاهق وجماله النادر وسقوفه الرخامية البديعة. منذ عودتي دائماً ما أجد تلك "التبة" الشامخة على السور الشرقي لصنعاء القديمة، معبرة عن موقع القصر، كما يقول البعض. وأتخيل تلك الحدائق الممتدة حتى وسط المدينة. تحولت تسميته من "قصر غمدان" إلى "قصر السلاح". تحول إلى ضد ما كان عليه، إلى ثكنة عسكرية للجيش، مدجج بالحراسة من كل جانب، نسمع كل حين ومين عن حوادث قتل بين الضباط وخلافات لا يتم حلها إلا بالسلاح أو الموت. زاد الطين بلة بناء ثكنة عسكرية أخرى لاستخبارات الأمن القومي مقابل القصر. حجارة المبنى السوداء، الكتل الأسمنتية للحماية المحيطة به، تشعرني بعدم القدرة على التنفس؛ بالاختناق! ماذا يفعل هؤلاء بالمدينة؟! كيف استطاعوا أن يشوهوا جمالها وتاريخها بتلك الطريقة؟! بياض القبة الرئيسية الكبيرة والقباب الصغيرة حولها لـ"مسجد البكيرية"، الذي بناه العثمانيون قبل أربعمائة عام تخليداً لذكرى وفاة "بكير بك"، الذي كبا به الفرس ومات، يجاهر بنقائه وروحانيته أمام وقاحة واستعلاء حجارة مبنى استخبارات الأمن

القومي السوداء. الجنود حول المبنى مدججون بالسلاح، وآمرون الناس بعدم التصوير وبعدم النظر إلى المبنى، ما جعل منه كابوساً على سكان تلك المباني المحيطة به.

***

لم أفعل شيئاً بعد خروج أمي إلى مقيلها غير النوم. ولا أعرف هل لمواصلة الحلم بتلك الأيام الثلاثة في رسم وجه "حميد" وتفاصيله، أم للهروب منه ونسيانه؟ هل لمواصلة البحث عن إجابات على أسئلة هجمت عليَّ خلال لقائي به في تلك "السمسرة"، أم استمتاعاً بتلك المسافة الحميمة للاقتراب منه بما وهبني إياه وهو يشرح أدق تفاصيل ذكرياته؟!

لماذا شغل بالي "حميد" رغم كثرة المارين على المرسم؟! هل وجدت فيه ما أتمنى في الشكل: رجلاً صنعانياً طويل القامة، عريض المنكبين، قمحي البشرة، شخصية آسرة بكلامها وبسعة معرفتها، الكلمات القليلة التي علق بها على اللوحات وألوانها، تبادله الحديث بالانجليزية مع بعض السائحين، ابتسامته الهادئة... كلها أمور قالت ذلك، جعلته مميزاً لديَّ منذ المرة الأولى؟! لكن ماذا عن المضمون؟! ماذا في داخل هذا الرجل جعلني أنساق إليه بمشاعري دون معرفته؟! لا أعرف! أنا حقاً لا أعرف!!!

هل سأهرب منه كما فعلت مع كل من كان يتودد إليّ في القاهرة، بحثا عن ابن البلد؟! أم سأواصل معه استيفاء ما لم أشعر به مع من تقدموا لخطبتي منذ وصولي صنعاء؟! تقول أمي إنها لا تفهم تماماً ما هي شروطي في زوج المستقبل؛ لكثرة العيوب التي

أبديها في كل متقدمٍ لخطبتي. أرد عليها بأني لا أبحث إلا عمن يقودني إليه قلبي دون شروط!

نسيتْ أمي أو تناست تربيتها الصارمة لي وتحذيراتها المستمرة من الرجال منذ كنت صغيرة. هذا الخوف حرمني من أشياء كثيرة كان يفعلها الصغار أمثالي في الحارة التي يلعبون فيها ويجرون ويخبئون فيها أحلامهم وأمانيهم وشقاواتهم كلما مروا فيها. إذا كلمني ابن جارنا فهو يريد بي شراً! وإذا طلب مني الأستاذ الحضور إلى غرفة المدرسين لا يجب أن أذهب إلا مع زميلة لي! البنات في الجامعة ذوات العلاقات مع الشبان "لسن مؤدبات"! حتى الحديث في غير مواضيع الدراسة "قلة أدب"، والرجل لا يفضل ولا يتزوج إلا المرأة التي لم يقم معها علاقة حب قبل الزواج!...

سدٌّ منيعٌ كان بيني وبين تودد أي زميل في القاهرة. أهرب من أول محاولة للمس يدي أو أول قبلة مباغتة على شفتيّ حتى أول خدر لذيذ لغزل تطاله أذناي! تحول ذلك لاحقاً إلى ما يشبه الإدمان في لعبة العرض والطلب والهرب منها في الوقت ذاته. كنتُ أتسلى ربما حتى لا أشعر أن هناك شيئاً قد فاتني مثل باقي البنات! وربما كنت أبحث عن الأفضل، الذي لم أجده في علاقات صداقة وبدايات حب كانت مع زملاء جامعة ومعارف من اليمنيين فيها وفي إطار تعارفنا العائلي! علاقة ملتبسة بالرجل الذي أريده شريكاً؛ علاقة غير واضحة تماما؛ لكني أبحث عنها، ولم أتوقف يوماً عن السير إليها!

"رأفت"، ذلك الزميل الذي تحول إلى صديق ومن ثم إلى حبيب في سنة البكالوريوس، كان مختلفاً في تعاطيه مع تناقضاتي. استوعب حيرتي بمقارنته برجل لم يأت بعد من وطني، كما استوعب عدم قبولي لطلبه في الارتباط والحياة في القاهرة، وظل وفياً لي وبجانبي في كل المراحل اللاحقة بعد ذلك. شعور الأمان مع رجل كـ"رأفت" كان يمنحني قوة داخلية يقول إنه يفهمها ويفهمني! ودّعنا في المطار حال مغادرتنا لدفن والدي في صنعاء بدموع مخنوقة حزناً على والدي الذي كان يعزه جداً، وحزناً على فراقي. في زياراتنا اللاحقة لترتيب وضع العودة مع أمي إلى اليمن كان أكثر من وقف إلى جوارنا وساعدنا في بيع بعض مقتنياتنا، وتأجير الشقة والتفاوض مع المستأجر، بعد أن فضل شقيقي الانتقال والعيش في الاسكندرية مع زوجته هرباً من ضجيج القاهرة.

والآن كيف أنسج لي علاقة؟! وكيف لا أهرب من "حميد" ومما أريده منه ومما يريده مني؟!!

قررت أن يكون لقائي السابق بـ"حميد" هو الأول والأخير. أبحث عن النجاة بنفسي من كل تلك التناقضات في داخلي، بل وفي داخل "حميد" ذاته وما يريده مني. قراري هذا جعلني أنام بهدوء؛ لأني سأنفذ رغبتي هذه ولن أرى "حميد" مجدداً. هل كان قرارا للنوم أم للحياة؟!

***

استيقظت في اليوم التالي، أمي مازالت نائمة، لا شيء تفعله في نهارها غير النوم ولقاء صديقاتها، رفضتْ حتى التفكير بعمل

برامج تطوعية مجتمعية كتلك التي كانت تشارك بها في القاهرة، حملة تبرعات وزيارة مدارس أيتام... رجوتها زيارتي في المرسم وتحمُّل مسؤولية ركن المبيعات الذي يحوي المنتجات اليدوية لنساء صنعاء القديمة، وتشجيعهن على الاستمرار وتطوير أدائهن. لا فائدة! تقول: "نحن في اليمن ولسنا في القاهرة! هنا لا يفهمون شيئاً!".

يومٌ هادئ منذ الصباح، كأنَّ المدينة تريد الاسترخاء فيه قبل أن تستعد لإستقبال ضيف عزيز عليها هو شهر رمضان. تصبح أيام شهر رمضان مميزة في صنعاء القديمة. يستكين الناس بين حوائط منازلهم، لا ترى غير الأطفال. يصبح الشارع مرتعاً للعبهم دون شريك. أما ما يميز هذه الأيام فهو تجهيزات شهر رمضان: نظافة المنازل، شراء متطلبات الوجبات الرمضانية، والأهم: الاستعداد الروحي للصلاة وقراءة القرآن واستقبال كل ذوي الأرحام خاصة من النساء.

كنتُ منهمكة في الرسم في الدور الثاني، مبتهجة بهدوء الصباح، أدندن بأغنية فيروز "تعا ولا تجي واكدب عليّ"؛ وإذا بصوت أجش يستأذن في الصعود، توحي غلظته وبحته بإسراف صاحبه في التدخين. التفتُّ أرى مصدر الصوت، لأجد أمامي امرأة طويلة القامة ممشوقتها، كامل جسمها ملفوف بستارة ليست قديمة ولا جديدة؛ لكنها نظيفة. لثامها على الوجه مميز بطريقة تظهر كُحل العينين، والحاجبين المنمقين، ونصف الأنف الحاد. هذه الطريقة لا تروق لأغلب اليمنيين؛ يقولون إنها مغرية وتظهر مفاتن في الوجه المراد تغطيته، وبعضهم يقول إنها لثام النساء

سيئات السمعة، الباحثات عن لفت الانتباه. أما أهل صنعاء فيعتبرونها طريقة لثام النساء "المقحقحات"، أي الجريئات، ولا يفضلونها لبناتهم، يريدون لثاماً محترماً يغطي كامل الوجه ويترك فقط مجالاً للرؤية من العينين.

مازلت أذكر تلك اللوحة على غلاف إحدى المجلات اليمنية التي كانت تصل لوالدي في القاهرة. صورة فتاة تحمل بيدها مفتاح بيت قديم، مصنوعاً من الحديد. مفاتيح البيوت القديمة في صنعاء كبيرة ويصعب حملها في الجيب. يضع الجيران عند اضطرارهم للخروج من المنزل مفاتيحهم لدى جيرانهم. المهم أن يستلم المفتاح من يحدده الجار.

في صورة الغلاف تلك كان حجم المفتاح كبيراً أيضاً، ومسيطراً على اللوحة، ومكتوب في المكان المخصص لفتح الباب من الأسفل "اليمن". الفتاة حاملة المفتاح ترتدي الستارة وطريقة لثامها فيها ميوعة محببة للنفس تُفصح عن جمالها الآسر، وتشبه تلك المرأة الواقفة أمامي. مجلة "الإكليل" كانت نسخة تحوي عددها الثاني والثالث الخاص بصنعاء في العام 1983.

احتفظت بالعدد كهدية ثمينة، بل كنز وصل من صنعاء، بما حواه من معلومات عن المدينة القديمة ترسخت في الذاكرة عن تلك المدينة التي ستكون لي مهما طالت فترة بعدي عنها... مدينتي التي كان كل شيء قابلاً لأن أخبئها فيه، حتى لو بين أحرف مجلة. أما من رسم تلك اللوحة (الفنان هاشم علي) فقد كان أول خيط يقودني إلى صنعاء وعالمها الغامض. سنتي الأولى في الجامعة بحثت فيها عن أعماله وعن مقتطفات من سيرة حياته.

لم يفاجئني كونه رائد الحركة التشكيلية في اليمن، بل أدهشتني سيرة حياته البسيطة والغنية في الوقت ذاته. عمله، وهو في العاشرة، لتوفير لقمة العيش بعد وفاة والده، جعله لا يضيع وقتاً في الاطلاع على الفنون العالمية المختلفة. كان اطلاعه عميقاً وواعياً للفن وماهيته، خاصة وهو يتقن الانجليزية، بعد نشأته الأولى في إندونيسيا منذ ميلاده في العام 1945م. علم طلابه ألا يكونوا نسخاً منه، بل أن يكونوا ذواتهم، فالألوان كلها جميلة إذا حَسُن استخدامها.

كان مشروع التخرج الخاص بي عن "المرأة في أعمال هاشم علي". في أعماله تبدو المرأة مدهشة؛ لكنها ليست وحيدة، هناك شيء تفعله أو تهتم به أو تنظر إليه؛ فهي حاملة للفاكهة، وهي منسجمة تداعب الحيوان، وهي راقصة ضمن مجموعة، وهي وجوه متعددة، متأملة وشاردة ومتلوعة ومتشجنة... لوحاته الجرافيك أو الزيتية مدهشة، ضاجة بالإنسانية. المرأة هي من حيرتني في البحث! المرأة المُلهِمة للفنان، واقعاً كانت أو خيالاً! سألت: هل للمرأة الفنانة رجل مُلهم، محرض على الإبداع والخروج من بوتقة الذات؟ لم أجد غير الابتسامة من المشرف على البحث والضحكات المتعالية من الطلاب!!!

جلستْ الزائرة غريبة الأطوار على الكرسي المقابل لي. وجهت كلامها لي بلهجة صنعانية خالصة لم أتبين حدتها وحنقها من استخفافها وتهكمها: "وانا ما تشتيش ترسميني؟! قد لبست لش

الستارة!". لم تنتظر إجابتي! وقع بصرها على الحائط خلفي وعلى أعمالي المعلقة عليه. انتفضتْ من مكانها باتجاهه وراحت تتأمل محتوياته بصمت. ليت لي عينين خلفيتين لأرى ما جذب انتباهها وعن أي شيء تبحث في هذا الحائط!

بلغ فضولي مداه. نهضت من مكاني. تأملتها! كانت متسمرة أمام ثلاثة أعمال على الحائط متراصة عمودياً، من ضمنها لوحة وجه "حميد"! هل كانت تنظر إليه، أم تنظر إلى وجه الطفل أعلاه، أم إلى الطفلة المرتدية "القرقوش" على رأسها في الأسفل؟! عادت للكرسي. غشاها صمت مهيب ولم تحرك ساكناً، ماعدا حركات عينيها تمشط كل زوايا المكان وتستقر في الحائط خلفي من جديد...

"لحظة!" رجوتها أن تظل كما هي! وسأبدأ في تنفيذ طلبها ورسمها في الحال. لم أسألها عمن أخبرها عن اهتمامي برسم الوجوه أو الأشياء القديمة، ولم أسألها عن نبرتها التهكمية! ولم أطلب رأيها في الحائط الذي يحوي تلك الوجوه ومن ضمنها "حميد"... فقط رحتُ أرسم: جلوسها المنكسر، نظراتها الزائغة في كل اتجاه، سرها الذي تخبئه خلف ستارتها وربما خلف لثمة وجهها... كل هذا لا يعوض ولا يفوت. بدأت الرسم على الفور.

لم تعد في اليوم التالي كما وعدتني؛ لكني أكملت اللوحة دونها. كان تكورها داخل الستارة، وظهور عينيها الغاضبتين الحائرتين الساخطتين الباحثتين عن شيء لم أعرف مصدره، إلهاماً قوياً لي. التصاق الستارة بجسمها والتصاق جسمها بالكرسي

جعلها في دائرة تشبه تكور بطن المرأة الحامل! يدها على خدها وظهور عينيها فقط كان يوحي بمخاض لجنين يريد الخروج ليرى العالم؛ فكانت اللوحة: "الرحم"، لتلك المرأة الغامضة التي رحلت ولم تعد بستارتها؛ لكن ما فعلته بي بسلوكها الغريب وبألوان ستارتها كان مدهشاً!

لفتت انتباهي الستارة وأنا أجول برفقة أمي في حارات المدينة القديمة أثناء زياراتنا لصنعاء طلبت من أمي أن تشتري لي واحدة، فابتسمت وقالت: "أين عتلبسيها؟". لم أجبها؛ لكنها فعلت. أدخلت بعض قطع منها في تصاميم ملابسي، وفي بعض قطع الديكور في شقة القاهرة. أصبحت أحب هذه القطعة الملونة التي يوحي اسمها بالستر. تبدأ من الرأس وتنسدل على كامل الجسد. النساء يتركنها متسربلة على أجسادهن فتضيف ألوان ملابسهن وألوان الستارة تلقائية الحياة وبهجتها. الفتيات يروق لهن لف أجسادهن داخلها فتزيدهن رشاقة، والبدينات يتحايلن بلفها بحيث تخفي تكور أردافهن الممتلئة. الأرامل والمطلقات يحرصن على دلال الستارة على أجسادهن، تضعها على رأسها وتأخذ طرفها وتعيده إلى مركز رأسها. تشدها من جيدها تاركة جزءاً من لون بشرتها أعلى نهديها ظاهرة. كبيرات السن يفضلن وضع "المغمق" الملون لتغطية كامل الوجه، ويعتبرن ذلك احتشاماً، رغم إغراء لونه الأحمر والأسود لاكتشاف الوجه المموه خلفه. الثياب تحت الستارة تقليدية؛ لكنها مثيرة: "زنة" مزمومة من الخصر، سروال قطيفة من قماش "الدمس"، أو سروال تعزي يكشف عن قدم ناعمة ونعيم لمن أراد أو فكر في الارتباط. كانت

كل هذه العلامات بريئة، تلقائية، تنبعث من أرجائها طبيعة الحياة، يفهمها أهل المدينة القديمة ولا يمانعونها أو يبدون اعتراضاً عليها. تربطهم مع بعضهم وشائج يمنية أصيلة تربّوا عليها، وربوا أولادهم وبناتهم عليها. لا يتلصص أهل المدينة على بعضهم البعض، بل العكس، يَغِيرون على بعضهم البعض في الفرح وفي الحزن. كل هذا سمعته من أمي؛ لكني لم أكن أستوعبه تماماً، ولم أجده إلا بشكل نادر لدى بعض كبار السن وعلاقتهم الإنسانية بنساء وبنات المدينة.

منذ عودتي إلى صنعاء لم أجد غير السواد مسيطراً على المظهر الخارجي للنساء. قالت أمي: "قبل سفرنا لم يكن هذا الكم من السواد قد سيطر". كان الشرشف أسود؛ لكنه قطعتان محتشمتان. ورغم تغطية الوجه باللثام أو اللثمة، إلا أنه تنسدل من أعلى الجناح قطعة قماش خفيفة وغطاء للوجه من أعلى يسمى "الخُنَّة". القطعة العُليا تسمى "الجناح"؛ لأنها تنسدل من أعلى الرأس وتتجاوز مرفق اليد بقليل، فتبدو كجناح الطائر. القطعة السفلى تسمى "الفوطة" وقد كانت إما مزمومة أو مبسطة القماش وتنسدل بأناقة من الخصر حتى كعب القدم. يظهر من تحت القطعة العليا ألوان زاهية لقميص ذي ياقة وأطراف وأكمام مميزة. قالت أمي إن بعض النساء في منتصف السبعينيات قمن بخياطة ألوان مختلفة للشرشف، كالأخضر والكحلي والأحمر القاني، محبة في اللون ومحبة في التميز.

طغى السواد حتى على نساء القرى، بعد أن كن يجاهرن بزينتهن وبألوان ملابسهن وبصبغ وجوههن بالأعشاب الطبيعية،

كـ"الهرد" و"الغَسل"، للحفاظ على بشرتهن من الشمس. عاد الأزواج والأبناء المغتربين من السعودية وفرضوا سواد اللون على نسائهم وبناتهم، أسوة بما شاهدوه هناك، ظناً منهم أنها سُترة! اختفت كل الألوان وساد لون واحد حزين.

عانيت من سيطرة ذلك اللون على النساء في بداية وجودي في صنعاء. أرتدي ملابسي الملونة كعهدي في القاهرة. كنتُ أبدو كسائحة أو كزائرة عربية أو غريبة. لم أشعر باحترام من حولي لما أرتديه، بل تلصص دائم إذا ما كنت أرتدي سروالاً تحت الفوطة، وإذا ما كان القميص ساتراً وغير شفاف، واسعاً وغير مفصل لما تحته.

الاختلاف يحتاج إلى مواجهة وتحدٍّ وقوة وصبر. لم يكن لي طاقة لكل هذا. ارتديت العباءة السوداء لأبدو منتمية للمجتمع، لا مختلفة عنه. تبهجني ألوان أعمالي، ويبهجني ما أبثه في عيون الناس من دهشة اللون، ولو بلوحة.

يثير في نفسي الاشمئزاز أحياناً نظرات التلصص المستمرة إلى المرأة وهي تسير في الطرقات، والشهوة المنبعثة من تلك العيون، رغم كل السواد الذي على جسدها. تهب الريح، يلتصق سواد ردائها بالجسد. تسير في الطرقات، يتجاوب نهدان بارزان وردفان كبيران في دورة حياتهما، تلاحقهما كلمات بذيئة دون ذنب اقترفته غير ما خُلقت عليه.

كيف ينجو هذا الجسم من مصيره؟! فهو: الجسم الفتنة، الجسم المحرض للرذيلة، الجسم العاري حتى لو كان مغطى من أعلى الرأس حتى أخمص القدم... كيف؟!

مر يومي عاصفاً، بإنجاز اللوحة وليس بالمرأة المحيرة. لا أريد معرفة من هي، أو حل لغزها! كأني أهرب من حقيقة لا أعرفها، ومن عالم غامض أنا في غنى عنه! اكتفيت باللوحة وبفكرتها التي هبطت عليَّ من وهج الذكريات. حديث جدتي "حليمة" عن ستارتها وتباهيها بلفّتها المميزة على جسدها أمام نساء الحارة، وحديث أمي عن شرشفها بعطفات القماش من خصرها حتى كعب قدمها، وإعجاب أبي بذلك الخصر النحيل الذي جعل جسدها ممشوقاً كالرمح، وحديث جدتي "مسرة" عن أمنيتها التي لم تتحقق لها: السير في أرجاء المدينة واضعة "النَّطلة" الزاهية الألوان، المنسدلة من أعلى رأسها حتى منتصف جسدها، وهي إلى جوار جدي، كما تفعل نساء الحبشة... كل ذلك كان لوحة، وكان ألواناً، وكان امرأة غامضة تُخفي شيئاً وربما تخفي عالماً تحت ستارتها الزاهية الألوان!

لم أُنهِ اللوحة؛ لكني شعرت بالتعب من مرافقة فرشاة الألوان لعالم من الذكريات التي تومض في ذهني تباعاً دون هوادة. فضلت إكمالها في الغد. غادرت المرسم لأجد مفاجأة لم أتوقعها! "حميد" يقف ملاصقاً لسيارتي، راسماً على شفتيه ابتسامة ثقة جعلتني لا أقاوم دعوته مجدداً إلى السير في حارات المدينة القديمة ومشاركته سحر غروب الشمس. قال: "سأكون دليلاً سياحياً مجانياً لوقت لا يعوض في صنعاء". نسيت وعدي لنفسي الليلة الماضية بقطع صلتي به. وضعت بعض أدواتي في السيارة وسرت مع "حميد" مبتسمة. خفقات قلبي الفرحة منذ رؤيته متكئاً على سيارتي تكاد تنط من بين أضلعي!...

لم أسأله عن سبب الدعوة، ولماذا أنا بالذات! كان هناك إشارات مني ومنه إلى تميز كل واحد منا تجاه الآخر. هذه المرة لم أعش معه ذكريات طفولته في المدينة كما فعل في المرة الأولى؛ لكني عشتُ معه المدينة التي يحبها والمدينة التي أبحث عنها. تماهيتُ معه في أزقتها وحواريها. لم أكن أسيرُ على قدمين، بل كنت أحلق فيها بجناحين كبيرين لا أرى لهما نهاية، يعصف بي سحر المدينة وحديث "حميد" وعالمٌ غامضٌ أنتظره بلهفة.

تمنيت لو أسير وأنا محتضنة يد "حميد"، أو على الأقل متأبطة ذراعه. تمنيت لو يبادر ويفعل ذلك؛ لكنه لم يفعل، وأنا أيضاً لم أبادر، ماعدا بعض التصادمات العفوية لجسدينا أثناء المرور في الأزقة المزدحمة والقريبة من السوق. كانت لذيذة ومربكة لي ولـ "حميد" أيضا. يعتذر عنها أحياناً، وغالباً لا يفعل. أيكون هذا هو شعور الحب؟!

منذ ذلك اليوم شعرت بقوة وعشق "حميد" لصنعاء القديمة. علاقة متجذرة في ذاته لدرجة تثير الاستغراب. يعرف جميع منازلها. لا يخفى عليه ما يدور داخل معظم جدرانها، من الرائحة المنبعثة منها ومن فتحات نوافذها ومن انسدال ستائرها... يُميز أشكال الحجارة الغريبة في الشوارع، ويثير كل شيء غريب تساؤلاً في ذاته، يردده بينه وبينه كلما مر وحيداً، ويحكيه لي كأنه يراه للمرة الأولى: "هذا حجر لا يشبه البقية في شكله أو طريقة قطعِه، وهذا يعني أنه جاء من محجر مختلف، أو من حجارة منزل آخر... هذه زخرفة مميزة تدل نجمة داود المتكررة فيها على أن صانعها كان يهودياً متمرساً في مهنته. هل تعلمي أن اليهود كانوا

هم أصحاب الحرف المميزة في صنعاء، مثل زخارف المنازل الجصية الخارجية والداخلية وأيضاً المشغولات الفضية؟!...".

وأكثر من ذلك ينتابه الحزن كلما مر من "مقشامة" يشوه لون مزروعاتها جفاف إحدى أشجارها، أو عبث البعض باقتلاع جذور منها. يرهقه ذلك الحزن الطافح من وجوه سكانها كلما تهدم منزل قديم أو باعه أصحابه لغريب من خارج المدينة. منازل صنعاء القديمة بالنسبة لسكانها هي جزء منهم. ستة آلاف منزل تتشابه ولا تتشابه في الوقت ذاته. نسيج محكم الصنع ومطرز بمهارة فائقة من الداخل ومن الخارج بنقوش بيضاء تحمي الأبواب وتكحل النوافذ وتؤكد وجودها حتى في الجدران الصماء. لا أحد يفهم دفء جدرانها وحميمة حجراتها ومطابخها وحماماتها غير السكان الأصليين لصنعاء، و"حميد" أولهم وأكثرهم شغفاً ومعرفةً وحباً...

هكذا هو "حميد"، لا يمل من تكرار وترديد ملاحظاته؛ من شدة ولعه ينسى أنه قالها لي في مرة سابقة، وأنا أسمعه بلهفة كأنها المرة الأولى.

"حميد" خرج منها بجسده فقط؛ لكن روحه فيها، تنشر ذراتها في أرجاء المدينة كل صباح وكل مساء، يُحدثها ويُناجيها كحبيبة في كل الأوقات، يمنحها دموعه ونواحه من الحياة في كل وقت يشعر بحاجته الماسة لذلك... يقول: "لولا صنعاء القديمة لذويتُ منذ زمن". هل هي طفولته التي عاشها وحيداً إلا من رفقة صباحات ومساءات المدينة بكل تفاصيلها المتناقضة؟! أم هي ذكرياته في ثنايا المدينة والتي يحيا عليها الآن؟! أم هي نساؤه

اللاتي لم يتكرر وجودهن خارج المدينة القديمة؟! أم أنها كل ذلك، كل ذلك؟!...

هجم الظلام علينا، كما هجمت عليَّ المرأة الغامضة المرتدية الستارة الملونة من جديد وبقوة! ترى من تكون؟!

***

IV

يقولون إن "المقهوية" لا تبيع شيئاً غير القهوة. هي أيضاً تقول ذلك، وتضيف: "وقليل من الدلال الرصين، لأضمن عودة زبائني".

في الظاهر للعيان كل شيء مباح، وفي الباطن هناك جسر تفاهم يدركه نوعان من الرجال: من حاول انتهاك دلالها ووجده عصياً، ومن قدس دلاله ووجده محبباً!...

"المقهوية"تستلم ثمن القهوة وتوزع حنينها الأنثوي مجاناً. تمنح العيون الجائعة مدىً واسعاً للغوص في أعماق الحلم اللذيذ دون أن تطلب شيئاً. تشيع زبائنها بنظرات منكسرة متمنية لهم السلامة ثم تنكفئ على حطام من الرغبات والأشواق على خرائب وجدانية تركتها جحافل التتار الذكورية وراءها صوب الإجهاز على خرائب أخرى.

حَوَتْ كل حب!...

يعرف "حميد" جيداً منذ بداية علاقتنا عطشي لمعرفة أدق تفاصيل صنعاء، لذلك كلما تحدث عنها عشقتها أكثر، وعرفتُ سر عشق والدي ووالده لها. عرفتُ أن ما فاتني في الغياب في تلك المدة الطويلة سأجده، وسيقدمه لي "حميد" على طبق من حب. التقطتُ من حديثه فن التعامل مع المدينة، مع حجرها وبشرها، ورحتُ أنسج لي عالماً يخصني في أعمالي عندما أرسم وأضرب بريشتي وألواني على القماش والورق. انتقلت من النقل الحرفي للمباني إلى رمزيتها للسكان ولعالم المدينة الخفي الذي يصل قلوب محبيها ويأسرهم شغفاً بمعرفة خبايا النفوس وبالذوبان في تفاصيل زخارف المباني وأركان الأزقة ودهشة الأسواق. أدهشني عالمها البكر والخصب الذي لم يشغل بال المهتمين كثيراً أو يتم تجسيده في أعمال تاريخية أكاديمية أو أدبية فنية. ما كان يحزنني ويبكيني ألا يعرف أهلها قيمة الكنز الذي بين أيديهم ليحافظوا عليه لهم، بل وللعالم.

"حميد" مُلهم في حديثه عن تاريخ صنعاء، مُلهم في سرد تفاصيل ذكرياته، مُلهم في تعابير وجهه وفي اختيار ملابسه... لو لم أكن فنانة لكتبت فيه قصائد شعر، ولو لم أكن شاعرة لكتبت عنه رواية؛ لكني فنانة لا أملك غير فرشاتي التي حاولت ألا أفوت من "حميد" شيئاً إلا وأعبر عنه. شعوره بذلك كان مصدر خلاف بيننا في ساعات الصفاء. يقول بأني مشغولة بالمدينة وبتفاصيلها أكثر منه! لا أعرف إن كان ما يقوله صحيحاً؛ لكن صنعاء و"حميد"

لهما الأهمية ذاتها بالنسبة لي. "حميد" والمدينة هما شيء واحد، في ذهني وفي لوحاتي!

لا يساوي حب "حميد" لوالده إلا حبه لصنعاء. زياراته شبه اليومية لها جعلته يرصد تغيراتها سريعاً. يقطر قلبه دماً كلما تهدم فيها بيت أو يبست إحدى أشجار "مقشامة" خضراء، أو استخدم بعض ساكنيها موادهم الحديثة القبيحة لإغاظة تقليديتها الأصيلة.

يقول "حميد" إن عصرها الذهبي كان بعد تسجيلها في قائمة التراث العالمي 1971م. وجدت الرعاية والحب والدهشة المستمرة لمبانيها من الأهالي ومن المنظمات الدولية ومن الحكومة ذاتها. رصفت شوارعها وتم ترميم بعض منازلها وزخارف واجهاتها. يعشقها السياح من بقاع الأرض يهربون من برد شتائهم لدفء المدينة وتاريخيتها.

لمعت الدموع في عيني "حميد" ونحن نجول في صنعاء القديمة بعد أمطار يونيو 2009، متأثراً بما حدث لأكبر "سمسرة" فيها والتي كانت بنكاً لحفظ المال من الذهب والفضة والبضائع، بعد أن تم بناؤها في العام 1656 م بأمر من الأمير محمد بن الحسن، ولذلك سميت باسمه. على بوابة "السمسرة"، ونحن واقفان أمامها، رجل شرطة يحرس أطلالها المهدمة. عندما سألت "حميد" عن السبب، راح يشرح لي حكاية يتداولها قدماء سكان صنعاء، لا يعرف هو ذاته صدقها من عدمه. قال: "عندما قامت ثورة 1948، التي انتهت بقتل الإمام يحيى حميد الدين، أباح ابنه الإمام احمد يحيى حميد الدين صنعاء للقبائل المجاورة لها، فدخلتها وسلبت ونهبت الممتلكات العامة والخاصة، لذلك اتجه أصحاب صنعاء

إلى سمسرة محمد بن الحسن، وتحديدا للبئر التي تتوسطها، وألقوا فيها بكل بمحتويات السمسرة من أموال وأشياء ثمينة، إضافة إلى أموالهم وممتلكاتهم من النقود والذهب والفضة، حتى لا تأخذها القبائل. ردمت البئر وأصبحت السمسرة ذات قيمة عالية، دون معرفة صحة هذه الحكاية من عدمها، فلم يتم حل أمر ملكيتها، وانتهى الأمر بوضع حارس عليها كل هذه المدة الزمنية، لتحرم من ترميمها أو حتى الحفاظ عليها، فما فيها من زخارف في أدوارها الخمسة وفي فنائها الداخلي الفسيح، وأيضا في واجهتها الرئيسة الجنوبية المطلة على مركز السوق لا يقدر بثمن.

لم يهتم أحد بترميمها، رغم الفرص الكثيرة للمساعدات المالية الدولية لحماية المدينة. لن تتكرر هذه "السمسرة"، ولا روعة زخارفها التي تلاشت، ولا دقة بنائها الذي أصبح أنقاضاً. كيف يمكنهم إعادة بنائها كما كانت عليه، حتى لو تم توثيقها بالصور والرسومات المطلوبة؟! كيف سيعيدون روحها التي فقدتها وجمالها الذي خبا بفعل فاعل؟!".

انهمرت دموع "حميد" لأنه شعر أن صنعاء القديمة التي يعشقها لم يعد يحبها ساكنوها، هجروها بحثاً عن راحة المنازل الحديثة، أهملوها، لا قوانين تساعدهم على الاحتفاظ ببريق جبسها الأبيض وهو يكحل النوافذ والأعتاب، أو "ياجورها" الأحمر القاني وهو يعانق السماء بزخارفه العمودية الباحثة عن الحرية في أعالي المنازل.

شغلني الإهمال الذي لم يعد يخفى على أحد. "سمسرة محمد بن الحسن" ليست الوحيدة، وأغلب "سماسر" المدينة أوشكت على

الاندثار والانسلاخ عن تاريخها التليد، فقدت وظيفتها الرئيسية كـ "خانات" تخدم وتوفر متطلبات المسافرين والوافدين إلى المدينة مع أمتعتهم وحيواناتهم ومحاصيلهم الزراعية ومنتجاتهم اليدوية لبيعها في "سوق الملح"، لتتحول إلى محلات تجارية تبيع مختلف البضائع.

دموع "حميد" أمام "السمسرة" وقهره عليها ولَّد في أعماقي رغبة جامحة في تخليد تلك اللحظة؛ فسارعت لرسم لوحة "السمسرة"، حاولت استرجاع تاريخها وجمال تصميمها وزخارفها وروح من سكنوها.

تغنى "حميد" كثيراً بصانعة القهوة في تلك "السماسر"، واصفاً طريقة جلستها على "دكة" مرتفعة، وأمامها أواني صنع القهوة: "كتالي" ترسيخ "القشر" و"جزوات" متعددة للشاي والبن. أصبحت "المقهوية" رمزاً للمرأة التي لا يستطيعون تحديد هويتها: هل هي اللعوب بحكم مهنتها في هذا المكان الذكوري الذي نادراً ما تدخله امرأة؟ أم هي المرأة الجادة التي يجب أن تظهر الصرامة حتى لا تنهشها الألسن والأيدي المتعاقبة على السمسرة؟!

بدأت أضرب بفرشاة ألواني لوحة جديدة، تضج في مخيلتي كلمة محيرة ومثيرة للفضول: "المقهوية"؛ "المقهوية" وهي تعتلي مكانها الأثير في ذلك الركن من "السمسرة". عشت رسمها شهراً ممتعاً برفقة ألوان زيتية نقية تُظهر لون "ياجور" البناء الأحمر القاني، وزخارف فتحات النوافذ الضيقة المطلة على الشارع من اللون ذاته، مع بعض تكحيل لها من الخارج باللون الأبيض. شعرت أن لوحة السمسرة بسيطة ومعبرة، فناؤها الداخلي تطل

عليه غرف الأدوار العليا التي غالباً ما تكون اثنين أو ثلاثة، في حين يخصص الدور الأرضي كمخازن للبضائع والحيوانات.

تستقر "المقهوية" في "الدكة" على يمين المدخل. مكان مميز، يراه الداخل والخارج من "السمسرة". ارتفاع "الدكة" بدرجتين عن الأرض يجعل "المقهوية" واضحة للعيان. ترتدي ثيابها العادية التي لا تختلف عن ثياب باقي النساء: "زنة" وسروال، تغطي اللثمة وجهها، ويعلو رأسها غطاء يسمى "الفوطة". ألوان "الفوطة" متعددة؛ لكنها غالباً قاتمة، عكس "الستارة". تنسدل من الرأس حتى تغطي اليدين. انسيابها الحر لا يعيق حركة "المقهوية"؛ لكنه يشعرها بأنها متسترة بها حتى لو لم تستر شيئاً، بل تزيد ألوان ملابسها اكتمالاً...

اقترب "حميد" من اللوحة بعد انتهائي منها. راح يتلمسها بحنان، كمن إلتقى عزيزاً بعد طول غياب. قال بهدوء: "أعدتِ الحياة للسمسرة"، وعاد يتلمس الرجال المطلين على الفناء الوسطي، والحمار الوحيد في أحد أركان الفناء والقريب من الأبواب الكبيرة لمخازن البضائع. شعرت بالغيرة وهو يمر بأصابعه على "المقهوية"، وبالذات على العينين والوجنتين المغطاة بلثامها الأسود، وكأنَّ الحياة نابضة في عروقها. طلبت منه بحدة لم أستطع إخفاءها ألا يستمر في ذلك المرور بأصابعه، لأن اللوحة لم تجف بعد من الألوان الزيتية! رمقني بامتنان وابتسامة خبيثة!...

اعتراني فضول شديد لمعرفة ما الذي دار في ذهن "حميد"، ومع ذلك لم أسأله! وهل فعلا أعدت الحياة لـ"السمسرة" كما قال، أم أعدت الحياة لـ"المقهوية"؟!!

لوحة سور صنعاء القديمة حيرتني فكرتها كثيراً! فـ"حميد" كان مبعثر العواطف، مشتت الأفكار، وحزيناً. فكيف يمكن أن أُعَبِّر عنه وهو يضم ذراعيه حول صدره بحثاً عن الدفء كلما ذكر سور المدينة القديمة؟! لم يكن السور حامياً فقط، بل كان مانحاً لجسدها الدفء ولروحها الأمان، بالتفافه حول كامل مبانيها، بجداره الذي تجاوز عرضه المترين والنصف، وبأبراج الحراسة التي يتناوبون عليها فكانت "نوب" حراسة شديدة لا يمكن اختراقها، وبأماكن تصريف المياه إلى "السايلة" حتى لا تؤذي نسيج المدينة. لا يمكن لكائن من كان، وعلى محور حركة طريق التجارة قديماً، أن يتجاوز ليلها ويتسلل إلى داخلها بعد إغلاق بابيها الرئيسيين: في الجنوب "باب اليمن"، وفي الشمال "باب شعوب". قانونها يحمي كل من لاذ بدفئها ودخلها قبل غروب الشمس. أما بعد الغروب فليتحمل صاحبه صرير الرياح ونباح الكلاب خارج السور. بواباتها الخمس الأخرى: "باب خزيمة"، "باب الشقاديف"، "باب السبح"، "باب ستران"، و"باب شرارة"، والتي استحدثت في العصور المختلفة، لم تقاوم، فاندثرت ولم يعد لها غير أسمائها وبقايا ذكريات.

قال "حميد" والأسى يقطر من كلماته: "رأيتهم بعيني ينهشون السور بمعاولهم في الجانب الغربي منه. صرخت في وجوههم، فاعتبروني طفلاً مجنوناً. قلت لهم: خلف ماذا سنختبئ

أنا ورفاقي عندما نلعب (غُمى)؟! وعلى ماذا سنتسلق لنمشي فوق بعض أجزائه العريضة عندما نلعب ملاحقة فوق السور؟! وكيف لنا أن نشعر بالأمان في ليلها الدامس بعد المغرب إذا تهدم السور؟!... لم يسمعني أحد، واستمروا في التهديم.

كنتُ أجري لاهثاً إلى جانبه الشرقي وأدخل من باب القصر وأتلمس السور مازال قائماً. أخترقُ قلب سوق الملح لأصل إلى باب السبح في جانب السور الغربي، وأسير بمحاذاته إلى أن أصل باب شعوب في الجهة الشمالية وأتنفس الصعداء: الحمد لله مازال موجوداً! أخترق قلب المدينة من جديد وأصل إلى باب اليمن في الجهة الجنوبية وأمشي بمحاذاة سوره للتأكد أيضا من وجوده، أعود إلى هؤلاء النباشين في جسد السور وفي روحي معاً وأرجوهم أن يتوقفوا عن هدمه؛ لكنهم مجدداً لا يسمعوووني...".

يواصل "حميد" بأسى بالغ على ملامحه: "نبتت عوضاً عن السور في ذلك الجزء الغربي مبانٍ من الخرسانة. اعتقد الناس حينها أنهم بذلك يلقون بتاريخهم الأسود الذي عاشوه قبل قيام ثورة سبتمبر وراء ظهورهم ويعوضون حرمانهم بمواد بناء لم يعرفوها وفضاءات حلموا بالعيش بين جدرانها طويلاً...

انتهى السور، تهدم الجزء الغربي، وأصبح اسم الشارع الملاصق للسور: شارع على عبد المغني، والميدان المقابل تحول اسمه من: ميدان شرارة، الذي انطلقت منه شرارة الثورة، إلى: ميدان التحرير، تأثراً بالجيش المصري الذي هب لمساعدة اليمن في الحفاظ على ثورتها بما يزيد عن سبعين ألف جندي وضابط وصف ضباط. استمر الإهمال للسور ولبواباته الأربع الشهيرة في

الجزء الشرقي للمدينة: باب السبح غرباً، باب شعوب شمالاً، باب ستران شرقاً. وصمد أحدها بالترميم، وهو باب اليمن جنوباً. كما صمد جزء من سورها الملاصق له شاهداً على أنه كان للمدينة سور ولأهلها كان غطاء دافئ من طين! اما السور في منطقة "بير العزب" غرب صنعاء فقد تهدم تماما كما اندثرت تسميات بواباته "باب الروم" و"باب عبيلة" و "باب السهاري" وفي جانبه الآخر من قاع اليهود صمدت تسميات البوابات امام تهدم السور "باب القاع" "باب البلقة"...

من كل هذا الألم الذي يغشى "حميد" عن السور، أسميت اللوحة "صرخة"، لطائر له وجه طفل يحلق بجناحيه على المدينة التي تناثرت أجزاء سورها للخارج. كل ريشة من جناحَيْ الطائر تسد الفراغات المبعثرة حجارتها ليحمي ما بداخل المدينة من مبانٍ وأطفال. رأى "حميد" اللوحة واكتفى باحتضان ذراعيه طلبا للدفء الذي كان. اجتهد في تخيل وجه الطفل الذي كان أقرب ما يكون لوجهه هو؛ لكن بملامح طفولية حاولت تخليدها! لم يعلق عليها، واكتفى بتلك الدموع التي تحجرت في مآقيه حزناً على ما كان!

خرجنا بعدها في جولتنا وقت الغروب في أرجاء المدينة، تسبقنا لهفة اللقاء الذي لا نعرف بماذا سيختلف عن سابقه وماذا سيحمل لي من جديد "حميد"!

***

إنه الحب، هذا ما أشعر به تجاه "حميد". لن أقف ضده. لن أقاوم ما يقودني إليه قلبي. هل أنتظره أن يبدأ؟! أم أنه ينتظر أن

أفعل؟! لا يهم! لا أجد تفسيراً لما يفعله "حميد" معي إلا أنه حب. لا يمكن أن يكون هناك إلا معنى واحد للمسة يده التي أنهى بها لقاءنا اليوم، ولا يمكن أن يكون هناك إلا معنى واحد لاهتمامه بي.

أنا أحب إذن أنا أنثى. كلمة تخترقني للتو! لم أشعر بها إلا في تلك اللحظة التي احتضن فيها "حميد" يدي. هل تأخر شعوري به كل تلك السنين؟! الغربة على ما يبدو أجلت حياتي، وربما أنا من أجلها! كان هناك أمل لم يفارقني بعيش كل ما أجلته الغربة، في وطن حلمت به وبالعيش على أرضه أكثر من أي شيء. أجلتُ كل أحلامي حتى وطأته قدماي. لا يهم! ستتحقق أحلامي الآن مع "حميد" ولـ"حميد" في آن.

ما يعتريني من شعور وأنا برفقة "حميد"، ورفقة ذكرياته في المدينة وحديثه عنها، لا يمكنني الحديث عنه أو وصفه. اكتفيت بصمت أعماقي وبـ"حميد". منذ موافقتي على تكرار الخروج مع "حميد" للسير في أنحاء المدينة وهو كل مرة يأتي محملاً بالهدايا البسيطة المعبرة عن شيء في داخله. لم أكن أجد في الغالب لهداياه معنى؛ لكنها كانت تبهجني وتشعرني بمدى اهتمامه وتفكيره بي. علبة صغيرة الحجم مُذهبة تصلُح لوضع هدية بداخلها؛ لكنها كانت فارغة إلا من قصاصات أوراق بيضاء مطوية بحجم العلبة الدائرية ناصعة البياض. تمثال فائق الحسن لامرأة هندية رشيقة القوام جميلة تعزف على القيثارة، قال إنها تشبهني وقد جلبها من إحدى زياراته خارج اليمن، لكن لا يتذكر من أين! مؤكداً أنه لم يزر الهند. مزهرية من النحاس لا تتسع إلا لوردة واحدة. لوحة حائطية بيضاوية الشكل لورود ملونة زاهية على خلفية سوداء.

إناء عميق من الكريستال يحوي أعشاباً مجففة ملونة... سألته عن سبب اختيار تلك الهدايا ذات مرة فقال: "أُريد محاصرتك في المنزل، أن أكون معك في كل مكان تكونين فيه، في حُجرة نومك، في صالة الجلوس، في المطبخ، وعلى رف المكتبة، وحتى في الحمام...". بعد هدايا الحصار تلك تغيرت هداياه لتصبح: سواراً من الفضة تزين أطرافه زخارف من النحاس؛ وعندما قلت له: إنه كبير جدا! قال: "إنه لا يُلبس في المعصم لكن في الزند!"، وأردف: "هل هذا حجم زندك؟". أربكني سؤاله ولم أُجب! طلب أن يلبسني إياه وأن يضعه على زندي. اندهش وأنا أرفع قماش كُم الذراع ليضعه بنفسه على زندي. وصل أعلى المرفق وثبته وقال: "يكفي!" لكن موضعه أرفع من ذلك بقليل!

سرت قشعريرة لذيذة في جسدي وهو يرفع السوار قليلا قليلا حتى توقف. كلماته تدغدغ أذنيّ وهو يقول إن جسدي ناعم وبشرتي بيضاء عكس ما يظهره لون يدي ووجهي.

اليوم التالي كان في زيارتي في الدور الأول. يعلم "صالح"، الموظف في المرسم والمكلف بالبقاء فيه حال غيابي، أن لـ"حميد" إذناً بزيارتي متى أراد، وأيضاً بالتجوال في المرسم متى شاء. كنتُ منهمكة في الرسم حتى شعرت بحركة من خلفي. قال إنه يرقبني منذ فترة ولم يشأ أن يقطع انسجامي في العمل. كان في يده علبة زجاجية أنيقة، في جوفها عقد أحجار كريمة من حجر الجاد. ترى ما هي الطاقة الإيجابية التي يريد "حميد" أن تكون لي؟! يعلم -وأنا أيضاً- أن حجر"الجاد" يمد بعض البشر بالطاقة الإيجابية،

فيمارسون أعمالهم بشكل أفضل وبجهد أكثر دون الشعور بالملل أو بالتعب.

نظراتي للعقد كانت توحي بمدى إعجابي به، ومدى امتناني لتفكيره. أزلت عن رأسي "المقرمة" التي أغطيه بها، وبدأت في وضعه على عنقي. طلبت منه إقفاله من الخلف، ففعل وعلامات إعجاب وربما دهشة بادية على وجهه. ظل مبحلقاً فيَّ للحظات. صمته ونظراته تحرض على سؤاله عن سببهما؛ لكني لم أفعل. رفعت شعري إلى أعلى متناسية إعادة "المقرمة" عليه، وانهمكت في هندمة فُرش الألوان وإعادة بعض أغطية الألوان التي كنت أرسم بها. اقترب مني، وقال: "تغير شكلك تماماً؛ أنت أجمل بكثير. شعرك القصير مذهل حتى منتصف العنق، وجيدك ساحر...". اقترب مني أكثر. طواني بين ذراعيه. لم أرفض ولم أقاوم. خفقات قلبه سريعة، أما أنا فشعرت بها من شدتها ستنفجر. يداه تتلمسان وتنسدلان على ذراعي، تتسلل إلى خاصرتي، تستكين للحظات قبل أن تنزلا بخجل إلى أسفل ظهري. تعاودان الصعود إلى الأعلى بالانسيابية ذاتها... "ما أروع قوامك!"، قالها بهدوء. صمتنا، لا شيء يعلو غير أنفاسنا اللاهثة على استحياء، يغشانا جلال اللحظة وتفردها، لي على الأقل.

كنت بين يدي صنعاء في تلك اللحظة. يده التي راحت تتغلغل بين خصلات شعري أعادتني إلى حنان أبي وجدتي "حليمة" وجدتي "مسرة". شعرت بحنان "حميد" ولم أشعر برغبته. طمأنينة خدرت جسدي وعقلي معاً. نشوة غامرة مُداهمة. لم

أتحرك. جذبني إليه أكثر. ارتفعت يدي اليمنى لتحط على صدره، واستكان رأسي على موضع قلبه.

ما الذي أصابني؟! لا أعرف! لكنها المدينة مجدداً تمنحني كل ما حُرمت منه في طفولتي، وتفتح أبوابها لاستقبالي. رائحة "حميد" تتسلل إلى مسامي، تخدر حركتي...! لماذا لا يتوقف الزمن في تلك اللحظة؟! لماذا لا يأتي أبي ليرى أنني الآن أمتلك المدينة التي حرمني منها؟! لماذا لا أعود إلى تلك اللحظة التي غادرت فيها صنعاء مع أبي وأمي وشقيقي، وأبدأ من جديد مع "حميد" ومن أجل "حميد" وفي نعيم "حميد"...؟!

بادر وتحرك. أمسك بذراعي ونظر في عيني وهمس بعذوبة تدفقت من صوته: "كم أنت جميلة! أنا مسحور بقَصة الشعر القصيرة وذلك الجيد الخلاب للفؤاد والقامة التي تشبه الرمح... طواني أكثر بين ذراعيه راح يدندن: "معشوق الجمال؛ نهب فؤادي جماله"، ومن ثم همس: خذيني صبحيتي على غرة من شجوني وأحزاني. أحبك يا زهرة القلب ويا نجمة في الفضاء المعلق مثل فتى قروي فتنته المدينة وبهجتها. أنا في مقام الحب، بل هو مقام الوجد الذي سيبعثني للحياة من جديد صبحيتي!".

كنتُ في خدري كالدمية. شد ذراعيه ليبعدني عنه قليلاً كمن يرى لوحة وأردف: "أين كنتِ من زمان؟!... كنا سنحيا حياة أخرى وعالماً آخر. أنا معك كائن لم يعش أي حياة! أحبك صبحيتي، بل أعشقك بجنون!"، وغادر دون أن يزيد!

أصابني الوجوم للحظات، ألقيت بجسمي على أقرب كرسي! لم أسمع كلاماً كهذا طيلة حياتي! ولم يدلع اسمي أحد كما ناداني

"حميد": "صبحيتي"! ولم يتجاوب جسدي بكامل تفاصيله ورغبته إلا الآن! شعرت بالعرق البارد يتصبب من أعطافي. ها أنا في مقام الوجد كما قال "حميد". عادت لي تلك الصورة الأولى التي تمنيتها عند رؤية "حميد" للمرة الأولى. فعلا لقد حططت كحمامة بين ذراعيه، وعشت أحلى لحظات عمري!

***

V

وقيل إن الاغتسال بمياه الحمامات التركية العامة في مدينة صنعاء القديمة يقي من الأمراض، وأن البخار المنبعث من حوائطها الحجرية يمد الجسد بقدراته الليلية الخارقة للنساء والرجال، شريطة التناوب عليها من شمال المدينة إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، مرة كل شهر. سخونة جسدك وأعضائك الحميمة ينبت منها الكثير من الصبية الأقوياء والصبايا الفاتنات بعد طول انتظار...

"النساء هن حق الرجال"!...

اعترف "حميد" بحبه لي. لم ينتظر رداً مني! كأنه كان على يقين من مبادلتي له الشعور ذاته! كنتُ كذلك؛ أبادله حباً انتظرته دهر وشوقاً لم تخفه ملامح وجهي ورغبة فضحتها عيني. بعد تلك الزيارة الحميمة للمرسم دعاني لقضاء فجر صنعاني برفقته. لم أرفض الدعوة، رغم توقعه ذلك، ولم أفكر بما سيتبادر إلى ذهنه من قبولي إياها. قرر أن نلتقي بعد صلاة الفجر حتى الضحى.
مازال "حميد" يتحدث بتلك المواقيت التي كانت دارجة في طفولته وتَعَوَّد عليها. سرد لي كثيراً عن قوانين أُمه في طفولته ألا يتأخر في عودته إلى المنزل بعد صلاة العِشاء، عدا شهر رمضان مسموح له السمرة بعد صلاة التراويح بساعة. يذهب مع أصدقائه لِيُمسْوا على المنازل، يقفوا أمام أبوابها ويرددوا: "يا مسا جيت أمسي عندكم، يا مسا وأسعد الله المسا..."، يمنحهم ساكنوها فائض ما لديهم من مال أو حلوى أو خبز، تغمرهم نشوة تلك الهدايا، يضعها كل واحد منهم في "خريطته" المصنوعة من القماش ويعلقها على ظهره كحقيبة ثمينة، يواصلون سيرهم تسبقهم ترنيماتهم من جديد إلى بيت آخر وعطايا أخرى... "يا مسا جيت أمسي عندكم، يا مسا واسعد الله المساء...".
عشتُ كل ذلك من ذكريات طفولة "حميد"، كأني كنت رفيقته فيها، أمسك بيده وأمشي معه في الأزقة وأدورُ معه في كل الحارات. أحياناً يحدث أن أعبر بعضها فيغشاني ما يشبه اليقين أني كنتُ فيها، أني مررتُ بها، أني كنتُ جزءاً من ساكنيها، وربما

كنت حجارة منازلها أو أوراق أشجارها! أصبحتُ ألملم ذاتي في هذه المدينة من شتاتي وأحزاني، أتحول إلى كائن أسطوري يزداد قوة كلما توغل في خبايا المدينة وأسرارها، يحتويها من طرفيها بجناحيه الكبيرين، يتعربد من أعلاه تاركاً عينيه الجاحظتين تتجولان بنشوة في أعطاف مبانيها العالية...!

اليوم سأعيش فجراً صنعانياً برفقة الرجل الذي أيقنت أني أحبه. سأعترف له بذلك كما فعل. سأقول له إن ما نحن فيه من شوق ولهفة لنبقى معاً، لنحيا معاً تفاصيلنا الصغيرة وبعض الجنون اللذيذ هو الحب الخالص الذي بحثت عنه طويلاً والذي لم أعشه كل تلك السنين ووجدته معه فهو له.

أردف حميد بعد دعوته: "بيتنا في حارة الفليحي مازال قائماً، أقضي فيه على الأقل يوماً في الأسبوع. إذا أردنا التقاط الأنفاس والتمتع بالهروب من شدة شمس ما بعد الضحى يمكننا أن نذهب إليه!". فاجأني بقاء ذلك المنزل، وعدم إخباري كل تلك المدة. لم أعُلق، واكتفيت بإيماءة من رأسي التي لم تحدد قبولاً أو رفضاً!

عدت إلى المنزل مبتهجة. إقناع أمي والاعتراف بدعوة "حميد" أسهل من البحث عن عذر للخروج في تلك الساعة المبكرة من الفجر. أمام إصراري وشعورها بتلك اللهفة التي تعتريني ولا أستطيع مقاومتها تجاه المدينة وكل ما يتعلق بها، وافقت على مضض. لا أتذكر أنه غفا لي جفن. أنهيت تجهيز ما سأرتديه. اهتممت أكثر بتنميق حاجبيَّ من الشعر الزائد، وبطلاء أظافر يديَّ وقدميَّ باللون الأحمر. سأرتدي "صندل" على غير العادة.

كان آخر ما توقعته هو تأخر "حميد" عن موعده عشر دقائق. اعتقدت لهفته للقاء مثلي... اعتقدت فرحته باليوم الذي وافقت على قضائه معه يفوق فرحتي... اعتقدت أشياء كثيرة انتهى بها الأمر إلى خيبة أمل كبيرة! اعتذاره كان بارداً ومحيراً. قال إنه لم يتوقع حضوري أبداً في تلك الساعة المبكرة من الفجر؛ رغم موافقتي! لم أشأ تعكير صفو اليوم. قبلت اعتذاره، وسرتُ معه. كنتُ مُحلقة في المدينة بجناحيْ حب لها ولفجرها، لعجائزها من الرجال والنساء وهم يتسابقون على الاستيقاظ باكراً والتمتع بالسير في المدينة دون ضجيج المارة أو لعب الأطفال. المدهش هو شعورهم بحقهم في التمتع بمدينتهم وأوقاتها ولن يفرطوا فيه. استقبلوا خطواتي مع "حميد" باتجاه "سمسرة وردة" لتناول البُن الصنعاني مع الحليب بمحبة وترحاب. أغافلهم بالسلام والابتسام، وأستدرج حديثهم عن ذكرياتهم السابقة في المدينة وأحلامهم المستقبلية لها، فأستكمل ما لم يقله لي "حميد" وما لم يعشه: من تغضنات وجوههم ومن بريق أعينهم عندما تداهمهم أحداث نبتت فجأة في جدار الذاكرة.

"مجنونة الفجر"، هكذا يطلقون عليها، مرت من أمامنا وهي تطيل النظر باتجاهنا أنا و"حميد" قائلة: "النساء هن حق الرجال". مضت من أمامنا دون أن يعلق على حديثها أحد، وكأن ما قالته هو حكمة سمعوها من قبل أو تعودوا على سماعها منها. كان جسدها نحيفاً، ترتدي "جاكيت" طويلاً لونه بني داكن وعليه طُبع كثيرة أشد قتامة، متسخة ببقايا طعام. على رأسها غطاء لم يُخفِ كامل شعرها الذي اختلط نصفه الأبيض مع نصفه الأسود، حذاؤها كان

مهلهلاً. قدماها شديدة الاتساخ تُفصحان عن إهمال لهما ولنظافتهما. لم يعلق عليها "حميد" أيضاً، مثل كل الرجال حول "السمسرة"! هل يعرفونها؟! هل تمر بهم كل يوم؟! هل يخفون شيئاً؟! لا أعرف، ولم أسأل. المدينة مليئة بأسرارها كما يبدو! آثرت الصمت وشرب القهوة في هدوء قبل أن تتوارى "مجنونة الفجر" عن الأنظار.

أخرجت من حقيبتي بعض حبات من التمر لتناولها مع القهوة. ناولت "حميد"، الذي آثر الصمت مثلي. التقفت من يده بذور التمر ورحت أمصها باستمتاع. اتسعت حدقتا عينيه دهشة، وأثار ما فعلته إعجاباً عبر عنه بطلب استرجاع بذوره وبذوري من فمي وأدخلها فمه ليفعل ما فعلته. لمع في عينينا اخضلال دموع صامتة حاولنا إخفاءها لرغبة لم تكتمل، وكأنا نفكر في الشيء ذاته في تلك اللحظة الغامرة لنا بجلالها!

مدهشة صنعاء في هذا الوقت! تغسل ما في النفس من هموم بنورها وببهاء وجهها في ذلك الفجر. كنتُ برفقة "حميد" كأني أحلق، لا أمشي. نصطاد معاً دهشة المدينة بخطواتنا من الأزقة ومن وجوه العابرين ومن نظرات الفضوليين المطلة علينا من شقوق المنازل ومن نوافذها. التقطنا أنفاسنا بعد السير الهلامي في الأزقة على "دكة" صغيرة تتسع لجلوس اثنين ملتصقين أمام أحد منازل "حارة معمر". سرى في جسدي دفء، خدر لذيذ، و"حميد" يزيل غبار "الدكة" ويدعوني للجلوس أولاً. جلس بعدها متعمداً الالتصاق بجسمي. نور الشمس في تلك اللحظة على وجه "حميد" كان أكثر إشراقاً من وجه المدينة المتثائبة والقائمة من

كسلها للتو. شدة صفاء لون عينيه العسليتين جعلني أرى نفسي شديدة الوضوح في المركز، متربعة عرش قلب "حميد".

هل أحلم؟! أم أن ما أنا فيه حقيقة أجمل من الحلم؟! "حميد" يلتصق بجانب جسمي الأيمن الرابض على "الدكة"، يحدثني عن حبه للشمس وللصباح، ولاسمي: "صبحية"! طلب مني السماح له بمناداتي "صبحيتي" كلما كنا معاً! يحرك قدمه اليسرى لتلاصق قدمي اليمنى. يلقي بعبارات غزلية جميلة على استكانة قدمي على ذلك "الصندل" ذي اللون الأسود الذي لم يخفِ جمالها وطلاء أظافرها الأحمر. رائحة خفيفة عبقة من عطر "حميد" العبق أهدتني إياها نسمة هواء رائقة سرت في أوصالي نشوة خجلة جعلت سؤالي يتكرر: هل هذه لحظات حلم أم حقيقة؟!

هِمنا في أرجاء المدينة على غير هُدى. ربما لو تحدثت سينزع "حميد" يده من يدي! وربما يبتعد قليلاً عن السير بمحاذاتي! هذا ما لا نريده، كلانا. آثرنا السير والصمت معاً في الأزقة والحارات، مررنا بـ"المقاشم" ووقفنا لسماع طيورها وهي تغرد في صباح ربي الباكر... بدأت الحياة تدب في أوصال المدينة. شعرنا بالجوع بعد تمشيط المدينة سيراً على الأقدام. توجهنا إلى "سوق المِلح". يسخر "حميد" مني وأنا أصحح له إسم السوق واقول إنه "سوق المُلح" وليس "سوق الملِح". "حميد" يأكل كباب "القنم" بلذة مع "السحاوق" و"الكدم"، وأنا فضلت "الزلابيا"؛ لا أتخيل كيف يؤكل اللحم من صبح الله!

داهمتني حيرة ودهشة و"حميد" يصف شعوره بالسعادة، وليس بالغيرة، والجميع يرمقني بنظرات إعجاب في السوق. يعتبر

ذلك حُسن اختيار للمرأة التي يقضي معها صباحه. قال بزهو: " لن أسخر منكِ مجدداً، الآن أشعر بأنه فعلا "سوق المُلح" كما أسموه في الماضي، وليس "سوق المِلح" كما تم تحريف التسمية في الوقت الحاضر، وأن وكل شيء فيه جميل ومليح، وبوجود صبحيتي فيه ومعي أصبح أكثر ملاحة...!". ابتسم منتشيا قبل أن نواصل سيرنا!

هكذا تحولت إلى رفيقة للمباهاة! ما بال هذا "الحميد" يزداد غموضاً كلما اقتربت منه؟!

شعوري بالاستياء من حديثه الغريب عبرت عنه بطلبي مغادرة السوق حال انتهائه من الأكل؛ لأني أريد التوجه إل الحمام التركي. وافق على الفور وسألني عن اسم الحمام، وعندما أجبته وقلت: "الجلاء"، ابتسم بخبث وصحح لي أن الحمام اسمه "الجِلا"، بكسر الجيم وإهمال الهمزة، كما ينطقها أهالي المدينة، وليس "الجلاء" بفتح الجيم وإظهار الهمزة كما فعلت. كنتُ قد قرأت أن الحمام منذ بنائه قبل القرن العاشر الهجري كان خاصاً باليهود الذين يسكنون الحي شرق "السايلة" قبل جلائهم إلى حي "قاع اليهود" في حكم الإمام المهدي أحمد بن الحسن، ليُعرف الحي من يومها بـ "حي الجلاء".

طلب مني "حميد" طلباً غريباً وهو يبتسم: "انظري إلى سقف الخزانة التي ستغتسلين فيها، تحديداً تلك الفتحات الصغيرة المتخللة استدارة القبة لتسرب الضوء لخزائن الحمام المتعددة!". قهقه ببراءة واستعاد تاريخ تلك اللحظات وأكمل ببهجة: "كانت تلك الفتحات تسمح بنفاذ الضوء ولا تسمح بالرؤية إلى الداخل،

وهي من حجر القمرية الشفاف، وعندما تم استبدالها بالزجاج أصبحت تسمح بالرؤية إلى الداخل. في الثانية عشرة من عمري قررت الانتقام من نساء الحمام بعد أن تم حرماني من الذهاب مع أمي بعد بلوغي الستة أعوام حتى لا أرى أجساد النساء العارية. انا وصديقي عامر لم نستسلم لقرارهن. كنا في الأيام الخاصة بالنساء، والتي كانت غالباً الأيام الزوجية في الأسبوع: السبت، الاثنين، الأربعاء، لا نعود إلى المنزل بعد صلاة الفجر، لنتمكن من الاختباء في غبش الصبح خلف قُبة مخلع الملابس الأمامي بحيث لا تترك لنا ظلاً للداخل فيكتشف أمرنا، ولا تمكن الحَمَّامي المتواجد في مؤخرة الحَمَّام من رؤيتنا، خاصة وهو في ذلك الوقت المبكر منشغل بإعداد العدة لإشعال وقود الفرن الذي يسخن دست النحاس المليء بالماء، لتبدأ بعد لحظات حجارة البازلت الحبش السوداء في اكتساب حرارتها وبثها لأجساد النساء، وتبدأ حواسنا في لذة اكتشافها. تكون الأجساد آمنة فتتصرف بتلقائيتها. نتحدث عنها أنا وعامر طيلة النهار، رؤية اللحم لم يكن مثيراً للرغبة؛ لكن لذة اكتشاف اللحم المتغضن والصلب لنساء وفتيات وعجائز كانت أكثر متعة لي ولعامر صديقي. كان أكثر غمزنا ولمزنا طيلة اليوم عن تشبيهات تلقائية عابرة لنهود الفتيات الصلبة الشامخة للأعلى ومقارنتها بنهود العجائز المتدلية إلى الأسفل لنغيب في نوبة ضحك خبيثة. عندما قررت التوقف بعد فترة، حتى لا يكتشف أمرنا، رفض عامر انسحابي. ذات فجر مر ابن الحَمَّامي وسمع همسنا بالصدفة، أخبر والده وألقى القبض علينا متلبسين بالرؤية الحرام، كما قال، وقرر معاقبتنا. وحتى لا يفضحنا، لأن الإسلام

يأمر بالستر على هكذا محرمات، جعلنا ولمدة شهر ندور أنا وعامر على المنازل ونجمع البراز من الحمامات المنزلية التي لم يكن لها مجارٍ عامة وتستخدم كوقود لتسخين ماء الحمام. كنا نضعها أولاً في المضحى المكشوف حتى تجف ثم ننقلها إلى المللة مخزن الوقود. استقبلت أمي ما فعلته بابتسامة واعتذار للحمامي، بينما أبو عامر فلك قدميه بعصا طويلة ولم يستطع المشي عليهما إلا بعد أسبوع.

عندما كبرت وأصبحت أذهب إلى الحمام بكثرة، استُحدثتْ تعديلات لوصول الماء إلى أحواض الخزائن المتعددة للحمام. فالحمام المبني أساسه من الحجر الأسود البازلتي، ومن ثم الحبش الأسود، يكتسب حرارته من فرن كبير يبنى تحته في المؤخرة، يعلوه خزان كبير يسمى الدست، من النحاس ومبني عليه من الطوب الأحمر الذي يصل إلى خزانة المغطس مصدر الماء الساخن لجميع خزائن الحمام، حيث تم إضافة حوض عميق كمصدر للماء البارد بجوار المغطس ليصل إلى أحواض الماء عن طريق أنابيب مباشرة، ولم يعد للشذروان في الصالة الوسطى أي وجود. هذا الشذروان كان مصدر بهجة للصغار وهم يهربون من حرارة الخزائن الداخلية لجلب الماء البارد بالدلاء للأمهات...

كل شيء في الحمام كان مقنناً؛ فالحمامي الذي يقوم بواجب الخدمة، ومنها تكييس جسد من يحتاج مقابل مبلغ لا علاقة له بأجرة الحمام. وحتى تلك الأجرة كانت تخضع لتقنين رسمي حدده "قانون صنعاء" الذي وضع في القرن الثاني عشر على يد الإمام االمتوكل القاسم بن الحسين وحدد أسعار البضائع المختلفة وأجور

العمال، حدد قيمة الحمام ببقشة واحدة من الريال. ارتفعت بعد ذلك تلك الأجرة؛ لكنها ظلت مناسبة للعامة من الناس الذين يقصدون الحمام باعتباره مؤسسة موقوفة للخير العام، يكون دخلها للحمامي وأسرته والعاملين فيه الذين يتوارثونها جيلاً بعد جيل. فقدت جميع الحمامات الثمانية عشر الباقية حالياً بريقها وبهجتها. ورغم تنقلي كالنحلة بينها، من حمام ياسر إلى حمام سبأ وهو أقدمها، إلى حمام شكر إلى حمام الطواشي إلى حمام الميدان إلى حمام الجلاء إلى حمام المتوكل... إلا أنني لم أجد سبباً لخفوت بهجتها في أعماقي، ربما لأني كبرت، أو لأنه لم يعد له نشوة الحمام الذي كنت أذهب إليه برفقة أمي والذي كنت أتلصص على نسائه بلذة هائلة!".

***

فجراً وقبل خروجي لملاقاة "حميد" أعددت عجينة الحناء لشعري، وقناعاً من الزبادي ومسحوق نبات الغسل لوجهي ولجسدي. وضعت في زجاجة القليل من زيت اللوز. تفاعل تلك المواد مع الحرارة المنبعثة من جدران الحمام المبنية من الحجر الحبش الأسود يجعل من الجسد طرياً وناعماً. وضعت في الحقيبة ملابس جديدة، تيمناً بتلك العادة الجميلة التي سمعتها من جدتي "مسرة". حتى لو قطعة واحدة جديدة تفي بالغرض للأيام التي تريدينها مميزة. عادت لذاكرتي في الطريق حكايات جدتي "مسرة" عن الحمام التركي، وشغلني أيضا طلب "حميد" ورغبته في اصطحابي إلى باب الحمام، بل وانتظاري حتى أنتهي ليتمتع برؤيتي حال خروجي منه مُحمرة الوجنات، غضة البشرة، كما قال.

دخولي إلى ساحة الحمام عبر السلم الحجري المُريح والذي يفضي بعد عبور ممر له باب إلى ردهة الحمام حيث الاستقبال و"المخلع" أو غرف الملابس. "الحمامية" المناوبة في الحمام والمسؤولة عن حسابات اليوم وحماية الملابس التي تترك في "المخلع" لحين الانتهاء من الاغتسال، تعتلي "دكتها" وتبتسم للداخلات. ابتسمت لي وسألتني: "هل أنت يمنية؟". أجبتها بنعم، وأتبعتها أنا بسؤالي: لماذا؟ قالت: "لأنك لا ترتدين اللثام على وجهك، وطول قامتك وملامحك ليست يمنية!". أجبتها من جديد: "بل يمنية ونص!". ضحكت ضحكة صافية؛ لكن لم تزُل عنها الدهشة!

بدأت أخلع ملابسي وأرتدي فوطة تغطي جسدي من الصدر حتى منتصف الساقين. سألتني "الحمامية" ما إذا كنت أريد حوض ماء للاغتسال "خلوة" أختلي فيه منفردة، أم حوضا أنتظر فيه دوري بعد امرأتين سبقتاني بالمجيء. فهمت منها أن الفارق في السعر، لذلك طلبت حوض "الخلوة"، الذي يمكنني من الاغتسال والخروج سريعاً. طلبت إحدى النساء من "الحمامية" أن ترافقها لتدلك جسدها بـ"الكيس" لتنزع عنه الجلد الميت ومن ثم تليفه بالصابون، ونادتها بـ"ياسمين"، فقلت لها: "وبالمرة تقودينني إلى حوضي الخلوة يا ياسمين!".

أثناء سيري وراء "ياسمين" كانت المستحمات يتحلقن حول أحواض حجرية تُزود بالماء عن طريق أنابيب ممتدة من المغطس بحنفيتين، حارة وباردة. مررت بنساء في خزانة أو غرفة "الصدر" المعتدلة الحرارة والواقعة أمام خزانة المغطس الحارة

التي تقصدها المستحمات للتعرق والاستفادة من حرارته العالية. في غرفة الصدر نساء كبيرات في السن وامرأة أنجبت حديثاً لا تقبل درجة حرارته العالية. عرفت ذلك من ارتدائها عقداً من أحجار المرجان وعليه غصن من نبات "الشذاب" الأخضر الزكي الرائحة لطرد الأرواح الشريرة أو عدم إصابة المرأة بعين الحسد. ترتدي ذلك العقد مع "الشذاب" المرأة التي أنجبت أو المرأة التي ستتزوج.

البنات الشابات يفضلن منطقة الخزانة شديدة الحرارة والظلمة. تسمح لهن بتدليك أجسادهن بعد اختمارها بالحرارة لخروج كل ما تراكم عليها من جلد ميت ويحتاج للإزالة، ومن ثم دهنها بالأعشاب لمنحها المزيد من النعومة والرطوبة. يخرجن بين فترة وأخرى إلى المنطقة الخارجية، القريبة من منطقة الدخول، لالتقاط الأنفاس، خاصة في فترة ترك الحناء على الشعر ليختمر ويؤدي مفعوله فيه.

الغرفة تحتوي على حوضين. كنت الأولى؛ لأنه بعد منتصف الوقت جاءت شاغرتان للحوض الآخر، أعادتا عليَّ نفس الأسئلة التي سألتها "الحَمَّامية ياسمين". لم أتذمر، لأني وجدتها فرصة لتبادل الحديث معهما لتمضية وقت الحمام، الذي يتجاوز الساعة والنصف من تدليك وتنعيم واختمار الحناء. لا تكترث النساء في الحمام بتغطية كامل أجسادهن، رغم وجود الفوطة الساترة من أعلى النهدين حتى منتصف الساقين. كبيرات السن لا يكترثن بالسير عاريات بأجسامهن المتغضنة بين منطقة غرفة الصدر والمنطقة الخارجية الباردة، ماعدا وضع أيديهن ما بين أفخاذهن.

كن يهزأن من فتوى تحريم الذهاب إلى تلك الحمامات إلا إذا سترت المرأة عورتها من السرة إلى الركبة. يقلن إن بين النساء الحياء طاغٍ، حتى لو كانت المرأة عارية لا ينظرن إليها. بسبب هذه الفكرة التلصصية على الأخريات تم عمل غرف منفردة في بعض الحمامات الحديثة خارج صنعاء القديمة.

طلبت مني إحدى امرأتيْ الحوض المقابل أن أغسل ظهرها وأدلكه بـ"الكيس" الخاص به، ففعلت. قالت: "ناوليني كيسك لأدلك لك ظهرك!". شعرت بالخجل وقلت لها: "شكرا!". قالت: "لا تستحيش! كلنا نساء، والظهر لا يمكن أن ينظف إلا بعد أن تكيسه لش واحدة وتبسره سوى". استدرت لها وناولتها "كيسي". قالت: "أبسرتي كيف هو مكبود وما رضيش يخرج بعالل الوسخ!!". شكرتها وقلت لها إنني أجيد تدليكه ورحت أريها كيف تُدلك ظهرها دون الاستعانة بأحد من أعلى الرقبة إلى منتصف الظهر ثم من إلى أسفل. لم تقتنع وواصلت: "كلنا بنفعل هكذا في البيت؛ لكن في الحمام يا بنتي لازم يكون جسمش كله نظيف، والا ليش بنخرج من بيوتنا للحمام؟!".

أنهيت غسل الحناء من شعري ومررت بالليفة والصابون على جسدي وتبعت كل ذلك بمرور الماء عليه للمرة الأخيرة. طلبت من تلك السيدة أن تمسك لي بالمنشفة حتى أتمكن من غسل لباسي الداخلي والفوطة التي كانت تغطي جسدي. ابتسمت عندما رأتني مرتبكة من خوف رؤيتي عارية أو عدم تغطية المنشفة لجسدي، وقالت: "لا تستحيش! كلنا نساء، والله ما ابسر حاجة!".

ابتسمت لها بالمقابل وأنهيت الاغتسال أو "الصفية" كما قالت عنها.

خرجت إلى "المخلع" وطلبت من "الحمامية" إحضار كيس ملابسي الذي أودعتها إياه. بدأت في ارتداء ملابسي ولاحظت أن جميع النساء في "المخلع" يفترشن قطعة قماش ملونة يقال لها "بقشة الحمام" تستريح عليها المستحمة وتلتقط أنفاسها وتشرب قارورة "بيبسي" لتزيل عنها تعب الحمام وحرارته. طلبت من "الحمامية" أنا أيضا قارورة "بيبسي". سألتني: "صفراء والا حمراء؟"، وتقصد بالطبع بنكهة البرتقال أو بنكهة الرمان. قلت لها: "صفراء". فعلا كان لها مذاق مختلف ومبرد لكامل الجسد الحار بعد قضاء أكثر من ساعتين في عراك مع نظافته وتنعيمه، وأيضاً غسل الشعر وتغذيته، وما رافق هذه الفترة من عالم يموج بسحر الحكايات في حمامات تلك المدينة القديمة.

خرجتُ من الحمام التركي لأجد "حميد" أمامي. لم يترك لي مجالاً لأعبر عن اندهاشي من وجوده، اعتقدته يمزح عندما طلب البقاء لحين انتهائي من الاغتسال. راح يردد بصوت متهدج بالرغبة مقطعاً من أغنية صنعانية سمعتها من جدتي "مسرة":

"قل للخليلة التي سارت الحمام،
تخضب الجسم بالحنا وتتنعم،
وتدهن الخد في وردية الأجمام،
وتدهن الجعد بالعنبر يفوح الشم،
وكحل أعيان حمرا مشرغة بالدم،
وقل لها لا تخاف الله ولا ترحم،

لأجل الحلا والسلا نسمر ونتنادم،
على الفرح والسرور نسلم من الأوهام...".
بهتني "حميد" بكلامه. صمتُّ، وأكمل:
"لقد عشت معك الحمام لحظة بلحظة. تخيلتك تغتسلين على بصيص الضوء المتسلل من أشعة الشمس إلى تلك الحُجرة. تخيلت تلك الأشعة مستلقية على جسمك تزيد من غدقه وثرائه! تخيلتنا معاً في عرينا، أمر على كامل جسدك بالصابون، أدعكه برفق وأصب عليه الماء الساخن، فتبدو تلك النقاط اللامعة على جسدك شهية لارتشافها تقبيلاً ومن ثم احتضان قامتك ليلفنا الحلم باتجاه تفاصيل الدهشة واللذة معاً...".

و"حميد" يحدثني بكل ذلك، حضرت جدتي "مسرة" بقوة في تلك اللحظة، وشعرتُ بنشوة ارتشافها لماء الورد المنقوع الذي أعده لها جدي، يلطف حرارة جسدها بعد الحمام ويسرب له وعداً خفياً بالليلة الساحرة.

شردتُ مع جدتي وذكرياتي؛ لكن "حميد" لم ينتبه لشرودي. ناولني شراب زبيب منقوع في قارورة بلاستيكية. تناول من يدي حقيبة الملابس. سرى في جسدي بعد أول رشفة ما يشبه الخدر اللذيذ على كامل جسدي؛ لكنه انطلق من جزء خلفي في دماغي. كانت نظرات "حميد" حانية مليئة بشيء غامض لم أتبينه إلا وهو يطيل النظر فيَّ! إنها الرغبة التي فضحتها أعيننا معاً. لم أجد ما أقول!...

سرنا معاً دون أن نتكلم. كانت شمس ما بعد الظهر مخاتلة بين شدة وهجها للحظات وخبوها بظل يسري برده في جسدي

الحار. سخونة مياه الاستحمام وجدران الحمام البخاري مازالت في أوج نشاطها داخلي.

يقودني "حميد" في الأزقة. نقترب من "صرحة الفليحي" من جهتها الجنوبية. مازال ممسكاً بحقيبة ملابسي. وقفنا أمام منزل متوسط الحجم يشبه مرسمي، له حديقة أمامية صغيرة تتدلى من سورها شجرة مليئة بالورد.

مبهوتة من حالي ومن استسلامي لذلك الخدر الذي تلا نظرات "حميد" الراغبة بسخونة جسدي، وولّه التفاصيل الصغيرة لجدتي "مسرة". قال: "حدثتك عن منزلنا في صنعاء؛ لكنك لم تريه، هذا هو. ليكن غداءً صنعانياً ومقيل قات لن تنسيه. أرجوك لا ترفضي! أرجوك! أرجوك! أرجوك!...".

لم يتوقف عن ترديدها، جابه بها صمتي وحيرتي في تلك اللحظة!

خطوت باتجاه الباب، تقدم. فتحه. ما إن ولجت الدهليز حتى سمعت غلق باب الحديقة وتسارع وقع خطوات "حميد" لا أعرف بأي اتجاه حتى تلاشت! تركني في قمة حيرتي! تركني "حميد" في قمة ذهولي من اختفائه دون كلام.

لا يوجد في الدهليز غير مطحن الحبوب في جهة اليمين، وباب صغير كأنه إلى حوش صغير في الخلف. درج على اليسار. المنزل قديم، لم يُحدَّث كحال بعض المنازل. على يساري طبقة صغيرة كدور مسروق فيها "أحقاب" لحفظ الحبوب تعلوها فتحات صغيرة للتهوية.

واصلت الصعود. الدور الأول صالة متوسطة الحجم في أحد أركانها ممر ضيق يؤدي إلى المطبخ، وفي الركن الآخر حمام. فرش الصالة متواضع؛ لكنه نظيف جداً ولا تنبعث منه رائحة هجر لسكان المنزل. ثلاث من نوافذها مغلقة والرابعة مفتوحة. وينبعث منها هواء عليل متحرك وكأنّ هناك نافذة أخرى متغيرة الاتجاه تتبادل معها حركة الهواء.

فعلاً، وجدتُ نافذةً في منتصف دَرَج الدور الثاني، يطلق عليها "الشُباك" ويوضع فيها الماء ليبرد، كانت مفتوحة للداخل وينبعث من فتحاتها المتبادلة مع الحجارة الصماء هواء متحرك في أرجاء المنزل. على جلسة "الشُباك" هناك "مدل" فخاري متوسط الحجم. فتحتهُ فإذا برائحة زكية تنبعث منه. تناولت "المغرفة" التي أعلى "المدل" وملأتها بالماء وتذوقته، كان ماءً مبخراً وجاهزاً لشربه مع "القات". طالما تمنيت أن أتذوق هذا الماء. جدتي "مسرة" كانت تحكي عن مواد مختلفة من البخور تشتريها من العطار وتحرقها في قطعة حجر تسمى "الفلس" تكون قد سخنتها جيداً بحيث تلتقف دخان البخور في وعاء معدني ويتم تكثيفه بالماء ويتحول إلى ماء بنكهة مركزة من البخور. يوضع قليل منه على كميات ماء أكبر في "المدل" ويوضع في "الشُباك" لحين تناول "القات".

عند "تخزينها للقات" مع جدي تختار غرفة "المنظر"؛ لأن فرشها أحمر، مثير، وباعث للنشوة في كل تلك الطقوس، حتى المساء. يدلعها تماماً وقت مقيلهما، يقدم لها الماء بما لا يزيد عن رشفات، ويقطف لها الأوراق الأكثر نعومة من رأس غصن

"القات" ويأكل هو الباقي. يتغزل بما ترتديه من ثياب وبما تضعه على وجهها من كحل و... و... آه يا جدتي! كل ما ذكرته يمر أمامي بأناقة الأماني التي قد تصبح حقيقة.

يواجه نهاية درج الدور الثاني حجرة كبيرة نوعاً ما، كأنها الديوان، أطللتُ برأسي على داخلها. فرشها أكثر فخامة من صالة الدور الأول. يمكن أن تستخدم كحجرة نوم أيضاً. نادراً ما يوجد في منازل صنعاء القديمة أسِرَّة للنوم، بل النوم على الأرض على تلك الفُرش، أو على فرش توضع في وسط الحجرات. نوافذ تلك الحجرة كلها مغلقة؛ لكن الضوء المنبعث من خلف المصاريع الخشبية جعلني أميز لون المفارش الأحمر. إلى جوارها حجرة صغيرة لا تحتوي في وسطها سوى على فرش كبير الحجم كأنه سرير على الأرض، ومعالق عليها ثياب رجل نظيفة وأنيقة. هناك "زنة" ناصعة البياض، و"جنبية" بحزام ذهبي مشغول بمهنية عالية، و"كوت" أسود اللون كأني رأيت "حميد" يرتديه ذات يوم. في الركن القريب من الباب دولاب صغير خشبه قديم وتنبعث منه رائحة الذكريات التي مر بها صاحبه. هل كل هذا لـ"حميد"؟! توجهت دون تفكير إلى ذلك "الكوت" الأسود، تناولته من المعلق ورحتُ أشم رائحته، وللحظات احتضنته قبل أن أعيده إلى مكانه. هل كل هذا لـ"حميد"؟!

واصلت الصعود إلى الدور الثالث. كانت مفاجأة مدهشة تلك الحجرة الصغيرة ذات النوافذ الواسعة التي لا تطل على أي منظر سوى "تجواب" سقف المنزل. عدم ارتفاع المنزل كالمنازل المجاورة حرمهُ من أي إطلالة مميزة على المدينة. لكن "تجواب"

السقف أيضاً مميز ويظهر من بعض عقوده الكثيرة بعض منازل المدينة المترامية الأطراف، مع استنشاق بعض "أجوال"مزروعة في علب معدنية وفخارية لهواء المدينة المنعش. من يسقي هذه المزروعات؟! هل يسكن "حميد" هنا، أم كما قال في المدينة الجديدة؟!

خلعت عني البالطو الأسود وغطاء الرأس واستلقيت أمام النافذة ليرتاح جسدي بعد جهاد الحمام التركي. للحظات شعرت أنني في منزلي، وعلى سريري، رحتُ في إغفاءة.

استيقظت فجأة! "حميد" مستلقٍ على الجهة الأخرى المقابلة لي تماماً، يتأملني. بادر وبرر: "لم أشأ إزعاجك في غفوتك! الغداء في صالة المعيشة، والقات مغسل وجاهز، وشراب الزبيب والشعير والماء المبخر مررتِ عليه أثناء صعودك... وأنا هيت لك صبحية!". اقترب مني ومد يده لغلق النافذة التي نمت تحتها، حتى لا يلفحني الهواء وأتوعك... راح يستنشق بقوة نسمات الريح التي دخلت وحملت معها رائحة الحناء في شعري. قال: "رائحة الحنا تدوخني نشووووة!".

لا أدري سبب وجومي! أتأمل "حميد". يلفني عالم من الأساطير؛ عالم أبي وأمي، جدي وجدتي، حكايات أهالي المدينة وسمرهم اللذيذ وعالمهم الخاص في عيش قصص الحب وخلق رغبات الحياة للحياة...

يد "حميد" تتسلل إلى شعري، يدس وجهه فيه، يرتفع شهيقه للتمتع برائحة الحناء المنبعثة منه، بلل شعري زاد من شعوري بأصابع "حميد" تسير في أرجائه، في أرجائي، طواني بين

ذراعيه، همس كلماته خدر لذيذ: "أنا مأخوذ بك صبحيتي، تتقطرين الآن في الروح جسداً ثرياً غدقاً... امرأة كاملة مهيأة لطقوس العشق، لجنونه الآسر...".

جسدي رغم كامل متعته إلا أنه كالجثة، لا يستجيب، لا يتحرك. لم أقده للتجاوب ولم أطلق العنان للرغبة لتفعل ذلك...

شَعَرَ "حميد" بذهولي وعدم استجابتي. توقف فجأة عن السير بيديه في أرجائي. قال إنه سيسبقني لتجهيز الأكل الذي أحضره من السوق، في الأسفل. تبعته سريعاً. بدأت ارتجف؛ من الجوع ربما، وربما مما يحدث لي! "كِدم" من البر الأسمر، و"فحسة" لحم بقري، ومرق كثير الملح، كلما حاولت أن أشرب ماء لشدة حرارة "الفحسة" يرفض "حميد" ويقول: "إذا شربتِ لن تتمتعي بحرارة القات". يحدثني وكأني "مولعية قات"! لا يعرف أنني لم أتناوله إلا على سبيل المجاملة أثناء مشاركتي أمي في بعض زياراتها ورغماً عني. ومع ذلك فعلت، لم أشرب الماء رغم عطشي، ولم أتناول فاكهة بعد الغداء؛ لأن "حميد" لم يحضرها في الأصل، للسبب ذاته: تذوق حرارة "القات"!

بمهارة وخفة انتهى "حميد" من رفع الصحون إلى المطبخ. لم أدخل المطبخ ولا أعرف محتوياته. كأني سمعت صوت الماء وحركشة "حميد" بالصحون، رغم أن معظم الأكل كان في صحون من البلاستيك، ماعدا "حرضة الفحسة" التي يجب أن تكون فيها، وإلا لا طعم لها!

ثُقُلَ جسدي قليلاً؛ لكن دون رغبة في النوم. إغفاءة قبل الغداء كانت منقذة من النوم بعده. تنتابني الآن رغبة شديدة في المغادرة؛

لكن عباءتي وغطاء شعري في الأعلى. سأصعد لأعتذر لـ"حميد" وأغادر. لا أريد التفكير في أي شيء غير الرحيل، غير المغادرة فوراً... لا داعي لصعودي لإحضار البالطو. سأرتدي البالطو القديم الموجود في حقيبة الحمام في الدهليز. سأرحل...

لا حاجة لوداع أو اعتذار!...

***

VI

المدينة تختبئ في شقوقها أسرار قصص العشق وبطولات المتعة. ما إن تتسرب من مخبئها ويعبق شذاها في الجوار حتى يحكم عليها بالاختفاء من الحياة. ما سرى في أوصال البشر والحجر عن عشق "راغب" التركي لحبيبته الصنعانية كان أقوى من صراخه مستنجداً بوالد حبيبته ليخرجه من تلك الحفرة التي جهزها طيلة ليالٍ طويلة ليخفي سر ذلك العشق للأبد. دفنه حياً... بحث الناس عن سر اختفاء "راغب" وتناسوا عشقه للحظات. لم يبق غير ذلك القوس النصف دائري بين منزل "راغب" التركي وحبيبته الصنعانية في "حارة الأبهر" يمر من تحته الناس ويحكون لمن بصحبتهم عن "راغب" العاشق التركي للفتاة الصنعانية، الذي اختفى ولا يعرف عنه أحد شيئاً.

أناقة اغصانها!...

اختارت صبحية الهرب على ان نستكمل حلم اللقاء. تأكد لي أن الرغبة بلا حدود هي "حوريتي مسك"، وكل حدود الرغبة هي "صبحية". في النهاية "صبحية" ليست "حوريتي مسك"، و"حوريتي مسك" ليست "صبحية"! مفاجأة مغادرتها دون وداع من مقيل القات توقعتها. لم تكن "صبحية" لو لم تفعل ذلك. تركتها حائرة في دهليز المنزل، تماما كما تركتها حائرة بعد تناول الغداء. كان يجب أن تختار البقاء أو الرحيل. ترددها الواضح ووجومها الذي لم تستطع إخفاءه كان سيفسد روعة ما أتمناه من بقائي معها.

لم أحلم بمقيل صنعاني لتناول القات مع امرأة كما حلمت به مع "صبحية". ولم أجد رغبة في الحديث عن ذكرياتي إلا معها، ولها. لو وافقت "صبحية" على دعوتي لحكيت لها كثيراً عن منزلنا... عن أيامي المتناقضة فيه... لسردت لها عن حزن لحظة وصول خبر وفاة أبي! وحيرة قبولي لعروستي، وتاريخ عشقي لـ"حوريتي مسك"... كنتُ سأعترف لها، وسأحكي لها الكثير، بالوله ذاته الذي سردت لها به علاقتي بالنساء ذات مساء رائق في "صرحة حارة الفليحي"!

اسمعي "صبحيتي" ما سأقوله، ولو في الغياب! بي رغبة عارمة بالحديث لك ومناجاتك في خيالي أكثر من أي وقت مضى. اسمعي! فأنا لا أملك غير الذكريات، وأنت تحتاجين دائماً سماعها؛ تعيد لك جزءاً لم تعيشيه، وماضياً حلمتِ لو كنت يوماً في صلب

أحداثه. اسمعي ولو في الغياب! فأنا في قمة رغبتي وهياج أحلامي.

بعد خروجنا من المدينة القديمة وشراء منزل حديث خارجها رفضتُ أن يؤجر المنزل أو حتى يباع كما فضلت أمي وشقيقي وجدتي. رفضتُ بشدة، وبدوت عدائياً في مواجهتهم، فتركوا لي حالي مع المنزل وللمنزل.

لم يلتصق أحدهم بذكريات فيه كما فعلتُ، ولم يشعر أحدهم بما يعنيه لي هذا المنزل، بل وما تعنيه لي هذه المدينة المتجذرة في روحي. بقائي في المنزل ولو بشكل متقطع يعيد لي توازنَ روحي. أنا لا أهرب من المدينة الجديدة بضجيجها وصخبها ورائحة عوادمها، إلى المنزل، كما تقول أمي، بل أنا أواصل حياتي في تلك الأيام أو الساعات أو اللحظات التي أقضيها فيه.

لو قبلتِ دعوتي صبحية، كنت سأحكي لك بل سأعترف لك بقصة ستدهشك. سأبدأ لك من تلك اللحظة التي أصبح لي فيها ولـ"حوريتي مسك" مأوى نلتقي فيه دون أن نهرب من العيون الفضولية في الأزقة الخالية أو في المداخل المهجورة أو تحت أشجار "المقاشم" الوارفة؛ لا لشيء، إلا لعبث الشوق الذي لم ينطفئ في قلبينا، ولجذوة العشق التي لم يخبُ وهجها يوماً.

في اول لقاء لنا جاءت "حوريتي مسك"، بكامل زينتها. كان أهلها جميعاً قد غادروا المدينة القديمة وأصبح لهم عوالمهم الخاصة في المدينة الجديدة. اكتفوا ببقائها في ذلك البيت وحيدة بعد أن أضاعوا عليها كل فرص الحياة وسربوا من بين سنوات عمرها حياة اختاروها لهم وحرموها حرية الاختيار...

جاءت "حوريتي مسك" بكامل زينتها. أبهرتني. شرشفها الأسود، الذي كان مُبسط القماش، أظهر خصرها مياساً ومثيراً. ما إن أزالته حتى اكتملت أمامي أنثى كاملة. جسد ثري بتفاصيل فاتنة. بياض بشرتها رائق... كأنك ترى عروقها الزرقاء ممتزجة بحركة الدماء فيها. ترتدي عليه "زنة كرمبلي" خضراء، و"مَصَر طالعي" على رأسها من قماش "الجُرُز"، و"مصر نازلي" من الحرير منسدلاً من أعلى الرأس حتى منتصف الرقبة. شفتا "حوريتي مسك" عنقوديتان، مغدقتان، فظهرت بلون "البُترة السحرية" ذات اللون الوردي شهية وجاهزة للقطف...!

في تلك اللحظات بدا لنا فجر ذلك اليوم عصراً، وعصره فجر اليوم التالي! كيف اختلط الزمن؟! كيف أصبح غير ذي أهمية؟! أطبقت المصاريع الخشبية للنوافذ. لطالما تمنينا ذلك الفراغ المغلق والحميمي ونحن نسير في الأزقة نسرق القبل أو ندخل أحد الدهاليز المفتوحة والمظلمة لننتشي بملامسات لم نجد لها غير ذلك الظلام لنكتم فيه تأوهات فاضحة وحرَّى كثعابين بدائية تتعارك لتكتشف سر متعتها.

ها نحن في مكان مغلق، لنا فقط! فتحت نوافذ "المنظر"، المطلة على السقف، لتكون صنعاء المترامية الأطراف من خلف فتحات "تجواب" لنا فقط، لنا فقط!...

جلست "حوريتي مسك" إلى جواري. أسندت ظهري إلى "المدكا" مواجهاً لها وقريباً منها في الوقت ذاته. لم نتحدث. اكتفينا بتقطيف أوراق القات. تبادلنا المهمة، هي تقطف لي الأوراق الناعمة من عيدان القات التي تلتقطها، وأنا أفعل لها مثل ذلك

تماماً. أخذتْ أطول أغصان القات. نفضتْه في الهواء لتزيل عنه بعض الماء الذي لم يجف أثناء غسله. قالت: "أشعل لي سيجارة!"، ففعلت. استرختْ وسحبت نفساً خفيفاً مصحوباً بتنهيدة ناعمة وعميقة، كمن يزيل عنه أسى الحياة وكدرها! غامت عيناها بغلالة رقيقة من الدمع المتحجر. بدتا خلف هذه الغلالة كأنهما فصا عقيق رديئا الصقل، رغم لونهما العسلي الساحر. مسحتُ بكفي على أعلى ذراعها هامساً: "ياسين عليك حوريتي مسك من كل أسى! ما هذه التنهيدة الحزينة؟!". نظرتْ إليَّ وكلها وَلَه. أرادت للحظات أن تهرب مما واجهته في حياتها، وتستمتع بما تريد هي، لا ما يريده الآخرون لها. سألتني عن طعم القات في فمي لم تنتظر جوابي. اقتربتْ مني ولم أشعر إلا وقد نقلتْ من بين فمها بعض القات إلى فمي، وأخذتْ من فمي بعض ما فيه. أصبح لتلك اللحظة جلالها وقدسيتها في أعماقي. احتضنتها لدقائق. هيبة الصمت قالت الكثير. استحلينا ما فعلته "حوريتي مسك"، ورحنا كلما أضفنا المزيد من القات سريعاً ما نتبادله ونضحك بهستيرية ذروة النشوة... ارتشاف الماء المبخر من فمها كان يموج بي في عالم من النشوة، وفي ألق ترقب المزيد. أناقة "حوريتي مسك" في تناول أغصان القات و"تخزينها" مبهر. ميوعة صوتها وهي في ذروة تناولها للقات ساحرة. شرودها غامض؛ لكنه مثير للهجوم عليه وانتشالها منه...

صمتت، رفعت صوت الراديو القريب منها قليلاً: تصدح بعذوبة مع "محمد الحارثي" في أغنية "اخضر لمه تبخل عليَّ بوصلك" انصتُ لها بوله، صوتها شجي وهي تردد:

أخضر أنا قلبي شجي يحبك وتشتهي نفسي لقاك وقربك
وانت قل لي من يحب قلبك تحبني مثل محبتي لك

. بدأ "محمد الحارثي" أغنية "هواها جنون" كنتُ في تفاعلي معها مثل كاتبها "محمد شرف الدين" يقودني الحب، ومصدر إلهامي معشوقتي "حوريتي مسك" اخذتها من يدها وغبنا في رقصة صنعانية ونحن متقابلان، انجذبنا دون شعور حتى التصقنا وكأنها رقصة "لمبادا" صنعانية ابتكرناها. تركتُ جسمها يقود الرقصة، يقودني، يتمايل عليَّ، يوجهني بمهارة، يرتفع بي لذروة الخيال والحارثي يغني:

يحسبوني شاصدق إن قالوا هواها جنون،
شارشف الكاس وادخل حِماها لو يموت العذول،
واسجد إن لاح لي حسنها واهوي اليه بالركوع...

وصل هوسنا بالاغنية وبالرقص ذروته، ارتمينا ملتصقين على الأرض، نلهث، ناولتني آخر رشفات الماء. قالت إنها اليوم لي، ونشوتها لي. وعدها هذا يدووووخ! يصعد بالنشوة وهي ما تزال حروفاً إلى الدماغ، وتحول كل ذلك إلى رغبة جارفة لا يطفئها غير الالتحام مع من تحب، والتوحد في مواضع لا يحدها حد ولا يوقفها عائق!

أمضغيني حوريتي مسك أريد أن اتلاشى في الشرايين.!..

جسم "حوريتي مسك" كالغابة، كلما رأيت شجرة ظهرت لك أخرى، وكلما لمست شجرة تنقلت لتستمتع بأخرى... عبث يدك لا يتوقف صعوداً وهبوطاً، واكتمال نشوة حواسك لا ينتهي بها مكان. دوران عارم للذة تغيب فيها ولها. تحدث ذاتك وتتحسس جسدها.

تحدث ذاتها وتتحسس جسدك. تصلان إلى القمة، الذروة، ولا تنتهي بكما الغابة، بل تحرضكما على مواصلة السير باتجاه المجهول المحرض على التقدم إلى ما لا ينتهي أبداً...

"حوريتي مسك" كانت تسري في روحي مثل برق، وفي جسدي مثل تيار، وفي ذاكرتي مثل مطر شتائي نادر في صنعاء!

كنت سأحكي لك "صبحيتي" كل هذا الوله، وكل هذا العشق؛ لكنك رحلتِ قبل أن أفعل كل ذلك، قبل أن أعترف لك بسر حياتي، وبنعيمي في المدينة القديمة!

رحلتِ حتى قبل أن أعتذر لك عن تأخري عن موعدٍ جزمتُ فيه أنك لن تأتي. لكنك دائماً ما تُخيبين ظني، وتثبتين أنك أكبر من استيعابي لك كحياة!...

"حوريتي مسك" لو تعلمين كم أحببتك! وكم أحبك "صبحيتي"!

***

"لم أبحث عن مُسمى لعلاقتي بصبحية، ولم تطلب هي مني أي مُسمى. تركنا أفعالنا تقول ما لم نقله، ومشاعرنا هي التي تُسيرها وتنتقل بنا في فضاء الحب". كان هذا تبريراً ملائماً لي عن إخفاء حقيقة أنني زوج، ولديَّ عائلة وعشيقة. حدثتها عن كل شيء؛ إلا عن ذلك. أفصحتُ لها عن كل حكاياتي وتناقضاتي ونسائي؛ عدا المرأتين اللتين أحيا معهما: زوجتي، و"حوريتي مسك"!

موافقة "صبحية" على لقاءاتنا بعد رفضها لم يبدُ لي اطمئناناً أو مشاعر أو بداية لعلاقة إنسانية، بل بدا لي أمراً غريباً في

شخصيتها. كيف تملك الجرأة على السير معي في المدينة دون أن تخشى شيئاً، ودون أن تقيم لرأي الناس وزناً أو أهمية؟! تربيتها خارج اليمن وسلوكها أدهشني وأصابني بالحيرة في آن! تعودنا أن نخفي كل شيء بين أربعة حوائط، وفي منازل مغلقة. من عرفتُ من النساء كنَّ لا يسرن معي في المدينة القديمة، ولا يظهرن وجوههن وهن معي في السيارة أو في منزل إحداهن أو منزل أحد الأصدقاء... للسلامة لي ولهن.

"صبحية" هي الوحيدة التي أحيا معها كل هذه الجرأة في السير وهي سافرة الوجه. اكتشفتُ معها كم كنتُ لصاً ومخادعاً في كل علاقاتي السابقة والعابرة. لم أطلب منهن أكثر مما يستطعن أن يهبنني إياه ويذهب كلٌّ في سبيله. تأكدت من لصوصيتي وأنا أدخل منزل "حورية" في الظلام وأخرج منه في الظلام. لم تطلب هي أكثر من ذلك، ولم أكن معها أكثر من لص سرق شبابها واكتفى بمتعته وراحة باله!

هل أُحب "صبحية" لأن كل شيء معها مختلف؟! أم أحبها لأني معها شعرتُ بإنسانيتي خارج حدود لصوصيتي؟! في البداية أردت منها ما أردتُه من كل من عرفتهن من النساء: قضاء الوقت الممتع والمسلي لمن ترغب، وممارسة الحب مع من توافق، والاستمتاع بجو المقيل الرومانسي مع من تفضل الهدوء والمزاج الرائق.

تأخرتُ عليها في ذلك الفجر جازماً أنها لن تأتي، كغيرها ممن طلبتُ منهن تلك الرفقة الغريبة وفي ذلك الوقت. ستقول إنها دعوة مجنونة من عاشق مجنون للمدينة ليس إلا! ذهبتُ في ذلك

الفجر لأمارس ضياعي في المدينة وتسكعي اللذيذ في هوائها النقي، لا للقاءٍ أنا طلبته ورجوته منها.

كان عليَّ أن أدرك أنها مختلفة. كان عليَّ أن أستوعب صدقها وبراءتها وشغفها بي وبالمدينة. كان يجب أن أكون معها كما أرادت هي، لا كما أردتُ أنا! كان يجب عليَّ تفسير رفضها بعرضي السخيف عليها للراحة في ذلك اليوم الصنعاني في منزلي على أنها مختلفة، لا على أنها ستوافق بعد إلحاح، كما وافقت على الخروج معي بعد إلحاح!

كان عليّ أن أفهم أن احتضان يدها ونحن نسير معاً، والتصاقنا في بعض الأحيان، واستغلالي لظلمة بعض الأزقة لطبع قبلة عابرة، كان مشاعر طبيعية، وليس ابتذالاً منها أو تعبيراً عن رغبة عابرة.

سألتها في اليوم التالي عن سبب هروبها؛ لكنها لم تجب. انتظرتها أن تقول شيئاً تبرد به حيرتي معها وحيرتي في التعامل معها؛ لكنها أيضاً لم تفعل. سألتها كالمنتصر الغبي هكذا دون تمهيد ما إذا كانت قد عرفت أحداً قبلي، أو سارت معه في أنحاء المدينة كما فعلنا؟ وهل احتضن يدها واستغل ظلمة بعض الأزقة لطبع قبلة خاطفة؟ اوقفتني نظرتها الخائبة عن المواصلة! حولت نصري إلى هزيمة، ويا ليتها صرخت في وجهي! أو صفعتني! ليتها حاورتني وشتمتني! لكنها لم تفعل شيئاً من هذا. وجمت في مكانها. تركت العنان لدموعها لتتساقط على وجه المدينة، التي للتو خذلتها ومنحتها حبيباً من ورق، وعاشقاً من أوهام، وصديقاً معجوناً بالشك... تركتني وقد فعلتْ ما فعلته معي ولي! لم أدرك أن هذا

كان انسلاخها الأول مني! أن هذا كان رعبها الذي جعلها تنكمش مني داخل قوقعتها كقنفذ لا يظهر منه غير الشوك ليدافع عن ذاته.

كان هذا هو الجرح الأول الذي لم أتوقع أن يكون غائراً في ذات "صبحية" أو في علاقتنا! جرحاً لم تستطع هي تجاوزه لتسامحني، ولم أستطع أنا معالجته لاستمرارنا. انطفأ وجهها أثناء زيارتي لها في المرسم بعد ذلك. لم تعد كما كانت في اختلاس النظرات أو دحرجة الابتسامات لي. ألق مرسمها -وإن حاولت إضافة أعمال جديدة أو مشغولات جديدة- خَفَت. لا تجيد فن إخفاء المشاعر أو التحايل عليها. ينضح وجهها بكل ما في أعماقها.

آه كم أنا سيئ صبحيتي! ما اردته هو أن تصبري على حماقتي؛ وتعملي على تهذيبي لأغدو كما تريدين وأكثر. لأكون حلمك الذي تمنيتيه وحياتك التي ترغبين فيها بل ومستقبلك الذي سيعوضك عن كل ما مضى...

***

VII

قيل إن النساء في صنعاء يجثون على أقدامهن بصمت أمام ذلك المكان المقدس، في مؤخرة الجامع الكبير بصنعاء، وأنهن يحفظن عن ظهر قلب أن الرسول محمد أمر الصحابي "وبر بن يحسن الأنصاري" ببناء أول مسجد بين "الصخرة الململمة" و"قصر غمدان"، لينصت لهن عن بعد! يقلن أن البقعة المسماة "المسمورة والمنقورة" ناحية الباب الجنوبي مقدسة: من ابتهل فيها لله استجاب دعاءه، ومن حلف كذباً عندها أصيب بالجذام وتفسخ جسده قطعة قطعة.

ذكر ابن الديبع في كتابه "قرة العيون في أخبار اليمن الميمون" أن فضل تلك البقعة المسماة "المسمورة والمنقورة" باطل. وذكر الإمام الشوكاني في كتابه "الفضائل"، باب "الأمكنة والأزمنة"، أن فضل مدينة صنعاء في أربعين حديثاً نبوياً ليس له إسناد!

يُكذبن كل ذلك، وبين عمود "المنقورة" السادس وعمود المسمورة" التاسع يتردد صدى ابتهالاتهن في تلك البقعة العظيمة بعالم من الأحلام والأماني، يصل إلى كل شبر في المدينة؛ لكنه يرتد إليهن خائباً...

صنعاؤهم!...

صديقة، هذا كل ما أحتاجه الآن. أبثها أحزاني وأفراحي وتناقضاتي، تنصحني ماذا أفعل وما هي الخطوة التالية لأي مشكلة تواجهني... انتظرت أشياء كثيرة لحين وصولي إلى وطني؛ ولكني لم أجدها. الحبيب الذي سرت في دمائه أنفاس المدينة، والصديقة التي عاشت تفاصيل العمر مارة على تفاصيلها! لا شيء حولي غير السراب الذي يزيد ظمأ حنيني لحياة لم أعشها!...

أبي! لا أعرف هل ألومك وأعاتبك على اقتلاعي من جذور وطني ومحاولة غرسي في وطن آخر، أم أشكرك لأنك أضفت إلى عمري عمراً آخر أحياه معك بعد رحيلك! لو كنت معي الآن لوضعت رأسي على ركبتيك، ولحكيت لك عن "حميد" وعما فعله بي، ولبكيت وأنا أشرح لك صدقي الذي لم يقدره، وحبي للمدينة الذي سخر منه. أنت الوحيد الذي سيفهم ما يدور في أعماقي؛ لأنك كنت أبي وصديقي، ولا أجد لك عوضاً، حتى بوجود أمي، رغم محاولاتها المضنية لتفهم ما أعاني بعد رحيلك.

حزني هذا المساء لا شيء يمكن أن يحتويه غير عناقك الحنون وتربيتك الهادئ على كتفي. حزني الذي حاولتَ انتزاعي من بين براثنه مراراً، بسرد ذكرياتك في المدينة التي عشقت، كان يزداد كلما أوغلت في السرد. أمنيتي كانت في عيشها معك يا أبي! رحلتَ وتركتني حائرة! رحلتَ ولم تقل لي إن لأهل مدينتك "صنعاء" مخالبَ، وأنهم يتقنون غرسها في حنايا الفؤاد وعلى محياهم ابتسامة عريضة!

أنا لا أبحث إلا عمن يحبني، عمن يمنحني وطناً لم أعش فيه، وهوية لم أنتمِ إليها. لماذا يصر "حميد" على أن يكون هو فقط؟! على أن يكون هو محور كل شيء في الحياة، وغيره لا أهمية لهم؟! ولماذا أصر أنا على الاستمرار معه، متشبثة بأحلام وردية وبقصص الغرام التي قرأت عنها؟!

"حميد" في عالم آخر. يعيش في دائرته، وفي كل ما يوفر له الراحة. يعيد تاريخ ذكرياته في المدينة ومع المدينة. يبحث عن الجديد الذي يمكِّنه من مواصلة السير في أزقتها دون أن يشعر بالوحدة أو الملل، عن المثير الذي يمكِّنه من سرد ذكرياته وحكاياته الخارقة وفحولته منذ طفولته وصباه... كل هذا دون أن يسأل الآخر عن مشاعره أو عن شعوره أو عن رأيه! لا أشبه "حميد" في تفكيره، ولا يشبهني هو في تفكيري. ومع ذلك حدث بيننا ما حدث من شد وجذب في المشاعر، ومن تفاهم واختلاف في الآراء. تناقضاتنا كانت تحيرني وتجعلني أفكر فيها كثيراً! كلها أسباب تدعو للفرقة ولأخذ كل طرف لجهته والمغادرة؛ لكن هذا لم يحدث، من جهتي على الأقل. في خلافنا الأخير كنت أشعر بمدى شوقي لـ"حميد"، لرؤيته، لسماع صوته، والحديث أمام وجهه الذي أهوى والتصاقي بقامته التي أذابت جليد السنوات الماضية!

"حميد" عشقي وليس كمثله عشق؛ لكنه لم يهتم يوماً بأحلامي. لم تأخذه تفاصيلها الصغيرة. لم يدعني يوماً أكمل له جملة أو أشرح له فكرة، أو حتى أسترسل له في حكاية قديمة علقت في ذاكرتي. طالما تمنيت تلك اللحظة التي أتكئ فيها على رجل يحميني ويفهمني ويدللني، والأهم: يحبني، يغفر لي تفاصيل

هفواتي، يشاركني دهشة النظر من تلك الكوة التي أريدها للحياة وللحب!

"حميد" كان له عالمه الخاص الذي لم أشاركه إياه. فكيف أطلب منه ما لا يقدر عليه؟! وكيف...؟!

يثير استغرابي اندهاشه الدائم من تلقائيتي معه في الحديث وفي الأفعال. تجوالنا في المدينة أو حديثنا في المرسم أو نقاشاتنا العابرة في "السماسر" ينتهي بحيرة تعتريه لم أعرف سببها أو أجد لها تفسيراً، حتى فاجأني بذلك السؤال المدمر بعد يوم الحمام: كم عرفت قبلي من الرجال؟! هل كان لك علاقات قبلي؟! لم أرد عليه. فضلت الصمت على الرد أو البحث عن إجابات وربما تبريرات تجعل مني متهمة في قفص.

آه! "حميد"! اتركني أحبك كما أريد ولو في الخيال. دعني أتلذذ في علاقتي بك. دعني أكملها كما يفعل كل المحبين بنجاح. دعني أغص في عينيك وأنتشي بكلماتك وبغزلك. دعني أمارس معك حريتي وشبقي، وأن أستكين كطائر سنونو آمن بين ذراعيك. دعني أعش معك ما مضى من العمر وما سيأتي...! أرجوك! اترك تفاصيلك ولو قليلاً لتحيا تفاصيلي. ما الذي تبقى في العمر لنهدره؟! ما الذي تبقى من الأحلام لنضيعه في الأوهام وفي حسابات بليدة لا تهم أحداً؟! لي حكايات وعالم عشته قبلك! لا يعنيك! فلماذا تصر على أن تكون في الماضي الذي لم تعشه، والحاضر الذي تتمتع به؟! لماذا تصر على أن تحول ليالي الشوق والحلم والرغبة إلى كابوس الفراق والذكريات المؤلمة؟! لماذا تصر على أن تعذب من حولك لترتاح أنت؟! لماذا...؟! لماذا؟!

بعدها لم أقبل اعتذاره. لم أتفاعل معه، ولو بالسلام، أثناء تواجده في المرسم. أسير في المدينة باحثة عن طرق لم تشهد خطواتنا. أهرب من حجارة الأزقة. أُنثر رائحة "حميد" وهو إلى جواري في الهواء. أقبض على الغبار المتطاير أمامي حتى أتخلص من قبضة "حميد" على كفي. كنت بحاجة إلى كمون الشرنقة قبل أن تحلق في فضاء الحياة من جديد. رد لي مدينتي، "حميد"! أريد أن أتنفسها من جديد وأنا متحررة منك ومن حبك ومن تمنيك... فهل أستطيع؟!

يومها، عدتُ إلى المنزل كمن على رأسه الطير. أمي تجيد قراءة ملامح وجهي، تعرف حزني من فرحي، تعرف رغبتي في الحديث من عدمه. لم تسأل أو تستفسر، فقط تركتني أنام!

من أين لي حكمة أمي لأعبر فوق ذلك الجرح وأواصل حكايتي مع "حميد"؟! لم يكن سهلاً عليها ترك مدينتها وذكرياتها وأهلها، فقط لأن زوجها قرر ذلك، ومع ذلك استطاعت أن تبدأ من جديد، معه ومع المدينة التي اختارها. "حياتي ولا بد أن تنجح!"؛ لكن كيف أُنجح ما هو في الأصل فاشل؟! حتى في لحظات انفجار مشاعرها وشوقها الشديد لأهلها كانت لا تتعدى الصراخ في وجه أبي، بأناقة حبها له وتضحيتها من أجله.

أين أنت يا حكمة أمي، ويا فطنة جدتي "مسرة"، ويا إصرار جدتي "حليمة"...

نمتُ؛ لكن لماذا أشعر أنني لست كذلك؟!

***

صباحاً لمحتُ، قبل خروجي، على طاولة غرفة الجلوس، بطاقة فاخرة أثارت انتباهي كُتِب على غلافها: "أبناء المرحوم المناضل جبران علي". فتحتها بفضول لمعرفة من هؤلاء الأغنياء أصحاب هذه البطاقة الباذخة الثمن. لم أُصدق! كانت من مكتب رئاسة الجمهورية، لحضور تناول طعام إفطار أول يوم في رمضان مع فخامة رئيس الجمهورية، عرفاناً منه وامتناناً بدور المناضلين والشهداء في قيام ثورتي سبتمبر وأكتوبر وفي خدمة الوطن، بتكريم أولادهم ومن بقي منهم، وهذا أقل واجب تجاههم.

أصابني الذهول من بطاقة الدعوة. لم أوقظ أمي، رغم حيرتي الشديدة من تلك البطاقة. وعند عودتي من المرسم مساءً لم تجد أمي -كعادتها- عذراً للهروب من الإجابة على تساؤلاتي الكثيرة عن والدي، المناضل، الذي لم أعرف أنه مناضل إلا من بطاقة دعوة فاخرة من مكتب رئاسة الجمهورية.

أربعة أيام على موعد الدعوة لم تكن كافية لتحكي لي أمي ما لم يشأ أبي إشراكنا فيه عن هذا الجانب من حياته، وعن سبب مغادرته وطنه الذي يحبه. أوجزتْها باختصار شديد. شعرتُ بحيرتها أمام رغبتي الشديدة في معرفة سرّ أبي، وفي وعدها لأبي بالكتمان، كما قالت، حتى تسير حياتنا دون منغصات. قررت أمي عدم الحديث، وتركت بين يدي دفتر مذكرات والدي وقصاصات من الورق، إضافة إلى أربعة أشرطة كاسيت وشريط فيديو. وضعتها، بشوق لمعرفة محتواها، في حجرتي لحين تفرغي لها، بعد تلبية الدعوة بالطبع.

لبَّيتُ الدعوة، رغم أنه مكتوب "أبناء" وليس "بنات" كما قالت أمي، وقد يُرفض وجودي كأنثى والدعوة موجهة للرجال؛ لكني أصررت وكنت مستعدة للمواجهة. التزمت بتعليمات الدعوة بحذافيرها، والتي كانت محددة بثلاثة أشياء: عدم إحضار التلفون السيار، إبراز بطاقة الدعوة مع البطاقة الشخصية، والتواجد قبل الموعد بساعة في نادي ضباط القوات المسلحة ووضع السيارات - لمن لديهم- في موقف النادي.

لم أجد ممانعة من وجودي كفتاة. فتش الحرس في بوابة النادي حقيبة يدي وسيارتي، وتأكدوا من الدعوة ومطابقة البطاقة الشخصية، وكأن هناك نساء غيري! لم ألمح أحداً غيري في تلك الساعة؛ لكن عند وصولنا إلى القصر الرئاسي كان هناك بعض النسوة في اماكن متفرقة من القاعة. لا أعرفهن ولم يكن لديّ شغف لذلك، رغم مشاركة البعض الطاولة ذاتها.

ما لم أتوقعه أو حتى أتخيله، بل حتى أن أراه في الحلم، هو رؤية "حميد" بين المدعوين، مرتدياً لباساً عسكرياً مرقطاً وأنيقاً لم أكن على معرفة بنوعه أو إلى أي جهة ينتمي ويعلو كتفيه طائر ونجمتين، واعتقد أن هذه رتبة العقيد! التقت عيوننا؛ لكن دون كلام، فقط تبادلنا نظرات التساؤل عن سبب وجودنا في هذا المكان معاً!...

استقللنا إحدى الحافلات التي ستقلنا إلى القصر الرئاسي في منطقة "ميدان السبعين". وجوه معظم من كانوا معنا متعبة، ثيابهم نظيفة ومتواضعة، نظراتهم حزينة وزائغة حتى لو تبادلت الحديث مع الغير. ما إن استقر الجميع على مقاعد الحافلة حتى بدأت

أصواتهم المتذمرة ترتفع بالشكوى. رجال تكالبت عليهم أمراض الشيخوخة من جهة، وأمراض الزمن من جهة أخرى. أسمعهم بأسى وأسأل نفسي: هل أنا الآن مع مناضلين قدموا كل ما لديهم فداء للوطن ولنصرته، أم مع مقهورين من ضياع هذا الوطن، واقتسام حفنة يقولون عنها إنها فاسدة لثرواته، والأدهى اقتسامهم لتاريخه، كما دل عليه غمزهم ولمزهم بكلام يوحي بهذا؟!!!

كم يلزمني لأعرف هذا التاريخ الذي يحكون عنه؟! ولماذا لم يكن يوماً مصدراً لتساؤلاتي أو حتى بحثي؟ نظرات أحد هؤلاء حيرتني. هو تقريباً لم يغض الطرف عني؛ كلما التقت به عينيَّ يميناً أو يساراً أجده مبحلقاً فيَّ بنظرات حانية وملامح راغبة في الحديث معي لكنها تنتهز الفرصة المناسبة. كأن ذلك الوجه قد مر عليَّ لكن أين؟

وصلنا. تسنى لي دخول هذا القصر الرئاسي، الذي يحلم بدخوله الكثيرون. زادت مساحة القصر حتى أكلت بشراهة منطقة "النهدين" كاملة، وارتفعت أسواره حتى حجبت ما خلفها.
"النهدين" هي التسمية التي أطلقها الجيش المصري أثناء تواجده لمؤازرة ثورة اليمن، وكان اسم الجبل هو "الأكمة". المثير للاستغراب هو ذلك المسجد داخل القصر، المسمى "مسجد النهدين"!

سرنا لمدة دقيقتين تقريباً بالحافلة من البوابة الرئيسية للقصر حتى وصلنا إلى بوابة أخرى تم فيها تفتيشنا ومرور حقائبنا على الجهاز الإلكتروني ومن ثم الانتقال بحافلات صغيرة إلى مكان الوليمة. لم يكن القصر ببساطة أو حتى فخامة القصور الرئاسية

التي نشاهدها في التلفزيون. كان أقرب لثكنة عسكرية قلقة، خائفة، تخشى الغدر في أي لحظة؛ لذلك ارتفعت أسوار القصر الرئيسية من الخارج وزادت تقسيمات الحوائط الداخلية بين مكوناته، هناك صالات استقبال وصالات طعام بخدماتها ومباني سكنية ذات طراز تقليدي من الحجر الاسود والابيض والنوافذ ذات العقد النصف دائري الملون ويقال له قمرية صنعانية بعد اختفاء القمرية التقليدية ذات الشكل الدائري من حجر يشبه الرخام الابيض. بدا لي القصر خالياً من الحياة، فاقداً لأي منظر جمالي أو تأملي يثير في النفس الهدوء والاسترخاء. حال وصولنا إلى صالة الإستقبال وجدنا من سبقنا، ولا أعرف إن جاؤوا بحافلة مثلنا أم أنه تم السماح لهم بالدخول بسياراتهم! هل هم مناضلون لذلك تم دعوتهم مع من كانوا معنا أم لا؟! لا أعرف! من هيئتهم التي تبدو بكامل الصحة والأناقة والانشراح يبدو أنهم مناضلون في منتصف العمر، ومن كانوا معي في الحافلة مناضلون كبار السن؛ وإلا فكيف أفسر وجودهم إذا لم يكن كذلك؟!

نسيت "حميد" تماماً في ذلك الحشد. بدا لي متابعة ورصد ما يحدث أكثر أهمية من ملاحقة نظرات "حميد" إليّ كعادته. طلب منا موظفو المراسيم في البوابة السلام على فخامة الرئيس باليد، أي مصافحته دون تقبيله؛ إلا إذا بادر فخامته بذلك. هل كان يقصدني معهم أم أن هذا تحذير خاص بالرجال فقط؟!

تعمد الرجل الغامض الذي يرقب تحركاتي السير ورائي وتعمدتُ أنا السير وراء أحد كبار السن من المناضلين الذي يسير ببطء، حتى أمعن النظر في كل ما حولي. أصابني الانشداه التام

من ضخامة القاعة، ومن مساحتها الكبيرة، وأثاثها الفاخر الباهظ الثمن، وزخارف حوائطها على الطراز اليمني في "الخرشات" الجبسية، واستخدام القمرية التقليدية النصف دائرية بألوانها الشاعرية في النوافذ...! هل كان بعض المال من ذلك يؤثر لو وُهب لذلك المناضل أمامي وهو يعاني من داء المفاصل المؤثر على حركته؟!

وصلنا أخيراً إلى فخامته. لم يكن عادلاً في سلامه على الجميع. هذا يُحدثه، وذلك يصافحه بود وينتظر مروره بأدب من أمامه، وآخر يجره من يده باتجاه المغادرة القسرية...! لماذا لا أعرف؟! وهل حقاً كنت أحيا في صنعاء منذ تسع سنوات قبل ذلك اليوم، أم أنني كنت أحيا في ذاتي منسلخة عن المدينة وما يحدث فيها؟!

أنهى المناضل سلامه على فخامته، وجاء دوري. مد يده مصافحاً لي تسود وجهه مسحة استغراب؛ ممن أكون! سألني عن اسم والدي؟ قلت له "جبران علي" افتعل حركة في وجهه ليغرق في تذكره وكأنه يعرف كل الثوار والمناضلين، الأحياء منهم والأموات! لكن يبدو أنه لم يتذكره، أو لم يتذكره جيداً، ويحاول إخفاء شيء ما! سألني: "متى توفي؟". أجبت: في العام 2000. أظهر بتصنع تذكره له، وسأل: "هل كان صديق سيف السنحاني؟". أجبت: نعم (لأني تذكرت الاسم في إحدى صور والدي من الخلف). عندها قال فخامته: "كان والدك عظيماً يا بنتي، مناضلاً حراً وشريفاً، لم يتردد في التضحية بحياته في سبيل الثورة والجمهورية، وكان أول من استبسل في الدفاع عن صنعاء

أمام حفنة من الملكيين وبعض المرتزقة العرب والأجانب في حصار السبعين يوماً". وأردف: "وأنت، ما اسمك؟". أجبت: صبحية. لمعت عيناه وهو يمر بنظرة سريعة عليَّ من رأسي حتى قدمي وهو ما يزال ممسكاً بيدي قبل أن يقول: "بارك الله فيك يا بنتي!"، ضغط عليها ووضع يده الأخرى عليها مربتاً، ثم جرّها باتجاه الطريق المؤدي إلى مكان المأدبة ليواصل السلام على من تبقى بعدي! كم كرهت هذا الاستعلاء وهو يقود يدي للأتجاه الآخر دون أدنى تهذيب!

ما لفت انتباهي هو أن حاجبي فخامته لم تكن مهذبة، وطويلة، وبشرته كانت جافة، كأنّ الدماء ستخرج من وجنتيه، وأقصر بكثير مما يبدو عليه في الصور! شعرتني انظر إليه من أعلى. أما نظرته المحيرة بين الإعجاب المتخفي والرغبة الناضحة منها وضغطه وتربيته على يدي فلم أستطع أن أجد لها تفسيراً.

تمنيت لو أن لي عيون خلفية لأرى كيف سيسلم "الفندم" على الرجل الغامض خلفي! هل سيحدثه كما فعل معي؟وهل حقاً يعرف كل هؤلاء المناضلين تاريخهم وسيرتهم في الحياة؟ تمنيت ايضاً لو أجد سبباً للإلتفات للخلف ومعرفة ما يجري دون فائدة واصلت سيري.

أثناء الإنتقال إلى صالة الطعام رأيتُ في الجهة المقابلة والبعيدة عنا بعض الحيوانات: عدد من الأحصنة والطووايس تسرح وتمرح في فضاء فسيح امامنا، وفي أحد الأركان سور يحوي بعض الاغنام. ولم اتبين فيما إذا كان ما ظهر من قطعة قماش هو جزء من خيمة أم فاصل بين بعض الحيوانات الأخرى.

توافد الجميع إلى الحديقة أمام صالة الطعام الرئيسية. تم وضع كميات من "التمر" و" السمبوسة" و"الماء" وعصير "البرتقال" و"القهوة الساخنة" على طاولات للأفطار اولاً. تحلق الضيوف حول بعضهم في جماعات متجانسة بانتظار اذان المغرب على العشب الأخضر. اقترب مني حميد بعد ان وجد حيرتي في كيفية التصرف وانا تقريباً لا اعرف أحد. كان في يده صحن يحتوي فطور لشخصين. ابتسم وقال عليكِ القهوة! وضع ما لديه ووضعت فنجانيَّ القهوة بعد أن ذهبت لإحضارها على إحدى الطاولات في إنتظار أذان المغرب.

تجولت ببصري وامعنت النظر في كل هؤلاء الضيوف وفي روحانية تلك اللحظة التي يبدأ فيها الجميع في تناول الطعام وانهاء الصوم. اعشق هذه اللحظة. سكون المدينة فيها يبعث الطمأنينة في ذاتك ويجعلك تشعر بقرب الله منك فتناجيه. لم اشعر بكل هذا في القصر الرئاسي. لم انسجم مع تلك اللحظة رغم زخات المطر التي بدأت في السقوط. حتى وجود حميد الى جواري في هذا المكان شعرته باهتاً. المكان يسرق شعوري بالأمان وشعوري بالحب. أكاد اختنق! متى ينتهي كل هذا الغثاء؟

استقر الجميع على طاولات الطعام. انسحبت من حميد حتى لا اشاركة طاولة الطعام. شعر بذلك فاختار طاولة قريبة مني. قمن بعض النساء في الطاولة التي استقريت عليها بإلقاء سيل من الأسئلة تجاهي عن ما قاله لي فخامة الرئيس؛ لأني الوحيدة التي تحدث إليها! قالت إحداهن بولهٍ طاغ على صوتها بعد أن شرحت تفاصيل الحديث: "يا بختك!". شعرت برغبة شديدة في الضحك

وهي تذكرني بأحد بطلات الأفلام العربية؛ لكني سيطرت على نفسي، حفاظاً على مشاعرها. ثم اردفت بوله أكثر: "انا اعشق فخامته، وسأظل أحبه حتى آخر عمري" لم تعلق احداهن على كلامها بل بدا ان جميعهن واقعات في غرام فخامته!!!عرفن تاريخي في لحظات، ولم أتمكن من سؤالهن عن شيء، حتى أسمائهن، لم يبادرن بتعريف أنفسهن، باعتبار أنهن مشهورات وأنني بالتأكيد أعرفهن! بينما أنا بالفعل لم أكن أعرف أي واحدة منهن!

بدأ الجميع في الأكل. ارتفعت اصوات الشوك والملاعق والسكاكين. انهمك الجميع في التلذذ بكل ما تم وضعه على الطاولة: كمية كبيرة من اللحم بين الأرز واللحم المشوي، سمك، طبيخ خضار مع اللحم، سلطة وسحاوق، فاكهة... من كن يضعن اللثام على وجوههن يأكلن من تحته. سألت نفسي في تلك اللحظة: هل يجدن متعة في الأكل بهذه الطريقة؟ يد ممسكة بالنقاب والاخرى تلتقط ما تيسر من الاكل بالمعلقة لتحشره في فمها من تحته! هل مسالة تناول الطعام هي للشعور بالشبع فقط ام للشعور بالمتعة في رؤية الأكل وفي مذاقه وفي طريقة تناوله. ربما لذلك اليمنيون يأكلون بسرعة تفوق الحد. اليمني ينهي وجبة غداءه في اقل من ربع ساعة وفي مطاعم "السلتة" قد لا يستغرق الامر أكثر من عشر دقائق!

فجأة، في منتصف الوجبة سادت حركة للحراسة في ارجاء الصالة واتجهت أنظار الجميع لتلك المنصة في مقدمتها. ظهر فخامتة بعد دقيقة ليلقي كلمة ترحيب بالضيوف. لم تكن كلمته

مكتوبة اوحتى لها وقت محدد ليستطيع الضيوف استكمال الاكل الذي برد بسبب الاطناب في الحديث لفخامته عن الثورة وعن فضل الثوار والمناضلين في انجاحها وعن امتنانه بهذا لذلك يعبر عنه دائما بالاهتمام بهم وبمتطلباتهم. سالت نفسي عندها: على من يكذب هذا الرجل وقد رأيت بام عيني اوضاعهم المتردية وصحتهم المعلولة وتذمرهم الواضح، والاكثر إيلاماً استجدائهم لبعض المال الذي سيمنحهم فخامته ويسمونه "إكرامية رمضان" بعد الانتهاء من الوليمة.

بدأ الجميع في التوافد للحافلات للعودة لنادي ضباط الشرطة لأخذ السيارات. واكتفى الرجل الغامض بمراقبة تحركاتي عن بعد. اجتهدت كثيراً لأتذكر أين رأيته؛ ربما هو يشبه قليلاً رجل المقبرة الغامض ايضا لكن بصورة نظيفة ومهندمة ولا مجال للمقارنة. ترى من يكون؟

ها هم الغامضون يتكاثرون من حولي: امراة الستارة، رجل المقبرة، ورجل المأدبة. والغامض الكبير "حميد"!!!

عدت إلى أمي بوسام تم تقليدي إياه من فخامته نيابة عن والدي المناضل، وشهادة تكريم تم منحها لكل أبناء الشهداء والمناضلين، بمن فيهم "حميد"، ووعد رئاسي مبتذل بإرسال نسخة من الصورة التذكارية التي تم التقاطها لجميع الحاضرين بعد المأدبة، ممهورة بتوقيع فخاااامته!

***

زيارات متفرقة في إجازات يتيمة زرتُ فيها صنعاء، وتسع سنوات من الحياة فيها والاندماج في نسيجها الحياتي. ومع ذلك

شعرت في ذلك اللقاء مع "الفندم" بأنني لا أعرف هذه المدينة، ولا أعرف تاريخها! لم ينتابني فضول لمعرفة تاريخها القديم أو حتى الحديث، ماعدا ما يقع بين يدي من صحف أو مقابلات أو أحاديث عابرة. ربما شغلني البحث عن وطن، أكثر من معرفة تاريخ الوطن! لم أسأل والدي يوماً عن السبب الحقيقي لخروجه منها بكامل إرادته، واكتفيت بتبريرات واهية عن عدم ملاءمة مناخ صنعاء لصحته! وأنه أفنى حياته في خدمتها ويريد أن يرتاح دون الاحتكاك بما يدور فيها. أنا حتى لم أسأل نفسي: لماذا كانت وجوه الناس تزداد حزناً في كل زيارة لي. وتزداد حيرة منذ سكنتها قبل تسعة أعوام أنا وأمي!

مقارنتي لها بالقاهرة وبعواصم ومدن الدول الأخرى التي زرتها لم تكن في صالحها؛ لكني وجدت لنفسي مبرراً بأنها ستكون أفضل من كل تلك المدن، وترقب أمل يحرض على الحياة فيها: "إنها في الطريق لتكون مدينة متقدمة"؛ رغم ألا مؤشرات تنمية محلية أو حتى دولية تقول ذلك وتبشر بهذا الأمل الرابض فوق هامات المتفائلين.

أردتُ معرفة كل تاريخ المدينة. قد أستعيد معها تاريخ أبي الذي فقدتُ أو الذي أفقدتني إياه المدينة دون أن تشعر. بدا فخامته مبتذلاً وهو يقلد المناضلين وأبناء الشهداء الأوسمة، يلقي بتسميات جزلة عليهم؛ فهذا أول من...! وهذا أعظم من...! وهذا أكثر من...! هذا مفجر الثورة، وهذا فدائي، وهذا بطل، وهذا... وهذا... وهذا...!

نشرت صحيفة "26 سبتمبر"، التابعة للقوات المسلحة، في اليوم التالي، صورة لأحد المناضلين، دون أن تذكر حتى اسمه، و"الفندم" يقلده وسام الثورة من الدرجة الأولى! المهم هو "الفندم" وما يفعله "الفندم" وما يقوله "الفندم"...!

ربما لهذا يجب عليَّ قراءة تاريخ هذه الثورة، وتاريخ حصار السبعين تحديداً؛ لأعرف أبي أكثر؛ لكن هل فعلاً كُتب التاريخ كما كان أم لا؟!

***

لم أطق صبراً. آن أوان زيارة المتحف الحربي! قد أستطيع حياكة بعض الخيوط التي التقطتها البارحة من كلام "الفندم" والمناضلين! قد أستطيع فك طلاسم تعابير وجوههم الغامضة! وربما ايجاد سبب لنظرات ومراقبة الرجل الغامض على الأقل؟!

الثامنة صباحاً، كنتُ أمام المتحف الحربي. آخر "شارع جمال عبد الناصر"، ثاني شارع يُشق بعد الثورة، فَسُميَّ باسم الرئيس المصري جمال عبد الناصر، بعد أن ألقى فيه خطبة أمام اليمنيين أثناء زيارته إلى صنعاء عام 1965، وسُمِّي بعدها "ميدان التحرير"، كما في القاهرة، ويحلو لكبار السن استمرار تسميته بـ"ميدان شرارة"، ليتذكروا الميدان الذي انطلقت منه شرارة الثورة.

يفصل "شارع جمال عبد الناصر" عن صنعاء القديمة "ميدان التحرير" و"شارع الشهيد على عبد المغني". المتحف الحربي في الأساس كان إحدى دور عائلة "حميد الدين" الحاكمة قبل الثورة، وكانت تسمى "دار الضيافة". مبني من الحجر الأسود

الذي يدعو إلى الكآبة وضيق الصدر عند رؤيته. نوافذه متوسطة الحجم من الخارج، ولا أعرف كيف سيبدو من الداخل! إلى جواره "مدرسة الإصلاح" حينها، وإلى جوارها ما كان يعرف بـ"الصيدلية". وهذه المباني، كغيرها من القصور القديمة، تم تحويل وظيفتها إلى مدارس أو هيئات ومؤسسات حكومية وسفارات في أنحاء متفرقة من صنعاء. لم تعد أسماء هذه القصور حاضرة إلا في أذهان القلة القليلة مِمَّن عاشوا تلك الفترة. لا يقولون الاسم الجديد إلا وقبله الاسم القديم: "دار شكر"، "دار السعادة"، "دار الخير"، "الدار الجديد"، "دار الرسول"، "دار علي"، "دار تقية"، "دار العباس"... ترى ما مذاق ذكرياتهم وكل هذه الأسماء تومض في أذهانهم كلما رددوها أو مروا إلى جوارها؟!

يا إلهي! حماسي لزيارة المتحف الحربي أنساني أن دوام شهر رمضان يبدأ من الحادية عشرة! لم يكن هناك ما أفعله حتى تفتح أبوابه غير التوجه إلى المرسم. الشوارع تكاد تكون خالية؛ إلا من بعض الأطفال وكبار السن. قررتُ في المرسم على أحد كراسي الدور الأرضي، وأخذني التفكير في "حميد". لم أجد تفسيراً لوجوده في المأدبة، كما لم أجد تفسيراً لتصرفه الأخير معي!... كلانا بدت عليه علامات استغراب من تواجدنا في المكان ذاته، وكلانا أراد معرفة السبب؛ لكن كلانا أيضاً لاذ بالصمت والنظرات!

عدتُ إلى المتحف في الساعة الحادية عشرة. قيمة التذكرة ثلاثون ريالاً. شدد عليَّ البائع وقال: "إذا كان لديك كاميرا ضعيها

في الأمانات". ممنوع استخدام الكاميرا الديجيتال داخل المتحف؛ لكن كاميرا التلفون السيار مسموح استخدامها. لم أعرف ما هو الفرق؛ لكني وضعت الكاميرا الديجيتال لدى الأمانات واكتفيت بكاميرا التلفون.

الحارس المشرف على مقتنيات المتحف نصحني بالبدء من جهة اليمين ثم جهة الشمال قبل الصعود إلى الدور الأعلى، وعلل: "الدور الأرضي للمقتنيات الحربية قبل الثورة، والدور الأول للمقتنيات الحربية بعد الثورة، أما مقتنيات حصار السبعين يوماً فلها غرفة خاصة بها أمام وجهك في الدور الأول".

قبل دخول الجناح الأيمن كان في البهو أربع سيارات قديمة قيل إن إحداها للفريق حسن العمري، قائد معارك حصار السبعين يوماً على صنعاء، والأخرى للرئيس الثاني لليمن، عبد الرحمن الإرياني، وما تبقى هما للعائلة الحاكمة في اليمن قبل الثورة، بل وكانتا الوحيدتين في ذلك الوقت، وبقية أفراد الشعب كانوا يستخدمون الحمير والبغال في التنقل للمسافات البعيدة أو يسيرون على الأقدام للمسافات القريبة.

من النظرة الأولى، بدت مقتنيات المتحف كأنها ميتة وأُهيل عليها التراب منذ زمن. لا مساحات كافية لعرضها، لا لوحات إرشادية توضح المرحلة؛ إلا في بعضها. مررت سريعاً على الدور الأرضي. لم تكن تعنيني كثيراً تلك الأدوات الحربية البدائية، كالبنادق والمسدسات، مثلما يعنيني مقتنيات الدور الأول، وهو ما جئت من أجله.

الحجرة الأولى التي توجهت إليها مباشرة، كما قال الحارس، هي حجرة مقتنيات حصار السبعين. سبعون يوماً في الدفاع عن مدينة صنعاء، سبعون يوماً من التضحية بالدماء والشهداء والمواقف البطولية، تم دفنها في حجرة صغيرة لا تتجاوز مساحتها الأربعين متراً مربعاً. لا دليل يحكي لك عظمة تلك الأيام واستبسال أهل صنعاء في الذود عن جمهوريتهم الوليدة. لا وسائل للقراءة لمعرفة ما دار من أحداث، أو لوصف ما هو موجود أمامك من مقتنيات وضعت على دواليب من الخشب ملاصقة للحوائط، ومعروضاتها وضعت على أرفف مغطاة بزجاج، ولكل دولاب مفتاح. هناك مجسم في وسط الحُجرة كتب عليه بخط واضح: "معركة حرب السبعين"...

هل أبدأ من اليمين للتعرف على مقتنيات الحُجرة أم من اليسار؟! هناك زائر يقف في المنتصف، لا يتحرك. لم يتبين لي خط سيره. انتظرت قليلاً، دون فائدة! يبدو أنه يقف أمام شيء مهم جداً ليأخذ منه كل هذا الوقت في النظر والتفكير. بدأتُ من اليمين. أتأمل المعروضات، أدوات مختلفة، أجهزة اللاسلكي، ملصقات لبعض الجرائد التي تحدثت عن الحرب في تلك الفترة، بنادق مختلفة بعضها جوار بعض دون تعريف عنها أو عن نوعها أو لمن تعود، جهاز لا سلكي أو تلغراف كان يستخدم في المعركة...

وصلتُ إلى جوار الرجل الذي كان يتأمل مجموعة صور لشهداء حرب السبعين كلٍّ على حِدة، وصور جماعية. تبادلنا النظرات وبدت عليه الدهشة حال رؤيتي. ابتسم وحياني بالسلام والسؤال عن الحال! كأني رأيته؛ لكن لا أعرف أين!! رددت عليه

وتجاوزت وقوفه، سأعود إلى المكان الذي يقف أمامه بعد الانتهاء من باقي معروضات الغرفة.

رأيتُ صورة أبي مع الصور الجماعية لقوات الصاعقة. لديه صور كثيرة، بهذه الملابس المرقطة؛ لكني أول مرة أرى هذه الصورة في المتحف. وإلى جوار تلك الصور مجموعة منفردة لأبطال المعركة وملابسهم، وكلها ضمن دولاب واحد.

كان هناك استثناء لكل تلك الصور الجماعية. صورة كبيرة منفردة لرجل في ذروة شبابه، حاد الملامح، بريق عينيه يوحي بالحماس والأمل، يرتدي بدلته المرقطة الخاصة بقوات الصاعقة والمظلات في ذلك الوقت، وكتب تحتها: "بطل حصار السبعين النقيب عبد الرقيب عبد الوهاب". ليست هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذه الصورة؛ لكن أين رأيتها قبل الآن؟! تذكرت! بعض مطاعم مدينة صنعاء تعلق صورة هذا الرجل بفخر واعتزاز؛ لكني لم أسأل نفسي يوماً، لذا عبرتها رغم انشغال ذهني بتحليل وجودها في تلك المطاعم! باقي المعروضات في ذات الدواليب كانت بعض الأوسمة والنياشين والصور التي تم إهداؤها للمتحف من أبطال رحلوا وفضل أبناؤهم تخليد ذكراهم وإهداء مقتنياتهم للمتحف، وأبطال مازالوا على قيد الحياة ووجدوا أن وجودها في المتحف أكثر فائدة للتاريخ.

في وسط الحجرة هناك مُجسم صغير لحدود مدينة صنعاء من الجهات الأربع، وهي محاور القتال الرئيسية. في الجزء الجنوبي منها كان مطار السبعين. وفي الجزء الشمالي منها مطار "الرحبة". أما "جبل نقم" من الشرق و"جبل عيبان" من الغرب

فقد كان حولهما معسكرات بسيطة للجنود. تمنيت لو أن هناك ما يشرح هذا المجسم بشكل أكثر. حاولت أن أسأل العسكري الحارس في باب الغرفة. لم يفدني، وكل ما قاله: "الأبطال ماتوا هنا"!

الرجل الواقف أمام الصور ولم يتحرك يرقبني بصمت، لا يحاول الإجابة على أسئلتي للعسكري، رغم معرفته كما اعتقدت.

انتهت محتويات الغرفة بخريطة ملونة بالأزرق تحدد حدود المعارك، وصورة فوتوغرافية لجزء من مدينة صنعاء، تحتها بعض البنادق.

خرجت من حُجرة مقتنيات حصار السبعين؛ لكني كنتُ قد تذكرت أكثر عن موقع صورة بطل السبعين. إنها الصورة المتكررة في بعض محلات التصوير، والصورة التي تعلق على حوائط بعض المطاعم؛ لكن ما شغلني أكثر هو لماذا؟! وما حكاية هذه الصورة المتكررة؟! وما حكاية هذا الرجل؟!

***

عدتُ إلى مرسمي، بعد الانتهاء من زيارة المتحف، مشدوهة بما رأيت، وحزينة في آن. لم أتمكن من حياكة الخيوط التي جمعتها. لم أتمكن من معرفة تاريخ تلك الفترة من خلال الزيارة. لم أتمكن من معرفة أصدقاء أبي الذين رأيتهم في ألبوم صورهِ أو حتى في عشاء ليلة البارحة مع "الفندم". أعتقد أن أمي مفتاح لأسرار كثيرة. سأعود إلى المنزل ولنا حديث يا أمي!

وصلتُ إلى مرسمي منهكة وحائرة. فقط احتجت البقاء فيه ولو ساعة لأشعر بالراحة. وجودي في مرسمي يزيل عني كل الهموم ويشعرني بالاسترخاء. لا زوار في هذه الساعة من النهار،

خاصة في شهر رمضان. أعوض تلك الفترة وأفتح المرسم ثلاث ساعات ليلاً، من التاسعة، أي بعد صلاة التراويح، إلى منتصف الليل. طغت صلاة التراويح على معظم مساجد اليمن في العشر السنوات الأخيرة، تأثراً بالمذهب الوهابي، استحسنها البعض في مساجد صنعاء القديمة والحديثة، ولا يؤديها البعض الآخر محافظاً على المذهب الزيدي، الذي لا يحب المغالاة في الشعائر الدينية، تخفيفاً على الناس، ويعتبر هذه الصلاة بدعة.

الليلة الماضية، جاء "العم عبد الله تقي الدين"، من سكان "حارة الطواشي"، ذات المنازل الكبيرة والفخمة، والتي بني فيها مسجد رسول سلطان الهند "الطواشي" إلى الوالي العثماني محمد باشا، فسميت باسمه، هكذا أخبرني عندما سألته، ولا أعرف سبب حدة صوته وهو يجيبني. جلب معه بعض ملابسه القديمة، المشغولة باليد، لعرضها وبيعها في معرض المرسم المتواضع. سألته عن السبب. قال: "إنه أفضل مكان يضع فيه "العَبَهْ"، الصوف التي حاكتها له أمهُ بيدها؛ لأن من سيطلب شراءها سيشعر بقيمتها، حتى لو دفع ثمناً قليلاً تحددينه أنت يا بنتي!". يشعر بالامتعاض لأن أولاده أصبحوا لا يحبذون لبس "العَبَهْ"، ولا يعلمون أولادهم أيضاً لبسها، ولو في المناسبات. لا يحب انسلاخ أولاده وأحفاده عن عادات المدينة وتقاليدها. سمح لهم بالخروج منها لإصرارهم على ذلك، ولم يعد بيت صنعاء في "حارة الطواشي" قادرا على تلبية احتياجاتهم الحديثة؛ لكنه يقول إنه لم ولن يسمح لهم بتجاهل تاريخها وعاداتها وتقاليدها.

تاريخ القطع ثري بتفاصيل حياة لم اعشها لي ولمن يراها لذلك احرص على اقتنائها من اصحابها لا من السوق. كانت "العبه" قد اتخذت مكاناً مهماً في المعروضات التي أصبحت أشتريها منهم وأدفع لأصحابها قيمتها دون أن يعرفوا من اشتراها وأتركها للعرض.. أنهيت انشغالي بـ"العم عبد الله" وتوجهت للخروج. بالكاد أصل إلى المنزل قبل أذان المغرب.

وأنا أدير قُفل المرسم، سمعتُ صوتاً من الخلف يطلب الحديث معي. التفتُّ لأجد مفاجأة في انتظاري!!!

كان الرجل الذي رأيته في المتحف. ملابسه كما هي، لم يغير "الزنة" البيضاء، فقط ارتدى "الجنبية" بحزامها الذهبي الأنيق؛ لأن ارتداء "الجنبية" ممنوع في المتحف، كما أعتقد.

طلب الحديث معي، بأدب جم، وأنا أعصر ذهني لمعرفة أين رأيته من قبل! آه! تذكرت أين رأيته! لقد لمحته ضمن مدعوي المأدبة البارحة.

لا وقت للحديث الذي طلبه؛ فكري مشغول بأمي وبقلقها؛ خرجتُ في الثامنة صباحاً، والساعة الآن تشير إلى الرابعة والنصف بعد العصر! اعتذرتُ له وطلبتُ تأجيل الموعد! قال: "سأكون هنا في التاسعة مساءً، هل يناسبك الموعد؟". وافقت ومضيت إلى المنزل. لا أعرف لماذا لم يثر فيّ أي فضول لمعرفة من هو وماذا يريد! انشغالي بتاريخ أبي طاغٍ!...

لم تجهز أمي العشاء فقط، بل ومعه ملفٌ به أوراق كثيرة، إضافة إلى ما ناولتني إياه في السابق وبعض كتب المذكرات التي كانت بحوزة أبي وحرص على عدم قراءتي لها ولو من باب العلم

بالتاريخ، وألبومَيْ صور، أحدهما أراه للمرة الأولى. كل هذا يحتاج إلى قراءة. لن أخرج إذن، وسأبدأ المهمة.

قفز إلى ذهني موعد رجل المتحف. إذن بعد عودتي من لقائه، سأبدأ فوراً.

وصل رجل المتحف في موعده تماماً. قال إن اسمه "غمدان"، وأن والده الشهيد كان صديق والدي الحميم لحين سفر والدي للقاهرة. أخرجَ من حقيبة صغيرة كانت في يده صورة وأراني إياها. فعلاً إنها ذاتها الصورة التي مع أبي نسخة منها. قال إنه رآني البارحة وسأل عني فعرف من أكون. قال: "سألت لأتأكد فقط، فأنت لم تتغيري كثيراً عن آخر مرة لمحتك فيها في القاهرة عائدة من جامعتك وأنا أتحدث مع والدك". بدأ الحديث:

"لم أتوقع وجودك في المتحف الحربي، بالذات ثاني يوم المأدبة في قصر الفندم؛ ولكن القدر أراد أن أراك وأن أتبعك وأعرف أين مرسمك لأحدثك في جو مناسب. سمعت اسمك الثلاثي أثناء التكريم، وتذكرت الاسم خلف إحدى صور أبي لرفقاء السلاح كما كتب".

بيني وبيني شعرت بالخجل! سيحدثني عن تاريخ أجهله، وعن رفقاء لا أعرف مدى قربهم أو بعدهم من أبي. سيشرح ما يخبئه في أعماقه تماماً كما هو مخبأ في أعماقي. استغللت إرجاعه للصورة إلى ملف يحوي أوراقاً وصوراً أخرى ربما أراد عرضها عليَّ، وقاطعته، قبل أن يسترسل، بأني على موعد كنت قد نسيته وأُفضل تأجيل موعدنا لعدة أيام حتى أسمعه بصفاء ذهني. شعرت بوقع اعتذاري له، خيبة أمل داهمت وجهه! ومع ذلك نظرات

حانية ثقبت قسوتي معه لينفذ منها سؤال حائر يطلب تفسير كل هذه النظرات الحانية. غادر دون أن يحدد أي موعد! ترك لي حرية تحديده واكتفى بوضع رقم تلفونه.

كنتُ واجمة وأنا أتطلع إلى "غمدان" وهو يغادر. ومض "حميد" في ذهني، لأقارن بينهما دون أن أعرف السبب. "غمدان" ليس طويلاً لكنه معتدل القامة، ضعف بنيته جعل كل شيء فيه حاداً، عيناه غائرتان قليلاً، وجنتاه نافرتان، حاجباه كثيفان، فمه متوسط وشفته العليا طاغية على السفلى... في المجمل هو رجل جذاب، الرجولة ناضحة من أرجائه، عكس "حميد"، الذي ينضح الجمال من أرجائه.

عدت إلى المنزل مباشرةً. أخذت ما جهزته أمي لي ودخلت حجرتي لأبدأ في اكتشاف ما خفي عني! انتابني شعور غريب. حضر أبي بقوة في تلك اللحظة، ابتسامته، هدوء كلامه، رائحته... ذرفت الدموع، توقف الزمن وعادت إلي كل الذكريات دفعة واحدة. تراجعت عن قراري. ربما من الأفضل سماع "حميد" قبل الدخول في تفاصيل أبي وذلك الرجل الذي لا أعرف ماذا سيقول: "غمداااان"!

***

VIII

قالوا في كتبهم إن صنعاء تتعافى سريعاً من أي دمار يحل بها. وقلتُ إن أهلها مثقلون بقيم لا يمارسونها، ومولعون بسرد العبر التي لا يستفيدون منها، ومتناقضون في إبراز ذواتهم الانفعالية، العقلانية المنافقة، الساذجة، المرنة، اللامسؤولة... يعيشون بأريحية في إبهاج النفس، وعلى مر التاريخ ذاكرتهم مثقوبة...

الجمهورية أو الموت!...

تباعدت زياراتي لمرسم "صبحية". تجاهلها لوجودي واستمرارها في حزن وربما غضب تأخري عن موعد الفجر وأسئلتي القاسية تلك لم ينته بعد. شعورها بالإهانة مما فعلتُه كان طاغياً عن استمرار علاقتنا الوليدة. ومع ذلك توقعت "صبحية" زيارتي لها بعد لقاء المأدبة في القصر الرئاسي ورؤية "الفندم"

لم نتحدث في خلافاتنا، وكأن شيئاً لم يكن؛ لكنها هجمت عليَّ بسيل جرار من الأسئلة. خلقي لأعذار كثيرة، من أن مرسمها غير ملائم للإجابة على كل ما تريد معرفته، جعلها توافق على دعوتي إلى شرب القهوة في مطعم أحد فنادق المدينة القديمة دون تردد. شهد المطعم في الدور الأخير من فندق "برج السلام"، والمطل على مدينة صنعاء، بعض لقاءاتنا العابرة. لم أكن أجد أمام صمت "صبحية"، وهي ترنو ببصرها في تلك اللحظات في كل اتجاه من صنعاء، غير الصمت المقابل وسماع تردد تنهيدات عميقة متحسرة محيرة؛ ومع ذلك لم أسألها عن السبب.

أرادت معرفة كل شيء عن تاريخ والدها ووالدي. وأنا أردت معرفة كل شيء عن تاريخها. لأول مرة ينتابني هذا الشعور. في هذه اللحظة بالذات اكتشفت حجم أنانيتي! لا أعرف عنها الكثير، ولم أسألها عن عائلتها يوماً ما، كأنها مبتورة الجذور. رؤيتها في القصر الرئاسي كانت آخر توقعاتي. كنتُ ثرثاراً أكثر من اللازم. شغلتُها بي ولم أنشغل بها حال كل المحبين!

بدت "صبحية" مطمئنة لي، عكس ما توقعته. تغيب بينها وبين ذاتها للحظات ثم تعود لتسألني من جديد. تربط ما أقوله مع ما تختزنه في ذاكرتها. فجأة انهمرت دموعها بغزارة! لم أسألها عن سببها أو حتى أواسيها. كنتُ مستمتعاً برؤية ضعفها الرقيق أمامي. تجرأتُ وأمسكتُ بيدها وربتُّ عليها بكل ما أحمله لها في قلبي من ولهٍ.

أخرجتْ من حقيبة يدها صورة قديمة بالأبيض والأسود لثلاثة جنود في ريعان شبابهم، بالبدلات العسكرية المرقطة لقوات الصاعقة والمظلات، وسألتني إذا كان والدي أحدهم. أجبتُ بالنفي. لم يكن والدي أحدهم؛ لكنه قُتل في تلك الفترة التي أُخِذت فيها هذه الصورة. أحتفظُ ببعض صورٍ له، بالرداء العسكري ذاته؛ لكن مع جنود آخرين. وضعتْ سبابتها على أوسطهم وقالت: "هذا والدي! قالت أمي تعليقاً على هذه الصورة كما أخبرها أن من على يمينه قُتل في حرب حصار السبعين يوماً على أيدي الملكيين. والذي على يساره قُتل على أيدي الجمهوريين أنفسهم، بطريقة غادرة ومهينة لتاريخه في الذود عن المدينة في أحداث أطلقوا عليها أحداث أغسطس الدامية 1968؛ لكنها لا تعرفهم ولا تعرف تفاصيل عنهم".

أعادت "صبحية" الصورة إلى حقيبتها وواصلت إلقاء وابل من الأسئلة الممزوجة بالحيرة والارتباك والشغف لمعرفة كل ما خفيَ عنها.

انهمرتُ سارداً لها ما أعرفه، تاركاً لها التقاط ما تريد. أعلم نهمها لمعرفة غموض والدها وسر حكايته!...

بادرتها: "لا أعرف تحديداً ما حدث لوالدك، ولا أعرف ما هو سرّ هذه الصورة وسرّ الكلام الذي أفضى به إلى والدتك؛ لكني سأحدثك عن تاريخ عشْتُه وهربت منه في آن، ولك التقاط ما تريدين والاحتفاظ به أو قذفه حجراً في الهواء ونسيانه. ما استطعت إدراكه هو وقوع الحصار على صنعاء وأسبابه، وكيف صمدت صنعاء حتى انتصرت، وهذا ما سأحكيه لك؛ لكن صراعات ما بعد الحصار كانت وما تزال غامضة حتى اللحظة، تكثر حولها الأقاويل والكتابات الانطباعية الشخصية والمذكرات المتضاربة الحقائق التي لا يعرف أحد صدقها من عدمه.

هذا الحصار رغم كل ما كتب عنه إلا أنه لا يزال ضائع التاريخ وفاقداً للحقائق، ولم يوثق تاريخه مِن مَنّ هم مصدر ثقة ليقول الناس هذا تاريخنا الذي سنحكيه لأولادنا. في النتيجة كان النصر وملحمة الدفاع عن صنعاء من أهلها وممن توافدوا إليها من كل جهاتها هو التاريخ الوحيد الذي نجزم به، وما عداه سيظل في غياهب ذاكرة الصامتين الباقين على قيد الحياة، أو الأموات الذين رحلوا مكفنين بالصمت...".

***

رحتُ أسرد لـ"صبحية" كل ما في جعبتي. وكعادتها منصتة محرضة للاستمرار في الحديث:

"بعد قيام ثورة سبتمبر 1962م كان هناك انقسام في المناطق اليمنية بين مؤيد لها، كـ"البيضاء" و"رَدَاع" و"تَعِز" و"الحُدَيْدة" و"إب"، وبين مؤيد للنظام الإمامي السابق ومتذبذب منه، كمناطق "خَوْلان"، "أَرْحَب"، "مأرِب"، "حَرِيب"، "كَوْكَبان"، "حَرَض"،

"مِيدي"، "رازِح"، و"حَجَّة". لذلك لم تتوقف الحرب الدائرة بين الموالين للحكم الإمامي وبين الجمهوريين طيلة الخمس السنوات التي سبقت حصار السبعين يوماً حول صنعاء. وقد أدت تلك المواجهات إلى خسائر مادية وبشرية فادحة.

الحلول التي وُضعت خلال تلك الفترة، والمؤتمرات العديدة التي عُقدت في مدينة "عَمْران"، و"خَمِر"، و"حَرَض"، وغيرها، لإنهاء الصراع بين الملكيين والجمهوريين، باءت بالفشل؛ لتعدد الرؤى بين مؤيد للحوار وبين معارض له. في العام 1964 ظهرت مجموعة "القوة الثالثة السلمية" التي دعت إلى "دولة إسلامية"، لا ملكية ولا جمهورية. لم تقتنع الأطراف بأي حل من الحلول، حتى انعقاد قمة الخرطوم، بعد نكسة حزيران 1967 وانهزام مصر أمام "إسرائيل"، وقرارهم فيها انسحاب القوات المصرية من اليمن، والإشراف على وقف الإمدادات المادية والعسكرية من المملكة العربية السعودية، وأخيرا إجراء استفتاء شعبي عام يقرر فيه اليمنيون النظام الذي يرتضونه.

عدم التجاوب مع قرارات القمة بين كل الأطراف زاد من سوء الوضع السياسي والعسكري في اليمن.

في تلك الفترة سرت إشاعة بين الناس في المساجد وفي المقاهي، قبل بدء الحصار على صنعاء في 28 نوفمبر 1967 بأيام، مفادها إمداد القبائل المتواجدة حول صنعاء لسكانها بالسلاح والذهب، تنشد تأييدهم ومساعدتهم لها في القضاء على الجمهورية، بل إن خطتهم ارتكزت على مغريات لا يمكن رفضها، خاصة في ظل تردي الأوضاع الاقتصادية في ذلك

الوقت ليصبح لكل حامل بندق جمهوري عشرة بنادق عوضاً عنها يتسلمها من الملكيين، ولكل جندي من القوات المسلحة عشرة جنود من الملكيين!

المفارقة هنا أن تلك القبائل حول صنعاء او ما تم تسميته "السبع القُبل" "بني الحارث" "بني بهلول" "بني مطر" "بني جرموز" "بني حشيش" "بني سحام" إضافة إلى "سنحان" "وهمدان" هي الملكفة بحمايتها والذود عنها ضد أي خطر يحدق بها؛ فكيف تكون الآن مصدر لدمارها وحصارها وقطع كل وسائل الحياة عنها.

قالت لي أمي، عندما كنت أطلب منها الحديث عن أبي وعما فاتني معرفته، إنه توجه مباشرة، حال سماعه لتلك الأخبار من أحد الصبية في قهوة قريبة من "باب اليمن"، إلى مقر القيادة العسكرية، الذي كان يُعرف قبل الثورة باسم "المجمع السلطاني العسكري العثماني" وأصبح بعدها "مجمع الدفاع" في منطقة "العُرْضي" القريبة من "باب اليمن"، ليبلغ القادة بهذه المستجدات التي سمعها. تحركت القوات العسكرية للسيطرة على تلك المجاميع؛ لكن الأمر كان قد خرج عن سيطرتهم، وأصبحت تلك القبائل على حدود صنعاء قادرة على المواجهة بعتادها وعدتها.

تطوع والدي في الجيش للدفاع عن العاصمة صنعاء منذ أول يوم بدأت فيه القوات الملكية حصارها على الجمهوريين المتحصنين فيها. وانضم إليه الكثيرين من أصدقائه، وانضم إليهم الكثير ممن سمعوا عن تطوعهم في الجيش للدفاع عن صنعاء المحاصرة.

استغلت تلك القوى القبلية الملكية، وبدعم مادي قوي من السعودية ومن الأردن وبما يفوق 15000 مرتزق عربي وأجنبي، أوضاع البلاد غير المستقرة بعد حركة 5 نوفمبر البيضاء عام 1967 التي قام بها الجيش وانتهت سلمياً بسفر أول رئيس لليمن الجمهوري (عبد الله السلال) إلى القاهرة دون إراقة الدماء وتولي القاضي عبد الرحمن الإرياني رئاسة الجمهورية بعده؛ استغل الملكيون أيضاً الضعف الذي أصاب الجيش نتيجة انسحاب القوات المصرية من اليمن مع أسلحتها الثقيلة بعد نكسة 1967، جازمين أنهُ بانسحاب اكثر من سبعين الف جندي من القوات المصرية فإن ثورة اليمن قد انتهت؛ إنها ثورة بلا جيش فكيف تستمر؟!!

تبادر إلى ذهن الملكيين أيضاً أن أحداث حركة 5 نوفمبر البيضاء كانت انشقاقاً خطيراً في كيان الصف الجمهوري، وأن عدم إمداد الجمهوريين بالسلاح والذخائر والمؤن من المصريين المنسحبين، ومن روسيا التي كانت تمول اليمن بالسلاح منذ قيام الثورة، هو نهاية للنظام الجمهوري، ولذلك يمكنهم الانقضاض عليه واستعادة مجدهم بإسقاط صنعاء؛ ناهيك عن عسسهم وعيونهم التي أكدت لهم أن الدبابات وناقلات الجنود المدرعة في الجيش الجمهوري مهترئة ولم تعد صالحة للاستخدام.

أصبح التفوق العسكري للملكيين في العدة الحديثة للأسلحة والعدد في الجنود ومساعدات وخبرات تحالفات المرتزقة من الأجانب وخبرتهم وتمويلهم طاغياً أمام ضعف ما يملكه الجمهوريون. قرأت في إحدى مذكرات من كتبوا عن الحصار أنهم استخدموا مدافع "الهوزر" و"الهاون" والمدافع الصاروخية

و"البوازيك" والرشاشات من كل الجبال حول صنعاء التي كانوا يحاصرونها. أما الجمهوريون فقد كانوا يستخدمون الدبابات القديمة التي خلفها الجيش المصري وبعض مدافع "الهاون" الروسية الصنع والمدافع الرشاشة.

كل هذا سهل عملية حصار المدينة. ورغم سقوط بعض المدن اليمنية في أيديهم، كمدينة "صَعْدة"، وحصار بعضها، كمدينة "حَجَّة"، وسيطرتهم على بعض المعسكرات التي كانت في أيدي المصريين؛ إلا أن العاصمة صنعاء كانت هي مفتاح استعادة مجدهم وحكمهم، وإسقاطها والسيطرة عليها هو إسقاط للنظام الجمهوري وسيطرة فعلية على كامل اليمن وحسم الموقف لصالحهم.

أدرك الملكيون أهمية إسقاط ومن ثم السيطرة على العاصمة صنعاء تماماً، كما أدرك الجمهوريون أهمية الذود عنها. جبالها المحيطة بها كانت الهدف الأول في السيطرة من قبل الملكيين، وفي الدفاع من قبل الجمهوريين.

كان حصاراً برياً وجوياً ضُرب فيه مطار "الرَّحَبَة" في شمال صنعاء، ومطار "السبعين" في جنوبها. بداية الحصار، كما أجمعت الكتب التي قرأتها، هي عندما أسقط الملكيون منطقة "يَسْلِح" جنوب صنعاء، وقطعوا طريق "صنعاء – تعز"، ومن ثم زحفوا نحو "جبل عيبان" غرباً، و"ظفار" و"دار الحيد" في الجانب الجنوبي الغربي، وفي الشمال والشمال الغربي سيطروا على "جبل النبي شعيب" ومنطقة "مَتْنَة" ومرتفعات "ضلاع همدان"، ومن الشرق استولوا على "جبل الطويل" و"بني

حشيش" و"براش"؛ لتصبح صنعاء محاصرة من جميع جهاتها الأربع.

محاولة ترسيخ النظام الجمهوري بعد الثورة وحل نزاعات الأطراف المختلفة لإدارة الدولة واستعانة الحكومة بالقوات المصرية، كل هذا عرقل بناء جيش يحمي الثورة ومكتسباتها؛ لذلك بعد حصار صنعاء مباشرة جاء قرار إتخذه ممثلو الأحزاب والمثقفون وممثلون عن الطلاب والعمال بتشكيل قيادة المقاومة الشعبية من هذه القوى والفئات ومن ثم تمت دعوة المجتمع من المدنيين في صنعاءللإنضمام لها. هبَّ أيضا لنجدة صنعاء جيش شعبي تكون من المحافظات الوسطى والجنوبية، حيث تجمع كل المتطوعين في منطقة "الحوبان"، وتلقوا تدريبات رماية وحركات نظامية، انتقلوا بعدها إلى مدينة "مَعْبَر" وكانوا رهن إشارة القادة في صنعاء.

بعد استقلال الجنوب وتحريره من القوات البريطانية، خسر الملكيون مركزاً مهماً للتدريب ومصدراً للإمداد والتموين وتجميع المرتزقة. أيدت الجبهة القومية الجمهوريين في الشمال. وفي 8 فبراير 1968 اتحدت وحدتان من قوات جيش اليمن الجنوبي مع فصائل من الجيش الجمهوري، وهجموا على رجال القبائل الملكيين على حدود منطقة "بَيْحان" على مدى مواقع الحدود المشتركة في ذلك التاريخ. هذا غير الأفراد المتطوعين في صفوف الجمهوريين من أوائل أيام الحصار.

رفع الجمهوريون شعار "الجمهورية أو الموت" للصمود والدفاع عن صنعاء، ليصنعوا تاريخهم بدمائهم وتضحياتهم. وفي

حين كانت القوات الملكية مسيطرة على الجبال وتضرب بمدفعياتها الأماكن الهامة للسلاح وللغذاء، فقد استهدفت "قصر السلاح" في شرق صنعاء، الذي كان يزود القوات المسلحة بما تحتاجه من غذاء وسلاح، وأيضاً شحت أو بالأصح انعدمت المواد الغذائية في صنعاء، نتيجة الحصار وعدم إمداد صنعاء بأي نوع من البضائع.

المدينة صامدة، يشد من أزرها أهلها الذين أخرجوا كل ما لديهم من مخزون سلعي، وساعدوا الجيش بكل ما كان يطلبه، وتحول الكثير منهم إلى قوى شعبية، والتحق البعض بالقوات المسلحة والأمن، وشكل الباقي رقابة صارمة على الأسعار ومصادرة السلع المخفية.

انقطعت صنعاء عن العالم الخارجي لمدة سبعين يوماً. معاناتها يومية ووجعها بلا حدود، صراخها مكتوم وعنادها على الاحتمال والصبر فاق الوصف. المحافظات والمدن الأخرى أسهمت بمساعداتها. لم تخشَ من المخاطر في نقلها أثناء قطع الطرق الرئيسية، خاصة طريق "الحديدة – صنعاء". الطيران المدني أظهر شجاعة كبيرة في هبوطه المغامر في شوارع صنعاء لإيصال السلاح والذخيرة والغذاء، رغم نيران القوات الملكية، للمدافعين عن عاصمتهم بكل ما أوتوا من قوة ومن شجاعة وصبر للاحتمال وللسير بخطى واثقة وصلبة للنصر. الإذاعة في صنعاء بثت روح الصمود ورفع المعنويات للمواطنين وهي تستهزئ بالحصار وبالأعداء، ببرامج نزلت للمواطنين إلى الشوارع وتحدثت معهم ولهم، خاطبت الصغير والكبير من أجل صنعاء.

***

هذا ما حفظته من أمي، وما قرأت عنه، أما أنا فقد كنتُ صغيراً على إدراك كل ذلك، أسمع معها مستلقياً على رجليها برنامج "جي نتجابر"، أو برنامج "جي ما اقُل لك"، من الإذاعة، وأبتهج حماساً وحباً لصنعاء من خلال حبها لها وهي تقول: "اصمدي يا صنعاء يا حالية! بعد مجابرة عمنا صالح علي ومحسن الجبري ومحمد الشرفي وحمود زيد عيسى في الإذاعة لازم ننتصر". في لحظات الشدة كانت تردد والهم ناضح من عينيها أن "صنعاء تختنق!". تنفخ بكل ما في رئتيها من هواء للهواء وتقول: "هذا لكِ يا صنعاء، تنفسي! قاومي، حتى تستعيدي مجدك وتحافظي على جمهوريتك!". كنتُ أُعلم أصدقائي الصغار في الحارة، كلما سنحت لنا الفرصة للخروج، كيف ننفخ مثل أمي لتتنفس صنعاء في حصارها، ونعود إلى منازلنا يغمرنا الرضا بأنَّا ضخخنا هواءنا في شراييها فهي ستنجو بالتأكيد.

في منتصف الحصار دعتني أمي أنا وأصدقائي لمساعدتها، بعد أن شكلت هي وصديقاتها العاملات في مصنع الغزل والنسيج سداً منيعاً لحمايته، شكلن متاريس من التراب في "شوالات" وأحطن بها المبنى كاملاً لينجو من أي ضربة مدفع قد تداهمه. كان المصنع أملهن الوحيد في الحياة، ومصدر دخل يعُلْنَ به أسرهن، وعالماً آخر سيواجهن به الحياة الحديثة بضجيج آلاتها المختصرة للزمن وللجهد الذي يدفعن هن ثمنه من تعبهن. بعضهن حملن الرشاش وتناوبن الحراسة للمصنع. آه! كم أحببت أمي وصديقاتها

في تلك الفترة! وكم كان الحماس يعترينا أنا وأصدقائي لمساعدتهن!

بدا لنا ذلك الحصار كقصة شيقة لا نقرأها، بل نراها أمامنا مجسدة على الواقع. الجنود يسيرون في الشوارع ببزاتهم العسكرية مبتسمين، يعرفون مصيرهم ومع ذلك فخورين بما يفعلون وبرؤية الناس لهم واحترامهم الكبير. كنا صغاراً نمد أيدينا لهؤلاء الجنود ونصافحهم كنجوم السينما المشهورين. وبعد أي غارة أو معركة يحاول فيها الملكيون دخول صنعاء من أحد المحاور الأربعة حول صنعاء، كنا نتوجه لشوارعها هروباً من منازلنا، لرؤية الجثث ملقاة على الشوارع قبل دفنها. أما رؤية ما غفل عنه منتشلو الجثث من الطريق لدفنها فنظل نراقب تلك الجثة المنسية حتى تنتفخ وتنفطر من كل جانب ويبدأ الدود في الخروج من الأنف ومن الأذنين... كنا نخفي عفنها حتى يكتشفه غيرنا فيهيل عليها التراب، وبعد أيام يتم نقل الرفات إلى المقبرة. عشنا اروع الليالي التي ازدهرت فيها الحياة اكثر من النهار لعدم إطلاق القوات المعادية النيران حتى لا تُعرف مواقعها. نهاراً كانت متعتنا بعد اللعب في الحارات هو الجري وراء سيارات ترفع مكبرصوت في مقدمتها وتذيع الاغاني الوطنية باصوات عاليه لبعث الحماس في قلوب المدافعين عن صنعاء وترديدنا بذات الحماس اغنية "علي الانسي": قسماً برب العزة أني سأحمي ثورتي وأصون جمهوريتي...

بعد وفاة والدي جاء أحد أصدقائه المقربين وأحضر لي صوراً كثيرة كان يلتقطها لي مع الجنود ومع أصدقائي، ومع أبي،

وأحضر لي أيضاً صور أبي مع أصدقائه في محاور القتال التي كان يتنقل بينها. ظللت فترة طويلة أحضن كل تلك الصور وأنام، وحتى لا تتمزق تلك الصور فقد وضعناها في كيس من النايلون الشفاف الذي يسمح لي برؤيتها دون أن تتأثر باللمس. كنت أغافل أمي وأخرج تلك الصورة لوالدي بلباسه العسكري وأقبلها وأبللها بدموع شوقي له. تتسلل إلي عبرها رائحته وهو يحتضنني، وأشعر بسخونة بلل يدي وهي ممسكة به ونحن نسير في أزقة صنعاء القديمة.

توفي والدي قبل فك الحصار على صنعاء بأيام. لذلك لم أتمكن من معرفة أسرار هذه الحرب، ماعدا تلك الحكايات القليلة التي كان يحكيها عن أبطال الحصار الحقيقيين الذين ضحوا بأرواحهم دون انتظار أي مقابل. كل ما عرفته عن تلك الحرب كان مما كُتب عنها في الصحف ومن الندوات التي كانت تقام في تاريخ الانتصار: 8 فبراير 1968، في أكثر من مكان؛ في مقر صحيفة القوات المسلحة "26 سبتمبر"، وفي مقر مركز الدراسات والبحوث اليمني... استمعوا فيها إلى شهادات من تبقى من المناضلين في تلك الحرب، وأصدروا كتباً لتلك الشهادات. هذه الكتب وتضارب المعلومات والشهادات فيها فتحت شهية بعض المناضلين لكتابة مذكراتهم.

كل من كتب مذكراته اعتقد أنها شهادة للتاريخ، وأنه لم يكذب أو ينسب لذاته بطولات، ولكنه ذكر الحقائق كما هي، ليأتي مناضل آخر ويفعل ما فعله المناضل الأول، نافياً بعض أو كل مما قاله. هذا الثاني حرض المناضل الساكت الذي فضل العزلة منذ

انتهاء الحصار وما تبعه من أحداث مؤلمة ومن اختلاف بين المناضلين أنفسهم على إدارة البلاد ليكتب مذكراته ويدلي بدلوه.

أعتقد أن هذا الصراع خدم النظام في تلك الفترة، بشكل خاص في جعل هؤلاء المناضلين مشغولين بتناحراتهم الماضية، وبتشتيت جهودهم وتحقير عظمة أعمالهم، لتقوم باستبدال كل الكفاءات منهم ومن غيرهم من الشرفاء بآخرين كانوا ومازالوا هم المسيطرين على أوضاع البلاد وسبب جمودها وتخلفها عن مجاراة العالم الحديث، يحرصون على مصالحهم فقط، ويبقى الشعب مصدراً لتنفيذها مجبراً.

أنا في هذا كله قدمت استقالتي من عملي. كان سببها الرئيس هو إدراكي لما يتم تدبيره لهذا الوطن منذ تسعة أعوام، وتقويض قوى الدولة وجيشها الحقيقي وأبنائها الأوفياء بأيدي عصابة لا أعرف من يديرها ولا أعرف إن كان رئيس الدولة على علم بها، أم أنه هو المحرك الرئيس لها بعد أن أصبحت عائلته مسيطرة على الدولة وجيشها. كل هذا على حساب الشعب وقوته وتنميته. لم أحتمل، وفضلت الحياة بعيداً عن هذا الشعور القاسي، واكتفيت بإقناع نفسي بأن كل هذا أوهام لا أساس لها من الصحة، وأن تاريخ والدي وتضحيته من أجل الوطن ستجعلهم يقبلون استقالتي واكتفائي بالمعاش الذي سيكفيني ويكفي عائلتي للعيش بكرامة وشرف".

***

IX

وذكر الهمداني في الجزء الثامن من كتابه "الإكليل":

"وكان الملك الحميري الذي بنى غمدان ألي شرح يحصب، فلما نظر ظله بالغداة قد بلغ سفح عيبان كف عن البناء. أطبق سقف غرفته العليا برخامة واحدة. وكان يستلقي على فراشه فيمر بها الطائر فيعرف به الغراب من الحدأة. على حروفها أربعة تماثيل أسُود من نحاس مجوفة، فإذا هبت الريح فدخلت أجوافها سُمع لها زئير كزئير الأسُود. بني القصر على سبعة أسقف، كل سقف منها أربعون ذراعاً، وله أربعة أوجه في ترابيعه: وجه مبني بحجارة بيض، ووجه بحجارة سود، ووجه بحجارة خضر، ووجه بحجارة حُمر...".

لغلغي!...

بدت الصورة ضبابية في مخيلتي بعد أن سرد عليَّ "حميد" ما يعرفه عن تلك الفترة. بدا لي أيضاً أن أبي و"حميد" فضلا الهرب على المواجهة والتصحيح؛ لكن كلٌّ بطريقته الخاصة. والدي هرب بجسده وعائلته وذكرياته خارج وطنه، انهزم أمام حفنة من الانتهازيين عادوا ليجنوا ثمرة غيرهم وليأكلوا رزق الآخرين. و"حميد" انهزم أمام حفنة من الفاسدين الذين اعتبروا أن الوطن ملكية خاصة مادام لديهم المال.

اكتفى والدي بتلميع ألمه كل مساء، والنوم بهدوء. واكتفى "حميد" بزراعة ذكرياته في أرجاء المدينة وريها بدموعه كلما مر بها وتنفس عبق الحياة من جديد. كلاهما رفع الراية البيضاء وآثر السلامة على المواجهة وقول "لا"، ولو على حساب أشياء كثيرة يخسرها. والدي كان لديه عائلة يخشى عليها، ظلم نفسه وظلمنا باختياره للمنفى وحرماننا من وطن ننعم بالحياة على أرضه! و"حميد" ماذا كان لديه ليستسلم ويقدم استقالته ويواصل بقية حياته هائماً على وجهه يتغنى بذكرياته وبحبه للمدينة القديمة؟! ماذا لديه ليستكين ويكمن في جُحره دون حراك حتى آخر الشتاء؟!...

"حميد" جبان، فضل الهروب باستقالته على مواجهة أسبابها. لم يحتمل المواجهة، تماماً كما لم يحتملها أبي. مواجهة الظلم، وقول "لا" لمن هم قادرون على إيذائك، تتطلب أُناساً ليس لهم صفات "حميد" أو صفات والدي. هذا هو الأمر ببساطة.

دار في ذهني كل هذا و"حميد" يسرد لي ما قرأه وما عاشه في ذلك الحصار. أصابني الوجوم بعد حديثه. لم أفهم الكثير، ولم يشفِ غليلي ما قاله. حاول في تلك اللحظات الاعتذار مجدداً عما بدر منه ودعوتي إلى السير معه في المدينة. يعرف ولهي وعشقي للسير في تلك الأزقة برفقته. دعوَتُه زادت من شعوري بالأسى؛ كونه لا يشعر بي ولا يقدر حجم معاناتي بمعرفة تفاصيل ما أخفاه أبي عني، وإن كان هناك حقيقة مخفية بالفعل.

نظرت إليه بصمت، ثم شكرته على كل ما قاله. غادرتُ يموج في مخيلتي "غمدان"، وهل آن الأوان لسماع ما يريد، أم أن عدم سماعه أفضل؟! هل أقتل فضولي وأكتفي بما عرفتُ، أم أفتح مسالك أخرى للحقيقة؟! وهل بالفعل هناك حقيقة لدى غمدان؟! لكنه لا يجيب على اتصالي المتكرر! هل تعمد ذلك بعد خيبة الأمل التي وجدها المرة الأولى عندما أجلت الموعد؟!

***

أجاب "غمدان" على الهاتف بعد محاولات عديدة مني. حددنا موعداً للقاء. فضلت أن يكون المرسم هو المكان.

في التاسعة مساءً كان أمامي، مرتدياً "ترينك" رياضياً؛ قال إنه سيمشي في المدينة بعد حديثنا. هو أيضاً يحب الضياع في أزقة المدينة القديمة! وكأنها تعيد لنا جميعاً ما فقدناه ذات عمر مضى أو حلمنا به لعمر سيأتي! بدأ الحديث بهدوء كمن يلقي من على كاهله حِمل ثقيل:

"اعتقدت أن احترام رغبة والدك في جعلك بعيدة عن كل ما سبب له الألم أفضل؛ لكن الحيرة التي رأيتها في وجهك أثناء

زيارتك للمتحف، وإصرارك على معرفة ما كان، لن يثنيها شيء؛ لذلك قررت المجيء وإخبارك بكل ما في حوزتي.

اسمي "غمدان الصَبِري"، من "جبل صبر"، في تعز، مدينة العز، كما يسميها أهلها. ذلك الجبل كان ولا يزال يتناسل منه بشر طيبون، ملامحهم تشبه ملامحي، حادة، لقسوة الحياة التي يعيشونها، لا لقسوة ذواتهم الطيبة والمتسامحة. يأكلون من خيراته، ويتبادلون ما يفيض منها مع خيرات أخرى. نساؤه جميلات، تنضح عيونهن طيبة وتلقائية تصل القلوب، تَرْكَنُ إليهن في تسيير الحياة بكرامة وشرف. لم يعد من شهرة "جبل صبر" غير سطحية ما يتردد على ألسن الناس بعد سماع إحدى الأغاني: "جبل صبر ملوي ثلاث ليات، لية بنات وليتين غصون قات".

لا يعرفون عظمة تاريخه، وندرة مزاراته، ولذة فواكهه، وروعة مناظره الخلابة للفؤاد والساكنة للذكريات... هو ثاني أعلى قمة في اليمن، 3200م، بعد "جبل النبي شعيب". على مر تاريخه كان مركزاً هاماً للدول التي حكمت اليمن، بدءاً من الأمير أسعد بن أبي الفتوح الحميري ومنصور بن الفضل خلال حكم الدولة الصليحية، 1120م، مروراً بملوك الدولة الزريعية، والأيوبية، والرسولية، إلى سلاطين الدولة الطاهرية، وحتى استولى عليه أويس باشا، في الفتح العثماني الأول، الذي استمر ما يقارب المائة عام، 1538-1635م.

لا تستغربي من معلوماتي، "صبحية"، فقد كنتُ ومازلتُ عاشقاً لكتب التاريخ، ومتيماً بتاريخ اليمن قديمه وحديثه. أعرف

هذا الجبل جيداً منذ طفولتي، أكادُ أسير فيه وأنا مغمض العينين. ولو كنتُ أنجبت أبناء لفعلت معهم ما فعله أبي معي؛ لصعدت معهم مدرجات الجبل ومنحدراته، ولاستظللت مع حبهم في بساتينه، ولأكلت بصحبتهم من فاكهته وثماره اللذيذة، ولسقيتهم بيدي من مياه ينابيعه ومن عيون الماء المتدفقة والممتدة على ارتفاعه، ولجلستُ بصحبتهم في أعلى قمته، في "قلعة العروس" الجميلة، نرقب وميض بيوته المتلألئة مع النجوم، باحثين عن منزلنا في مدينة تعز المستكينة في سفحه والممتدة على مرمى البصر. في هذا المنظر المهيب كنت سأهرب من ضجيجهم ومن أسئلتهم، تاركاً لذاتي العنان في حكايا طفولتي اللذيذة، وفي ذكرياتي مع أبي في أماكن الجبل التاريخية والمتميزة، من "مسجد أصحاب الكهف" في قرية "المعقاب" و"مسجد الشعرة" في قرية "العارضة" أسفل القلعة... وبعدها كنا سننطلق لزيارة المقابر الصخرية في قرية "المحراق"، والتمتع بالمياه الطبيعية في قرية "المزارح"... و... و...

لكن للأسف! ليس لديّ أبناء! قال الأطباء إنني رجلٌ عقيم. زوجتي الأولى اعتقدتْ أنني كذبتُ عليها وطلبتْ الطلاق. طلقتها؛ لكني بالفعل لم أكن أعرف أن لديّ مشاكل في القدرة على الإنجاب. كان أول شيء أقوله للثلاث النساء اللاتي تزوجتهن وطلقتهن لاحقاً: إن ثروتي الهائلة لا تستطيع أن تجعلني أباً! كان نداء الأمومة أشدّ صخباً من نداء المال والحب بالنسبة لهن.

"جبل صبر" الآن، أنت تعرفينه، أصبح مزاراً سياحياً بمطاعمه ومتنزهاته ومناظره المطلة على مدينة تعز، بعد أن تم

شق طريقه الوعرة على نفقة الأمير السعودي سلطان بن عبد العزيز، من ضمن قائمة طويلة لتسول يمني من الدول الغنية لشق طرقاتها وبناء مرافقها الخدمية منذ زمن. أعلى الجبل الآن محطة تقوية هاتفية، ومكتب أمني، ومعسكر قالوا إنه لمراقبة "باب المندب" وسيطرة أمنية على المناطق جنوب الجبل.

لم يعد الجبل يحرك فيَّ ساكناً، عند زيارته، غير حنين الذكريات الموجع لما مضى. الموجع أكثر هو ما آلت إليه مدينة تعز في سفحه، بأكملها، من خراب في بنيتها التحتية وإقصاء وتهميش لها في كل الخطط التنموية.

***

سأدخل في الموضوع، بل فيما يخص والدك ووالدي وكل من تأذى بعدهم؛ حتى لا تتوهي معي في تلك الأوجاع التي أحاول تجاوزها. بعد الأحداث في أغسطس 1968، التي سأحكيها لك الآن، ويحلو لي أن أسميها "أحداثاً لعينة" غيّرت وجه اليمن الذي كنا نحلم به، غيرت اسمي من "الصَبِري" إلى "الصَبْري". غيرت لهجتي من اللهجة "الصَبِرية" الصافية إلى لهجة بلا ملامح أو جذور، إلى لهجة محيرة لا تقول إني تعزي أو صنعاني أو أنتمي إلى أي مدينة. في ذلك التاريخ اللعين عرفت أنني "بُرغلي"، من اليمن الأسفل، وأن أبي قُتل لأنه "برغلي" من تعز. لم أشأ الموت كأبي لذلك السبب. أردت الحياة هكذا في وطن حتى لو بلا هوية.

قبل هذا التاريخ بأقل من عام كنتُ أزهو بأبي كأحد أروع ضباط فك حصار صنعاء في فبراير 1968، وكنتُ أحكي سيرته

وسيرة زملائه كأساطير يونانية قديمة تمجد القوة التي تنتصر دائماً للحق وللخير. كانوا كذلك جميعهم، ضباطاً أحراراً هبوا لنجدتها، فكوا أسرها، ضحوا بأرواحهم وممتلكاتهم لنيل كرامتها والمجاهرة بحريتها وبثورتها التي ستستمر بعد النصر.

قبل هذا التاريخ كان هناك ألقاب للناس: شهيد، فدائي، عميد طيار، ضابط، نقيب، جندي... أما بعد هذا التاريخ فقد عادت الفئران من الدول التي فرت إليها أثناء الحصار، بحجج واهية وكاذبة لتبرير الهروب وعدم الذود عن صنعاء، وأيضا خرجت البقية الباقية في صنعاء من أوكارها، لتستبدل كل ذلك بألقاب أخرى لا تمثل تاريخ ما فعله هؤلاء الأبطال: حركي، شيوعي، قومي، يساري، يميني، طائفي، عرقي، "برغلي" "لغلغي" بدوي...!

التبستْ علاقتي بأبي في ذلك التاريخ، لكثرة ما سمعت عن حادثة مقتله. لم أكن أحبه ولا أكرهه. كان حكاية أريد معرفة تفاصيلها، حكاية نهايتها مُرة وأثرها أكثر مرارة. صرتُ وأخي يتيمين في سن مبكرة. يقولون في الحارة إنه كان شيوعياً، لذلك تم قتله. وبين رفاقه كانوا يقولون إنه بطل وطني، لم يتخلَّ عن مبادئه التي عاش عليها وقدم حياته فداء لها. أمي في ذلك الوقت كانت فقط تريد الحفاظ عليَّ وعلى شقيقي، حتى لا يصيبنا ما أصاب أبي.

بعد وفاته سمعتْ أمي عن التصفيات التي كانت تحدث لرفقائه ليلاً في تلك الفترة، وسمعتْ عن الاعتقالات الكثيرة، وعن مداهمة المنازل وأخذ رجالها منها... فرتْ بي وبشقيقي من

صنعاء. عادت بنا إلى "جبل صبر" من جديد. عودتنا كانت كحلم جميل تمنيت -إلى ما قبل عام- أن نصحو منه على صوت أبي عائداً من المدينة، جالباً لنا فاكهة ودفاتر وأقلاماً، ليساعدنا في حل واجباتنا! لكنَّا صحونا على كابوس وفاته مقتولاً دون أن نعرف له تهمة أو سبباً، وكابوس أشد بعد وفاته عندما تزوجتْ أمي برجل آخر ولم يمض على وفاته أكثر من ستة أشهر.

استسلمتْ أمي للظروف. فضلتْ حمايتنا بحب رجل آخر. لكن ما حدث هو العكس تماماً؛ كبرنا مع أم تعشق زوجها وتهب حبها وحنانها لأبنائها منه أكثر منَّا، خشية أن تفقده هو الآخر. كرهتها وكرهتهم جميعا!...

***

أعلم أنكِ الآن في حيرة من أمرك وأمري، وربما مندهشة من ثرثرة بعيدة عما تريدين معرفته؛ لكن ثقي أن معرفة ما جرى في ذلك التاريخ، أغسطس 1968م، تحديداً في أيامه الثلاثة: 22، 23، و24، المشؤومة أو الدامية أو الحزينة، كما يسمونها، وأين كان والدك، وما موقفه، سيفيدك كثيراً.

ثرثرتي، أو ما حكيته لك هو جوهر ما حدث. حياتي ومسارها نتيجة متوقعة لأحداث شهدتُها في طفولتي وحدَّدت مسار حياتي، بل ومسار حياتكِ. ورغم كون أحداث أغسطس أحداثاً خاطفة مثل برقٍ في سماء صيف متجهم، إلا أنها أيضاً كانت جارحة مثل حدّ نصلٍ صقيل مضى في اللحم وقطع العروق وناوش العظم، أحداثاً جارحة تركت ندوباً بارزة على جسد الوطن للعقود اللاحقة، ولا أبالغ لو قلت حتى اللحظة، لقوى سياسية

واجتماعية وثقافية تحولت فيما بينها إلى ما يشبه الصراع المناطقي والمذهبي الخفي من جهة أمام القوى الحداثية والمدنية من جهة أخرى.

كنتُ يومها طفلاً في آخر المرحلة الابتدائية. سمعتُ أزيز رصاصها، واستنشقت رائحة بارودها، ورأيتُ فيضاً من جثث ضحاياها مُلقى في شوارع صنعاء، ومع ذلك لم أستوعب أحداثها، ولم أتوقع موت والدي في آخر أيامها الثلاثة القاسية والعنيفة!

في الحارة سمعتُ الرجال والنساء والصغار يرددون: "إنهم يتقاتلون"، دون أن أعرف من هم، ولا لماذا يتقاتلون!! لم يأبه أحد من اولئك لقلق طفل صغير في أحد أركان الحارة يبحلق في الوجوه عله يجد ما يشفي غليل فضوله ويلقي على روحه السكينة من رعب هؤلاء المتقاتلين المجهولين! علا صوت أحدهم بنبرة حزن وهو يقول: "لقد قُتل "السبع" في بداية شارع 26 سبتمبر، أمام البنك اليمني". وبعد سنوات عرفت أن "السبع" كان والدي، وأن هذه صفته العسكرية، لجسارته وقوته وعدم خوفه منذ أيام حصار السبعين يوماً على صنعاء، وأنه كان أحد القادة العسكريين المختلفين على مسار الدولة الجمهوري وعلى من يتولى الحكم فيها بعد فك حصارصنعاء: هل القبيلة والشيخ أم الشعب الذي ثار ضدهما؟!

كان "السبع" والدي، وليس كائناً خرافياً كما في الأساطير. كان والدي الذي حرمني منه حُسن الظن في الرفاق، بل صراعات

الرفاق، وبشكل أدق: خيانة الرفاق في السلطة وقضاؤهم على كل من لم يخضع لتنفيذ مصالحهم لا مصلحة الوطن.

توجهتُ هلعاً إلى المنزل، سألت أمي عن أبي، لم أره منذ صباح الأمس!... لم تجبني على سؤالي. كانت شاردة، تتمتم بعبارات لم أفهمها، وتدعو الله النجاة للجميع. لم تحتوِ رجفتي باحتضاني أو حتى بتهدئتي! لم تلقِ عليَّ كلمات طمأنينة أو كلمات حانية! لم أكن أعرف أين كان ذهنها في تلك اللحظة! ولِمَ لمْ يعد أبي منذ صباح البارحة!

فجأة تكلمت، منعتني من الخروج، وطلبت إليّ الانتباه لشقيقي؛ لأنها ستخرج لتقضي غرضاً للمنزل، وحذرتني من أن أفتح الباب لأحد!...

تأخرت أمي؛ عندما عادتْ كانت تذرف الدموع بصمت، وتتمتم بالعبارات ذاتها التي لا أفهمها: "لماذا جئت بنا من تعز أيها البطل، لتموت في صنعاء؟! حبك لصنعاء قتلك، عَدَّمَكْ روحك، وعدّمنا إياك!". لم تتمالك نفسها، وراحت تصرخ وتلطم خديها بهلعٍ وتدق بكفيها على جوانب فخذيها بقوة.

هب الجيران إلى منزلنا. راحت النسوة يُصبّرنها على مصيبتها، وهي مستمرة في هذيانها، تشكو وتتحسر في وقت لم يعد فيه فائدة لكل ما تفعله. قالت موجهه كلامها للجميع:

"خرج أهلها منها وهو جاء إليها من تعز سيراً على الأقدام. ضحى بحياته من أجل فك حصارها أولاً ومن أجل سلامتها الآن، فلماذا يحدث له هذا؟! لماذا يموت؟! ومن يستحق الموت يعيش؟!...".

راحت تلطم على وجهها مجدداً وتندبه، بمحاسنه ومساوئه، وكأنها تعاتبه بعد رحيله. لم ينفع نُصح جاراتها لها بالصبر والدعاء والرضا بقضاء الله وقدره. كما لم ينفع تركها على هذه الحالة الهستيرية، حتى لا يصيبها مكروه. وفجأة راحت تصرخ:

"عيالي! اين عيالي؟!...".

كنتُ منزوياً مع شقيقي في ركنٍ بعيدٍ عنهن، نرقب ما يحدث، دون أن نجد لنا من يصبرنا، كجارات أمي، أو يحكي لنا ما حدث، لنطمئن من رجفة هلع أصابتنا مع توافد الناس إلى المنزل!

تقدمتْ أمي نحونا وراحتْ تضمنا إليها وتردد:

"لا تخافا! أبوكما مات؛ لكن أنتما سترفعان رأسه وستعيدان كرامته. أبوكما أراد وطناً حراً لأبنائه جميعاً. أبوكما بطل حقيقي، جاء إلى أرض المعركة برجليه، ولم يفر منها. غيره كثيرون فروا؛ لكن الخونة سيجدون جزاءهم بالتأكيد. ربنا فوق الجميع. ربنا فوق الجميع...". استمرت في ضمنا وتقبيلنا حتى أغمي عليها.

هذا ما توقعته الجارات. نقلنها إلى حُجرتها وبقين معها ما استطعن، وظلت صديقتها الخالة "أم العماد" لتكمل ما بدأته الجارات من الاعتناء بها.

انكفأتُ على ذاتي كشرنقة تقاوم خروجها للحياة، بينما جارتها تساعدها على استعادة وعيها. أخي مشدوه بما يجري، صامت. كلمات أمي ترن في أذنيّ غير قادر على معرفة ماهيتها!...

تخيلتُ أبي أمامي الآن مبتسماً كعادته كلما ناداني قائلاً: "أنت غمدان! سميتك لأني أعشق صنعاء، وعشقت ذلك القصر الغامض المترامي الأطراف والمتعالي الارتفاع، قصر غمدان. أثناء تهدمه وصلتْ حدوده مسافة بعيدة، فأسموا المكان "حده"، حد ذلك القصر كان بعيداً لا يتخيله أحد". يبتسم لي ويعزز تميز اسمي: "سيُعجب باسمك كل من عرف معناه وتاريخه". لن أسمع أبي مجدداً. أعرف أنه رحل. لستُ مثل شقيقي لا أميز الموت من الحياة أو الذهاب من العودة. رحل، مات... أبي مااااات!

كرهتُ شوارع صنعاء. أزقتها كانت تخنقني كلما مررت فيها. حاراتها تحولت إلى عين كبيرة تراقب خطواتي وتحركاتي. عشقتُ سطح منزلنا تلك الفترة، فيه أتأمل أبي يرقبني من السماء، ألعب معه، أحدثه وأبدي له إعجابي بمنظر المدينة من ذلك العلو، مآذن مساجدها السامقة ونوافذ منازلها الملونة وزخارف مبانيها الجميلة وهي تلعب مع الضوء والظل طيلة النهار كانت تبهجني وأنا أثرثر له بكل ما في أعماقي من حزن على فراقه وعلى حالي؛ قبل أن يغادر على سحابة زرقاء وأعود أنا إلى حضن أمي وصمتها معاً.

عبارات وكلمات غامضة سكنتني منذ ذلك اليوم: "صاعقة"، "مظلات"... لكن أكثرها التباساً كان "مناوشات سلاح الإشارة في مجمع الدفاع، العرضي"! واحتجتُ زمناً طويلاً لأفهم "سلاح الإشارة" هذا، بأنه ذلك المكان الذي بدأت بين حوائطه الخلافات، واخترقت أسواره الاشتباكات بين طرفين

اختلفا في طريقة إدارة البلاد، دون أن يعرف الجميع أو حتى البعض ما هي تلك الطريقة!

رويداً رويدا، عاد إليّ هدوئي وحبي لأبي كلما قرأت وكلما سمعت وكلما تحدثت مع منصفين لذلك الزمن، من أصدقائه وممن عاش تناقضات تلك الفترة وعانى فيها مثل أبي تماماً. عرفت أن أحلامهم أُجهضت، ومشروعهم لرفعة اليمن فهمه بطريقة خاطئة قلة من المستغلين لعقول الناس البسيطة ولتشويه الحقائق. جعلوا من الأبطال الحقيقيين جبناء، أمام تلميع أسمائهم وأمام مصالحهم وتقاسمهم للسلطة. عاد المتخاذلون والهاربون من أرض المعركة؛ لكن على جثث الأبطال الذين خدعتهم الوعود الكاذبة! عادوا بتفكير مناطقي بغيض: "لن يحكمنا أبناء المناطق الشعبية ونحن وجهاء القوم..."، في حين أن هؤلاء الشعبيين هم من جلبوا النصر، وهم من صمدوا واستبسلوا حتى لا تقع صنعاء فريسة للناهبين والطامعين باسترجاع الحكم والسلطة. قالوا إنهم "لغالغة" من تعز، ومنهم من قال "براغلة" من إب؛ وهؤلاء دخلاء على صنعاء وعلى كل من انحرف لسانه عن لهجتها أن يخدمها لا أن يحكمها فهم من اليمن الأسفل وعليهم تعليم الناس الدين وأمور الحياة ولا دخل لهم بالسياسة.

عرفت بعد ما حدث لأبي ورفاقه في ذلك التاريخ أن من تمكنوا من زرع تلك الفتنة عادوا بصورة أخرى تناسب مصالحهم الجديدة، وتجعل من أبناء الشعب مجرد خدم لهم ولتوجهاتهم في السلطة وفي نهب ثروات البلد. من طالبوا بأن من حق الرعوي المزارع أن يتمتع بخيرات أرضه ويؤدي واجبه للدولة، ماتوا،

بل غدروا بهم! من نادوا بأن الدولة المدنية هي ما يستحقه اليمنيون سُحلوا في الشوارع واتُّهموا بالعمالة والخيانة! من نادوا بأن الاختلاف رحمة لكن المساواة في الحقوق والواجبات هي طريق السعادة للعيش بسلام تم تأويل كلامهم وترجمة أفكارهم إلى أنها تشبه بالغرب وببلاد الكفار!...

إنها أحداث السياسة العفنة. بعد انتهاء الحرب تخرج الفئران من جحورها والأفاعي من مخابئها لتسير على الجثث وتمتص رمق الحياة الأخير منها. يتحول الجبان الخارج من جُحره المخفي إلى أسد يزأر بأعماله وتضحياته، يريد الغنائم، مبرراً اختفاءه الاضطراري بأنه كان لمصلحة البلد وأن أفعاله في الخارج كانت أكثر فائدة من الداخل.

لن تَجِدِي من يقول لكِ وبصراحة إن كل من هربوا من أرض المعركة هم من أشعلوا فتيل الحرب بحثاً عن المنصب الذي تركوه وحصل عليه غيرهم طمعاً في مستقبل يدَّعون أنه سيكون على أيديهم أفضل من غيرهم.

***

الحقيقة جاءتني في السابعة عشرة من عمري، بعد أحداث أغسطس بعشرة أعوام. وجدته بعد أن غاب عن حارتنا مباشرة بعد مقتل أبي. إنه "العم عبده سعيد". قبل اختفائه كان يبهرني، أنا وأصدقائي، بملابسه المرقطة، وبندقيته الصينية "النصف آلي"، وجزمته الملمعة المنتهية من الأعلى بحزام ناصع البياض. أناقته الاستثنائية بمقاييس ذلك الزمان، وقوة عضلاته المفتولة، وفخره بأنه من قوات "الصاعقة" و"المظلات" التي

يتدرب أفرادها حتى على أكل الثعابين، كانت تتقافز من كل حركاته، وتعبر عنها كل عباراته وكلامه للجميع بلا استثناء.

وجدته بالصدفة مفترشاً رصيف السور الشرقي لـ "مقبرة خزيمة"، لا يكترث لأمره أحد. علامات المرض النفسي واضحة عليه، وثيابه الرثة وأظافره المتسخة وشعر رأسه الذي أصبح كومة من الأسلاك المتشابكة، توضح ألا أحد يهتم به أو مهتم لأمره. رفض الحديث معي في أول الأمر؛ لكنه اطمئن لي بعد أن أعطيته القليل من أوراق القات، التي أصبحت كل حياته ويجود بها عليه كل من يعرفه. وذكرتهُ بي وبحارتنا وبأبي الذي مات على بعد خطوات منه. شعر بالاطمئنان وهدأ قليلاً.

هدأ لكن عينيه غابتا في اللاشيء. زاغ بصره عني. صمت. علامات أسى مثيرة للسؤال وللشفقة في آن. جلستُ إلى جواره محترماً صمته.

حين انكسر الظلال على رصيف المقبرة، هدأت ملامحه. راح يُقطف أوراق القات ويدخلها بين شدقيه بلذة هائلة. زمَّ شفتيه وغابت نظراته في المقبرة التي أمامه. يسند ظهره إلى "مقبرة خزيمة"، وأمامه مقبرة أخرى، إنها مقبرة الشهداء المصريين في اليمن، والذين تجاوز عددهم 105 شهداء من الضباط، و1502 من الجنود؛ لكنها مقبرة نظيفة ومسورة وقبورها مرصوصة بانتظام.

قال "العم عبده سعيد": "معركة الدبابات الحاسمة كانت بين المقبرتين، خزيمة والمصريين. الـ(آر بي جي) كان يُستخدم من سور مقبرة الشهداء المصريين، لإعطاب الآليات القادمة

لاحتلال العرضي الدفاعي. فرقاء متصارعون لتوجيه مسار ثورة 26 سبتمبر...".

صمت.

غاب مجدداً في اللاشيء. تمتم بصوت حزين: "مات عبد الناصر، وماتت معه القومية! مات أبوك لأنه قومي، ومات رفقاء السلاح لأنهم شيوعيون، ومات اليمن تحت جزمة "الجمهورية الثالثة" لمن قالوا عن إنفسهم "إسلاميون"! وضاع في دهاليز الساسة والعسكر! تحول مسار الجمهورية بعيداً عن قومية عبد الناصر وقريباً من أمراء النفط، بعيداً عن أحلام التحرر والانفتاح ومنغمساً في مربعات المناطقية الضيقة والقبيلة والقبلية المتخلفة... وتدريجياً استبدلت الأغاني الفرحة بـ"الزوامل" الحزينة، والشعارات الحياتية بالخطب الدينية، وأسماء الشوارع بالأرقام... ليموت التاريخ في امتدادها وتتشرد الحقيقة قبل نقطة الوصول".

ابتسم ابتسامة عريضة ساخرة وقال: "دخلنا في "زمان بلا نوعية"، كما قال صديقي الشاعر عبد الله البردوني". سألني منتظراً الإجابة: "هل قرأت قصيدة "توابيت الهزيع الثالث"؟". لم أكن قد قرأتها؛ لكنه لم ينتظر إجابتي، وواصل: "لقد قال تداعياته لإغتيال صديقه الدميني، حذر من أن التاريخ سيعيد نفسه مرات ومرات لو لم ننتبه ونقاوم الشر؛ لكنه مات! لديه قبر هنا! هل أدلك عليه؟ يزوره الكثيرون، وكل من يزوره يحضر لي قاتاً وقارورة بيبسي. له أصدقاء ينتشون يوم ذكرى وفاته، يأتون في هدوء مساء صنعاء ويناجونه حتى الفجر. هؤلاء يعطونني

"مشمع بلدي" خمر من حق "حارة الصعدي". أنتشي معهم قبل أن نجهش جميعاً بالبكاء...". زمَّ شفتيه مجدداً وعبس وجهه فجأة وردد بشكل سريع متتابع وتلقائي:

"كنتُ أريد الموت؛ لكني نجوت! وحاولت الموت؛ لكني أيضا نجوت! حتى هم حاولوا قتلي؛ لكني نجوت! أبوك لم ينجُ، وعبد السلام الدميني وأخواه ماتوا، خنقوهم جميعاً وألقوا بهم من أعلى "نقيل سمارة"، وقالوا: حادث سيارة! لقد قالها البردوني وحذر في قصيدته، فضحهم؛ لكنهم لا يستحون!". عاد للصمت؛ لكن كمن يتذكر شيئاً، وردد بصوت جهوري متمرس في إلقاء الشعر ويدعو للإستغراب حال سماعه منه وهو في حالته الرثة تلك:

"تكلم يا غموضُ، هنا رَموْهُمْ
وعادوا قبل حَوْقلةِ المُسَبِّحْ
لهم أيدٍ كأدغال البغايا
وجوهٌ مثل مزبلةٍ تفُوِّحْ
توابيتٌ لها شبقٌ، تأنّى
بها النّجار وانخدع المُصَفِّحْ
ضحايا غيرهمْ يسطون عنهُ
فكيف يحسُّ مذبوح يذّبحْ؟!".

سألني بلهجة حادة: "هل لديك طريقة للموت لأموت؟! أنا هنا لحراسة هؤلاء الأموات ولتسليتهم وللحديث معهم عن مصائر الرفاق، الخونة منهم والأوفياء. لا يصدقون أن زمن الثوار الأنبياء قد أدبر، وأن زمن الفساد قد أقبل...". أخذ رشفة

ماء ومسح بيديه على فمه، صعر خده عني وراح يكمل تناول القات، والغناء بلحن لم أتبينه ولم أفهمه، متجاهلاً كل أسئلتي له؛ لأفهم أكثر.

تكررت زيارتي للعم"عبده سعيد"، وكل ما استطعت فعله هو شراء المزيد من عيدان القات ومن "مشمعات البلدي" من الحارة التي قال عنها، وفك طلاسم ما قاله لي، وربط خيوط الأحداث التي كانت لغزاً لم يحله أحد، أو يكتب عنه أحد. الجميع يتحاشى ذكرها أو تفسيرها، كأنها وباء، تركوا للساخطين عليها وللمعجبين بطرفيها المتصارعين حرية الحديث وإبداء كل الآراء من جهتهم في زمن لم يكونوا فيه، وفي أحداث لم يكونوا أحد أسبابها.

أيكون هذا هو التاريخ الذي يعيد نفسه كما قال البردوني؟! أم هي الحقائق التي يجب أن تظهر مهما طال زمن اختفائها؟! أم هي الدماء التي لا بد أن يعرف الناس من أراقها وعلامَ؟!

في إحدى المرات، وتحديداً قبل تسعة أعوام، كنتُ إلى جواره، انتفض من مكانه وزاغت عيناه للمنظر الذي أمامه. دخلتْ جنازة إلى المقبرة، موكبها مهيب وحزين، رغم قلة عدد المشيعين. شعرت بالحزن يكتسح وجه "عبده سعيد". أخرج القات من فمه احتراماً للجنازة، وبدا لي عاقلاً جداً، وكأنه يعرف الميت وأهله، وكأنّ حالته الرثة تلك لم تكن سوى هروب من واقع لم يتقبله لكنه يعيه تماماً.

كنتِ أنت من المشيعين الذين ظلوا خارج المقبرة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي رأيتك فيها، أثناء جنازة والدك! بعد

المرات القليلة التي رأيتك فيها في القاهرة دون أن تكترثي لي، فقد كانت زيارات خاصة لوالدك في ذلك الوقت، وكنتِ ما تزالين في المرحلة الثانوية. تغيرت ملامحك، فلم أعرفك حينها! حُزنك يومها كان شفيفاً وهادئاً، يشبه حزن "عبده سعيد". ناوشتني الحيرة لأسأله جنازة من هذه؛ لكني لم أفعل! تركته لعالم من الذكريات هجم عليه فجأة من البعيد ومضيتُ دون أن أعلم أنها المرة الأخيرة التي سأرى فيها "عبده سعيد"!

بعد أن رأيتك في مأدبة "الفندم" في دار الرئاسة، عرفت تماماً من أنت، وفهمت لماذا انتفض "عبده سعيد"، ولماذا شعر بالحزن، ولماذا اختفى بعدها! لقد عرفك وعرف عائلتك وتأكد من هو الميت! ربما كان صديقه ورفيق سلاحه! ربما كان شريك معركة وشريك رؤية لبناء وطن ولّى من بين أيديهم ولم يستطيعوا فعل أي شيء له، رغم استبسالهم للذود عنه! لم أرَ "عبده سعيد" منذ ذلك التاريخ، رغم تكرار مروري للبحث عنه حاملاً القات و"المشمع البلدي".

لا أعرف! هل مات؟! هل كان في انتظار وفاة آخر رفاقه ليموت في هدوء؟! ربما! وربما ترك جسده بلا حراك في أحد الأزقة أو في ظلام أحد الشوارع أو عراء أحد الأرصفة!... المثير لسخرية القدر هو لو أنه كان ذلك الرجل في المادبة الذي ضل يراقبني ويراقبك طيلة الوقت ويشبه الى حد كبير"عبده سعيد" بعد نقعه في الماء لمدة ثلاثة ايام والباسه تلك البدلة الفاخرة التي تدل على رخاء العيش!...

واصلت قراءاتي عن تلك الأيام وعرفت أكثر عن تلك الحرب التي كانت في أغسطس 68. قالوا عنها دامية، وكانت كذلك؛ لكنها كانت أيضاً غادرة وظالمة لكل من راح ضحيتها. أبرياء وشرفاء دفعوا الثمن بموتهم دون ذنب، شرفاء أرادوا حواراً لم يتمكنوا منه بعد إلقاء القبض عليهم والزج بهم في غياهب السجون والمعتقلات بتهم لم يقترفوها. والدك كان أحد هؤلاء المسجونين، وحال خروجه قرر الرحيل عن المدينة التي عشقها، والباقي أنت تعرفينه.

*****

هل تعلمين أنه منذ ذلك التاريخ والتاريخ يعيد نفسه بصور أخرى أكثر شراسة وأكثر تدميراً لليمن. تكررت الحكاية في 1977 باغتيال مشروع آخر لليمن كان سيقودها نحو المدنية والحرية والمساواة! تآمروا على من قال: لا للقبيلة التي تنهب حقوق الشعب! قال: لا للثروة التي يتقاسمها القلة على حساب قوت الشعب! من أعاد لليمن ولليمنيين هيبتهم واحترام العالم لهم وأنشأ أول وزارة للمغتربين...!

اغتالوا الحلم من جديد، واغتيل رئيس اليمن إبراهيم الحمدي. تكرر السيناريو، وللأسف كان من السهل دلق ما أرادوه من شر للرجل ومن تشويه سمعة في ذهن الشعب البسيط.

في عهد إبراهيم الحمدي، الذي اعتلى حكم اليمن إثر حركة 13 يونيو التصحيحية لمسار الثورة، في العام 1974، تم تكريمي على أن أبي المقتول في أحداث أغسطس 1968 هو شهيد ضحى بحياته من أجل اليمن واستقرارها وحريتها والحفاظ على

جمهوريتها. وفي عهده أيضاً تم حصولي على منحة دراسية لاستكمال دراستي الجامعية؛ فأنا ابن شهيد! لقد منحني ساعته الخاصة، انتزعها من يده ووضعها بكل فخر في يدي، عانقني وقال: "رفعت رأس أبيك عالياً، وحصلت على مجموع يليق بابن شهيد".

مجموع عال سمح لي باختيار الدولة التي أريدها. اخترت أمريكا، أردت البدء من حيث إنتهى الآخرون في العلم بل وفي الحياة، وقضيت فيها أربع سنوات لدراسة العلوم السياسية. وصلني في أمريكا خبر اغتيال الرئيس الحمدي. كان تاريخاً مشؤوماً: 11 أكتوبر 1977. تذكرت خبر موت أبي وحزنت، كأنّ أبي مات مجدداً. قُتل في ظروف غامضة، هو وشقيقه عبد الله. لم يكن هناك متهمون أو قتلة. بدا الأمر لي في غاية الغرابة! من سيصدق هذا؟! من سيصدق أن رئيس دولة يقُتل وبهذه السهولة؟! يستدرج إلى مأدبة غداء كتلك المأدبة التي دعانا إليها "الفندم"، ويُقتل بدم بارد. فترة حكمه البسيطة كانت علامة فارقة أدهشت العالم بقدرة اليمنيين على التطور والسير على نهج نهضة شاملة، وضعها بثقة وراهن على وعي اليمنيين ليكون أساس الدولة المدنية، وكسب الرهان، وجعل في تلك الفترة البسيطة كرامة للمجتمع وللدولة، وجعل من اليمنيين شركاء في بناء يمنهم كما يحلمون؛ لكنه أيضا زاد من حقد وتآمر القوى الرجعية في الداخل، فتم وأد مشروعه في المهد وتشويه تاريخه السياسي والشخصي!

هل تعلمين أن المفارقة تبدو مثيرة للاستغراب؛ كون وهج هذه الحركة التصحيحية لم يخب يوماً، وأن قائدها المغدور مازال حياً في قلوب الأجيال، رغم محاولة إزالتها من الذاكرة الجمعية، لمن ترأسا البلاد من بعده وعلى أكتافه ودماه، أحدهما مات وتناثرت جثته أشلاء بحادث انتحاري تفجيري مروع، كان اسمه أحمد الغشمي، والآخر "الفندم"، لقد رأيتِهِ البارحة وتعرفين عنه الكثير، ومازال يحلو له إقامة مآدب فاخرة كل عام لأولاد الشهداء والمناضلين والمختلفين معه في الرأي، ليقول بأنه ديمقراطي.

عدت بعد الانتهاء من دراسة الماجستير لصنعاء. كانت قد تغيرت على عكس الصورة المدنية الحديثة التي أرادها إبراهيم الحمدي. تناسل مشايخها، واستقوت قبائلها بنظام جديد وسلطة منحتهم الأرض والبشر معاً. لم أقاوم شيئاً، ولم أتحدث في شيء أيضاً. قدمت بمؤهلي لوزارة الخارجية، التي قبلتْ أوراقي كموظف لديها. بقيت أربع سنوات أعمل فيها بجد وجهد كبير على أمل منحي السفر إلى إحدى السفارات خارج اليمن. هكذا يقول القانون، وهكذا يقول كشف الأسماء الذي فيه اسمي، ليتغير فجأة ويحل اسم آخر محل اسمي وأحرم من السفر، لأبقى أربع سنوات أخرى. لا أدرى لماذا سكتُّ عن حقي! ولا أدري ماذا كانت ردة الفعل التي سيواجهون بها رفضي! أنا لا ظهر لي ولا قبيلة تحميني أو تمنحني حقوقي. أنا "الغلغي" من تعز. اعتقدت أن القانون فوق الجميع؛ لكن ذلك كان في ما درسته فقط، في أمريكا وفي الكتب. أنا الآن لستُ أكثر من "لغلغي" من "اليمن

الأسفل"، اليمن الذي لا بد أن يقوم بخدمة "اليمن الأعلى" ليمارس سلطته دون رقيب أو حسيب.

فعل شقيقي ما استطاعه من دراسة واجتهاد حتى يسافر مثلي إلى أمريكا ويدرس الطب. كان الأول على الجمهورية؛ ومع ذلك لم يُمنح المنحة، وسافر لها ابن أحد الوزراء ينقص معدله عن أخي بكثير. كان الفساد والرشوة قد بدآ يستشريان في جسد الدولة، ويقوضان كل حسن فيها إلى أسوأ ما يكون. لم أستطع عمل شيء له، غير إقناعه بالسفر إلى الدولة التي سيتم إدراج اسمه إليها. رفض السفر؛ أصيب بحالة إحباط واعتكف في المنزل رافضاً حتى إكمال دراسته في جامعة صنعاء.

كانت أمي قد اختارت طريقاً آخر وحياة أخرى، بزوج وعائلة أخرى، فوجدتُني مسؤولاً عن شقيقي وعن علاجه. تعلمت بعدها أن أخذ الحق في هذه البلاد لا يكون إلا بالتحايل. دفعت رشوة، لعودة اسمي مجدداً إلى السلك الدبلوماسي في الخارج، وسافرت بعد ثماني سنوات إلى القاهرة. أخذت شقيقي معي للعلاج. دخل في مرحلة متطورة من الاكتئاب، ونصحني الأطباء بإدخاله مصحة. فعلت ما قالوه، وبالفعل بدأت حالته في التحسن. حاول العودة للدراسة؛ لكنه كان قليل التركيز. فتحت له مشروعاً صغيراً ليتسلى به، يناسبه أكثر: إعداد الوجبات اليمنية في مطعم صغير في قلب جزيرة المنيل وسط القاهرة، وبيعها لليمنيين. كان يقنع المسافرين بإحضار "عرائس" السجاير ومن ثم يبيعها بسعر أغلى ويحصل على مكسب لا بأس به. بدأت أستخدم نفوذي في السفارة وأرسل له مع الحقيبة "قات" ليبيعه

أيضاً للطلبة ليتمكنوا من المذاكرة. أقنعته وساعدته، ومن ثم طور من تلك التجارة وأصبح سمساراً رفيع المستوى، يؤجر شققاً ويبيع شققاً. وأنا كنت أرسل له الزبائن من السفارة ومن الطلبة المبتعثين للدراسة.

***

سمعتُ عن والدِكِ من خلال أصدقاء له ولوالدي. زرتُهُ في القاهرة، وعرّفته بنفسي. عانقني بحنان، وعندما عرضتُ عليه صورة جمعته مع والدي ومع رفيق ثالث لهما تأثر وأنهمرت من عينيه الدموع التي حاول إخفاءها عني. طلب مني تكرار الزيارة، وكنت في أمس الحاجة إليها لسؤاله عن كل ما أريد الاستيضاح عنه لتلك الفترة.

لم يفعل كما يفعل أبطال الأفلام ويتذكر ما حدث ويحكيه لي؛ لكنه فضل ألا أبحث أو أشغل بالي بما حدث. قال إن المهم هو المستقبل الباهر الذي يتمناه لي ولأخي، وألا داعي للبحث عما قد ينكد علينا حياتنا ويزرع في أعماقنا رغبة في الانتقام. تكررت زيارتي لوالدك. رأيتك في بعض الأحيان. لم تكوني مهتمة حتى بالسلام عليَّ، ولم يهتم والدك حتى بأن يعرفك عليَّ؛ وكأنه كان يخشى شيئاً لا أعرفه. عرفت منه أنكِ أيضاً لم تعرفي شيئاً عن تلك الأحداث، وواقعة في الحيرة مثلي تماماً.

عدتُ إلى صنعاء بعد الأربع السنوات في القاهرة، بعد أن عرفت كيف أجني المال، وبعد أن تركت شقيقي هناك يواصل ما بدأه من تجارة. تزوج إحدى الطالبات اليمنيات في القاهرة، وأنجب منها ولداً وبنتين، أعتبرهم أبنائي الذين حرمني القدر

منهم! خدمة بعض الوزراء والدبلوماسيين، بتوفير شقق خاصة لهم وبعيدة عن الأعين، في القاهرة، عرفني بهم أكثر. ساعدوني عند عودتي بتسهيلات لم أكن احلم بها. هم استفادوا، وأنا أيضاً استفدت. نسيت أنني ابن شهيد "برغلي" ورحتُ أبحث عن مصادر سريعة وسهلة للحصول على المال. وفي بلدنا ليس هناك أكثر من السلاح، وليس هناك تجارة رابحة أكثر منه. كونت ثروة لا بأس بها، وشعرت أنه يكفي ما جمعته، خاصة أنه لا ولد لي؛ ولكن المال خير سند.

ضربت بكل المبادئ المدنية التي تعلمتها من أبي ورفاقه والتي قرأت عنها في الكتب عرض الحائط؛ ومنذ أواخر التسعينيات وأنا أستمتع بما جنيت ومستمر في العمل مع الدولة. ولن تصدقي أنني الآن أشتغل مخبراً سرياً لجهاز الأمن القومي في الأماكن العامة أو المجالس الخاصة. أنبش عن الأخبار وأعرف توجهات الناس وانشغالهم بالسياسة أو بالحياة. ومؤخراً صرت أراقب ما يحدث في الفنادق من زيارات ومن زوار مرغوب فيهم أو غير مرغوب فيهم. سياسة قذرة؛ لكنها تجعلني مرتبطاً بالعالم، حتى لو كان ملوثاً. أسأل نفسي باستمرار متى سيخرج اليمن من كل ما يعانيه. هو بحاجة لثورة أخرى تقتلع كل ما لحق به من دمار في منظومة القيم من الجذور وتبدأ من جديد صحيحة معافاة من أي مرض. ثورة تغيير حقيقية لا اعرف إن كان أوانها قد آن؛ أم أنها ستظل من الأحلام.

لو أردت مشورتي في هذه اللحظة وفي هذه الظروف لقلت لك: احترمي رغبة والدك، ولا تسألي عن شيء؛ فما حدث لوالدك

هو صدمة أثرت على مسار حياته، وفضل النجاة بما تبقى له من صبر لاحتمال مصيبته وإبعادك، بل وإبعادكم جميعاً عنها!".

***

غادر "غمدان" وأنا واجمة من وقع هول ما سمعت. كان لا بد من استكمال الحكاية وربط خيوطها؛ فهل سأقدر؟! هل محتويات ما تركه أبي ستقول الكثير؟! هل يمكنني ربطها بعضها مع بعض؟! هل سأتغلب على حالة الشوق والحزن التي تهجم عليَّ كلما اقتربت منها؟!...

الآن أفهم تماماً لماذا فضل أبي الابتعاد، والأهم أنني أفهم لماذا قرر عدم الحديث معي أو مع شقيقي في أسباب الابتعاد. عشنا الحياة الطبيعية ولو بمرارة الغربة، تماماً كما كنا سنعيشها في الداخل بمرارة ما يحدث في الوطن.

ما قدمته لي أمي كان شرائط لم تعد صالحة لسماعها؛ شيء ما أتلفها لا أعرف ما هو. فلمَ الفيديو لا يوجد فيه شيء؟! من الخارج كتب عليه "السيرة الحقيقية للبطل"، دون محتوى! هل تم إتلاف محتواه أيضاً مثل الشرائط وبتعمد؟! أم أنها الصدفة دمرت تاريخاً لم يعد له فائدة كما قال والدي لـ"غمدان"؟!!

الصور كثيرة جداً، لأبي مع رفاق السلاح، معنا، ومع أصدقاء القاهرة.

الأوراق في ظرف غير مغلق هي الأمل الوحيد. وقبل أن أفتحها خرجتُ مسرعة إلى أمي لأخبرها بعطب الشرائط المسجلة وشريط الفيديو. لم يكن لديها جواب. امتقع لونها، ربما حزناً على ما أُتلف! وربما على ذكرياتها! أكدت أنها لم تمسك بها أو تفتحها،

ولا تعرف محتواها، وقد ناولتني إياها كما تركها المرحوم والدي. قالت: "لم أحتج لقراءتها أو معرفة محتواها؛ لأن هذا تاريخ أعرفه تماماً".

عدتُ إلى حجرتي وكلي حيرة مما حدث! وهل حقاً فضل أبي ذلك وأتلفها بذاته؟! أم أتلفها الزمن وعدم الاهتمام بها؟! أم ماذا؟! ماذا؟!

فتحت الظرف الكبير. الأوراق كانت عدد محدود من قصاصات لخواطر متنوعة، وورقة مطبوعة لسيرة ذاتية لشخص يدعى عبد الرقيب عبد الوهاب. الغريب أن هذه السيرة منها ما يقارب المائة وخمسين نسخة! هل كان ينوي توزيعها في احتفالية لتكون بهذا العدد؟! أم كان لديه هاجس الاختفاء وضياع الأوراق ليعمل هذا الكم الهائل؟!

اسم الشهرة: عبد الرقيب عبد الوهاب.
الشهيد: عبد الرقيب عبد الوهاب أحمد الذبحاني.
اليمن، تعز، الحجرية، الشمايتين، ذبحان، ذلقيان الشرف.
تاريخ الميلاد: 1363هـ/ 1943م.
تاريخ الوفاة: 1388/10/27هـ، الموافق 1969/1/24م.
ولد في قرية "ذلقيان", في بلدة "ذُبْحان", في ناحية "الشِّمَايَتَيْن", من بلاد "الحُجَرِيّة", في محافظة تعز. وقتل في مدينة صنعاء، وفيها دفن في "مقبرة خزيمة".
محارب، عسكري، سياسي.

تلقى علومه الأولية في قريته، ثم انتقل إلى مدينة عدن، حيث درس فيها الابتدائية والإعدادية، وعمل إلى جانب ذلك لتوفير لقمة العيش. ولما قامت الثورة الجمهورية التي قضت على النظام الملكي في شمال اليمن عام 1382هـ/1962م، انتقل إثر قيامها إلى مدينة صنعاء، والتحق بالجيش, وشارك في كثير من معارك الدفاع عن الثورة, ثم سافر إلى مدينة القاهرة, والتحق بالكلية الحربية, وتخرج فيها سنة 1384هـ/1964م, كما حصل على دورتين عسكريتين: في الصاعقة والمظلات.

المناصب التي تقلدها:

بعد عودته إلى مدينة صنعاء بعد إكمال دراسته في القاهرة:

1- رقِّي إلى رتبة "ملازم" وتعين قائدا لمدرسة الصاعقة.

2- قائدا لقوات الصاعقة.

3- تعيَّن سنة 1388هـ/ 1968 م رئيساً لهيئة الأركان العامة، إضافة إلى عمله السابق، ورقِّي إلى رتبة "مقدم".

كان مدافعاً فذاً أثناء حصار القوات الملكية لمدينة صنعاء، المعروف بـ"حصار السبعين", وتولى قيادة المحور الجنوبي، فاشتهر إثر ذلك قائداً محنكاً وعسكريّاً شجاعاً؛ غير أن فتنة بين القوى التنويرية الحداثية والقوى الرجعية المتخلفة اندلعت بين صفوف الجيش الجمهوري، وكان على رأس جانبٍ منها، في 22 و23 و24 أغسطس 1968، أسفرت عن مواجهات دامية بين بعض فصائل الجيش. وعقب هذه المواجهات أُبعد مع واحد وعشرين ضابطًا إلى الجزائر، بحجة أنهم كانوا وراء إشعال فتنة

ذلك الصراع الدموي؛ فمكثوا هناك شهراً، ثم عادوا إلى مدينة صنعاء، وعاد هو إلى مدينة عدن، ومكث فيها فترة قصيرة، ثم عاد إلى مدينة صنعاء، فقتل بعد ذلك بأيام. (انتهت السيرة).

دققت في كل النسخ المائة والعشرين علِّي أجد شيئاً مختلفاً أو مضافاً. كانت جميعها النسخة نفسها؛ لكن لماذا كل هذا العدد يا أبي؟! لماذا؟!

القصاصات الأخرى ربما كانت بينه وبينه! أو تعليقاً على حدث شاهده أو سمعه. حاولت ترتيبها وفقاً لما سمعته من "حميد" و"غمدان"، ربما أفهم شيئاً جديداً أو أضيف.

القصاصة الأولى:

"مات البطل. لم يسمع نصيحتي في بقائه في عدن حتى تهدأ الأوضاع. جاء لحتفه. لم يرحموه. قالوا إنه أراد قتل قائد حصار السبعين وقلب نظام الحكم. أطلقوا عليه رصاصهم الغادر. دافع عن نفسه؛ لكنه مات. يده ممسكة بمسدسه، وأصبعه على زناد المسدس. سحلوه إلى التحرير، إلى الميدان الذي كان بطل معاركه والمنتصر فيها. يا لقسوة الحياة! شهامة الشيخ المطري تستنجد بأعماله وتضحياته في سبيل فك حصار صنعاء. يوارى الثرى بعد أن كان في العراء لأيام. أين قبره الآن؟! من يعرف ليدلني! سأزوره، وسأعاتبه أنه جعلنا نفقده وكنا في أمسّ الحاجة لشجاعته وحنكته! من يعرف؟!

إني راحل! لم يعد لي بقاء بعد رحيله وبعد رحيلهم جميعاً!...".

القصاصة الثانية:

"كان عددنا محدوداً؛ لكن إيماننا بما نفعله ضاعف من عزيمتنا ومدنا بقوة جبارة تفوق قوة من كانوا يحاصروننا. هناك للأسف من القادة في صنعاء من ترك أرض المعركة، من هرب منها، من لم يواجه بل فر مثل كل الجبناء بحجج واهية ومهمات وهمية. وعندما انتهت الحرب وانتصرنا وقدمنا أرواحنا فداءً لهذا النصر، ظهروا من أوكارهم، يريدون تذوق نصر لم يكونوا هم سببه، وبدء حياة لم يكونوا صانعيها. لصوص لا تخلو منهم كل الانتصارات، وللأسف الشديد لا يظل سواهم؛ لأنهم قادرون على مسح أجواخ كل من يمكنهم من سلطة أو من منصب".

القصاصة الثالثة:

"الكثير منهم أفاقون. انتظروا حتى مات شهود الأحداث ليكتبوا ما شاءوا. من سيقول إن ما يقولونه افتراء؟! لا أحد! إنهم مزورو التاريخ دائماً... مذكرات آخر زمن. جميعهم وعدوا باستكمال المذكرات، وجميعهم لم يفعلوا، هربوا من الأحداث المهمة، الأحداث الغادرة، الأحداث المشينة لهم والمُدينة لعنصريتهم وطائفيتهم وأطماعهم الخاصة لا العامة، لهم لا للوطن.

لم أجد أي تلميح أو ذكر لإحدى سيرنا الثلاث في مذكرات الأشاوس من العسكريين أصحاب الرتب العسكرية والنياشين الذين كتبوا مذكراتهم، أو حتى في مقابلات الوزراء والسياسيين، ولا حتى في كتابات القضاة أو وثائق قادة الأحزاب أو وثائق وإصدارات نشرت حول 26 سبتمبر 1962 وحول ملحمة السبعين يوما".

القصاصة الرابعة:

"أليس عدم الإنصاف ظلماً كبيراً؟! فما بالكم بعدم إنصاف مضافاً إليه تزييف للحقائق وصناعة مجد وتاريخ من نسيج الخيال لكل هؤلاء المفبركين، الذين صنعوا أوهامهم ولا أساس لها من الصحة؟! والبعض الآخر صاغوا للأجيال، أو بالأحرى للشهرة وتخليد الذكر، تاريخاً مشوهاً يختلف عن التاريخ الفعلي للثورة اليمنية، تاريخاً لم يكن فيه نصيب من الذكر للثوار الحقيقيين والأبطال الأصليين، الجديرين بالتخليد والذكر.

هؤلاء كتبوا التاريخ من وجهة نظرهم، وجعلوه على مقاسهم، وتبادلوا الإطراء، وشهد كل منهم للآخر -كذبا وزورا وبهتانا- بأنه كان كذا وكذا، وهو لم يكن كذا ولا كذا، والمعلومات التي أوردوها عن أنفسهم وعن أصحابهم تفتقر إلى الحقيقة، وما نسبوه لأنفسهم ولأصحابهم من مواقف وذكريات بطولية يعكس أمانيهم فقط".

وفي قصاصة خامسة كانت في صحيفة وتم قصها وإلصاقها بورقة دون ذكر أي تاريخ:

"تجد سيرة النقيب الشهيد عبد الرقيب عبد الوهاب، بطل حصار السبعين يوماً، لدى بعض الضباط المتقاعدين المحبطين، والثوار المبعدين، ولدى بعض المغتربين المشردين، بل وحتى لدى بعض سائقي الأجرة المساكين، وبعض المزارعين محترقي الأجسام من أشعة الشمس في القرى النائية، وغيرهم من الذين أقصوا قسرا عن السلطة أو الجيش وأبعدوا عنهما إبعادا أو غيبوا في السجون المظلمة لسنوات وسنوات بعد أحداث أغسطس

1968، وممن عرفوا هذا البطل وعاشوا معه عن قرب في أحلك وأدق مرحلة من تاريخ الوطن والثورة اليمنية، وخبروا معدنه النقي الأصيل، وناضلوا معه في أكثر من موقع، وخاضوا بجانبه أو تحت قيادته عشرات المعارك في أكثر من جبهة وتعرضوا للموت وإياه عشرات المرات، ثم كان جزاؤهم، بعد أن انقشع الظلام ووصلت السفينة إلى بر الأمان، القتل أو السجن والتنكيل أو الإبعاد والتشريد، وكان ذنبهم الوحيد هو أنهم أحبوا النقيب، رغم كونهم لم يحبوه لشخصه ولا هياماً به ولا تعصباً لعرقه أو لونه أو دينه أو طائفته... إنما أحبوه لوطنيته ونبله وإخلاصه، ولشجاعته النادرة، ومواقفه البطولية التي تجلت في الشدائد والأزمات والمحن التي عصفت بالوطن والثورة، والتي كانت المحك الحقيقي والاختبار العملي الذي انكشفت من خلاله معادن الرجال وتأكدت فيه بطولة الأبطال...".

القصاصة السادسة:

"عبد اللطيف

جرأة ناقصة في ذكر الدول التي ساعدت الملكيين على الحصار، كالسعودية، ومساهمتها الجبانة بالمال والسلاح ووضع خطة للحصار. عدم توضيح الخلافات بين فريق الجمهوريين وفريق الإخوة المصريين قبل الحصار.

حاول دائما أن يمسك العصا من المنتصف في أي خلاف، فلا يكون مع النصف الأول أو النصف الثاني، وهذا أمر يجعل كلا النصفين يعتقد بأنه مع النصف الآخر.

طُلب منه مغادرة صنعاء، فوجد نفسه وحيداً مع أولاده في القاهرة دون مأوى أو سند.

عاد بعد مرور عشرين يوماً على حصار صنعاء، مقتنعاً أنه في الداخل سيدافع عن الوطن، رغم أن خروجه من صنعاء كان مبرراً وبطلب من قيادته العسكرية.

سيدافع عن الوطن وفق قناعته: إما النصر وإما الشهادة.

لم يقل إن الذين فضلوا البقاء خارج الوطن أيام الحصار جبناء وفارون من أرض المعركة. لم يقل إن وجودهم خارج الوطن عكس ما قالوا وبرروا به ضعفهم وجبنهم، وأن حججهم كانت واهية ولا أساس لها من الصحة غير الهرب.

تولى قيادة الحملات لفك الحصار في أهم موقع، وهو طريق "الحديدة – صنعاء"، بجسارة وشجاعة وقدرة على تحمل المسؤولية وحكمة القيادة. دخل صنعاء منتصراً ومبشراً بنصر قادم. وتقبل قرار خروجه من الجيش رغم رغبته الشديدة في استكمال خطة الحصار والاستفادة من أخطائها، وتنفيذ ما تم الاتفاق عليه أثناءها.

اعتبر جُملة أخطاء كان يمكن تلافيها سبباً في أحداث أغسطس 1968، ووعد بكتابة رأيه فيها؛ لكنه حتى اللحظة لم يفعل.

هذه الأحداث يهرب من ذكرها الجميع. يعتقدون أن ذلك درءا للفتنة وعدم نكأ للجروح. أحداث بددت الحلم وقضت على آخر بصيص أمل في حصولنا على اليمن الذي نريد".

القصاصة الأخيرة:

"جميع الأوغاد انتهى بهم الحال إلى وضع مُزْرٍ ومصائب كبيرة وموت غير مشرف، بالقتل أو بالسم أو بحقن هواء في الدم أو خيانات لا حدود لها. سأسمع الكثير في الآتي، وسأؤمن بالعدل الإلهي، ولو بعد حين!!!".

انتهت أوراق أبي. لم أجد سيرته، أو سيرة أحد زملائه. هناك تعمد لإخفاء سيرته وتاريخه من كتبهم ومذكراتهم...

أدركت لماذا فضل الابتعاد! مرارة ما حدث قادرة على أن تهزم أقوى الرجال!

احتجت فترة كمون لاستيعاب الجديد في حياتي، لاستيعاب ماضٍ لم أعش فيه، وحاضر يحاصرني بماضيه. "حميد" ماض وحاضر، "غمدان" ماض وحاضر، أبي ماض وحاضر... كيف أواصل الحياة؟! بعد شوق الحياة في وطن تغربت عنه كثيراً، جاءت الحقيقة مرة، والاستمرار أكثر مرارة!...

جاءتني أمي وقد شعرتْ بمدى معاناتي، قالت: "افعلي مثلي، انسي كل شيء وابدئي من جديد في رسم تاريخ يعنيك ومدينة تخصك ومستقبل تصنعينه!".

احتضنتني؛ لكني كنت فيما يشبه الغيبوبة في عالم لا أعرفه!!!

***

X

"البدات": نساء جميلات، قويات، مغامرات وشبقات، يتعلمن أسرار "البدبدة" من جداتهن، وهي تعاليم تبدأ بصعود الجبل مرة قبل الصبح ومن بعد الغروب لمدة سبعة أيام، ثم تكشف المرأة سوءتها لأول بزوغ شمس لمدة اربعين يوماً. بعدها تغتسل المرأة أربعين ليلة تحت النجوم، ثم تدلك جسدها بورق شجر"الضرو". بعد إنهاء هذا الطقس تملك قدرة مسخ وتحويل أي رجل بعد ممارسة الجنس معه إلى حمار.

(من فصل "اليمن" في رواية "حجر على حجر"، فوزية شويش السالم)

أغسطس الدامي!...

بقيتُ في المنزل أسبوعاً بعد سماع "غمدان". لم أستطع النسيان كما طلبت أمي أو عدم التفكير في أبي وقصاصاته وتفسيرها؛ ومع ذلك عدتُ إلى المرسم. الاندماج في العمل هو الكفيل بمعالجة الانسحاب الجزئي في التفكير، الذي بدأ يؤثر على معاملتي للآخرين فشعرت بي قلقة ومضطربة ومشوشة في آن.

اليوم الثاني لعودتي إلى العمل في المرسم، زارتني امرأة الستارة بعد غياب لم أجتهد في معرفة أيامه. طلبتْ بصوت مستكين رؤية اللوحة التي رسمتها لها. أخبرتها أن تصعد إلى المعرض في الدور الأول حاولتُ جاهدة أن أخفي اهتمامي بها وبغموضها، وتركتها تفعل ما تريد، تطن في أذني اللهجة الغامضة التي قالت بها عبارتها: "وانا ما تشتيش ترسميني؟! قد لبست لش ستارة!" دون أن أجد تفسيراً لها. واصلتُ استقبال بعض السائحين الزائرين للمرسم في الدور الأرضي، وشرح بعض تفاصيل يسألون عنها حول المشغولات اليدوية في معرض البيع الدائم في المرسم. أعطي كل قطعة تصل إلى هذا الركن من نساء المدينة حقها في الثمن، لا أظلم قطعة فنية من الفضة لها تفردها عما يباع في السوق، ولا أحقر تطريزاً لمبتدئة ستتقن ما تفعله ولو بعد حين...

تَوْدِع بعض النسوة ما يجلبنه للبيع بحميمية أراها في أعينهن، كمن يودع حبيباً أو يتخلص من ذكرى حبيب! كم هو صعب إلقاء

تلك الذكريات خارج الروح! كم هو مرير العيش وهي ملقاة على قارعة الطريق كأنها لا تعنينا ولم تكن يوماً جزءاً منا!

"أمي خيرية" عجوز "حارة الأبهر" الطيبة، أحضرت "زنتها" الطاس لبيعها! جِدَّة ألوانها وزهاها لا تعبر عن العمر الذي مضى أو الفترة التي استخدمتها. لم يكن شراء "زنة" الطاس متاحاً لكل عروس؛ إلا لذوي الدخل المرتفع أو من تستغني عن أشياء من ثيابها. زخارفها التي تشبه ريش الطاووس تمنح من ترتديها خيلاءه وجماله المبهر، فتسير في المناسبات وهي واثقة من جمالها. أجابت "أمي خيرية" على سؤالي بأن "زنتها" الطاس كانت للسمرة "الحالية" مع زوجها فقط، ولم تحضُر بها أي مناسبة اجتماعية. السمرة "الحالية" هي ليلة يسيل من جوانبها الوله لممارسة طقوسها، يكفي أن يقول الزوج: "الليلة سمرة، شازيد القات لي ولش"، لينتشي جسمها وتستعد لها. تذهب إلى الحمام التركي للاغتسال، تجهز الماء المبخر بالهيل والزر وتضعه من وقت مبكر في الشُباك الأعلى ذي الفتحات التي تسمح بدخول عليل نسمات الهواء الباردة لتبريده. لا تسمح بنوم الصغار في النهار، حتى يناموا بعد أذان العِشاء مباشرة، لينعما بالهدوء. تحرق ما استطاعت من بخورها الخاص. تبدأ السمرة، يتنادمان ويضحكان ويرقصان حتى طلوع الفجر. تعيدها إلى صندوقها في الصباح بعد أن تكون قد تركتها تتنفس بعض الهواء لإزالة ما علق بها من عرق. تمسحها برفق وتتذكر سبب كرمشة بعض أجزائها في غمرة توحدهما، لترتسم على محياها ابتسامة رضا وتعيدها إلى الصندوق. أما "المَصَر الطالعي" الذي تغطي به أعلى شعرها

فيبدو كالتاج، و"المصر النازلي" الذي يسترخي بدلال تحته ويعلو هامتها، تتركهما معلقين على مسمار الحائط لتراهما كل يوم وتستمر في استجرار روعة تلك الليلة لحين "يخْوَر" زوجها من جديد ويقول لها: "الليلة سمرة حالية، لي ولش".

"أمي خيرية" تريد بيع "زنتها" الطاس لأن الزمن الجميل ولى، مات زوجها، وتركها أولادها، مشغولين كلّاً بحياته. تشعر بالسعادة كلما زارتني ووجدت "زنتها" على حالها. وتستمتع بالإجابة على أسئلتي بإسهاب، وتنسى أنها قد سردت لي تفاصيلها. رفضتْ أن ألتقط لها صورة وأن أرسم لها وجهاً أو هيئة، كما رفضتْ أن أسأل عنها إذا غابت عن زيارتي أو تأخرت.

مثلها الخالة "عزيزة"، أو "أمي عزيزة" كما يفضل مناداة أي امرأة في صنعاء القديمة، بعد أن وضعت الأدوات النحاسية التي كانت في ديوان منزلها لبيعها: "متافل" لبصق رغوة القات الزائدة لمن لا يفضل بلعها، ومباخر مزخرفة بأغطية جميلة ليتسنى لبخور العيد الاحتراق بهدوء وتسلل الرائحة من فتحات صغيرة أغلب فترة المقيل، ومرشات ماء الورد يحلو للبعض المرور بها على الضيوف عند ذكر الصلوات الخمس على الرسول محمد ليكون ختاماً مباركاً له... طلبت مني أن تأتي كل فترة لتلميعها بالسائل الخاص بها لحين بيعها. هل كانت تلمع ذكرياتها التي بهتت؟! أم تستعيد مذاقها؟! تقول إن زوجها هو من طلب منها بيعها. تحول حُبه لهذه الأدوات إلى ذكرى مؤلمة بعد أن منعه الأطباء وأجبره أبناؤه على عدم تناول القات والتدخين حفاظاً على صحته بعد تعرضه لجلطات متكررة نجا منها بأعجوبة. هي

أيضاً تخلصت من كثرة الزوار من أصدقائه، ومن التنظيف اليومي للديوان؛ لكن الديوان أصبح أكثر وحشة بدون زواره من المخزنين. وما يحزنه هو عدم سؤالهم عنه، وبحثهم عن ديوان آخر لتناول القات والسؤال عنه كل حين عنه.

قطعت امرأة الستارة استرسالي في التحديق في ركن المشغولات اليدوية بنزولها من أعلى بعد رؤيتها للوحة. طلبت محادثتي على انفراد؛ لكن ليس اليوم! قالت: "غدا!". وافقت وقلت لها: كما تريدين!!!

غادرتْ يشوبها الارتباك، كادت أن تصطدم ببعض زوار المرسم اثناء خروجها. قدمت اعتذارها لتلك المرأة التي دخلت المرسم للتو وترافق بعض السائحين وعرفت نفسها لي بأنها ناشطة حقوقية وصحفية وترافق ضيوفها الباحثين عن صحة ان هناك انتهاكات للصحفيين وعنف وسجن من قبل الحكومة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي اسمع فيها عن وجود هذه المنظمة بل وعن وجود منظمات مجتمع مدني كثيرة مهتمة في قضايا مختلفة خاصة كالعنف ضد النساء والانتهاكات المتعدية لحرية الانسان والتعبير. قالت توكل - وهذا كان اسم الناشطة-: ان ضيوفها يشعرون بالدهشة من وجود مرسم بهذا المستوى في صنعاء القديمة! ولماذا لا يتم التركيز على اعمال كهذه لترى النور أكثر؟ اخبرتها ان العمل بصمت أفضل من الضجة وأكثر فائدة. ودعتني بعد ان طافت معهم ارجاء المرسم وشاهدت محتوياته وهي تطلب ان نضل على تواصل. لم أجد غير الترحيب بها وبكل ما طلبته.

آه... ما إن غادرت توكل المرسم حتى عدت لامرأة الستارة! إذن، كما توقعت، لغموضها حكاية، ولكلامها تفسير، وإن غداً لناظره قريب.

***

جاءتني امرأة الستارة في اليوم التالي كما وعدت. وقفت أمامها وكلي انشداه من شكلها ومن كلامها. توقعت أشياء كثيرة يمكن أن أسمعها منها، ولم يخطر على بالي ما حكته ولو في الأحلام. كانت حالتها رائقة. أزالت عن وجهها اللثمة الخفيفة من قماش "الملس" التي تجعل من الوجه ناضحاً بالأنوثة والدلال. جميلة؛ لكن قسمات الحزن طاغية عليها! يمسح تفاصيل وجهها تناغم جذاب. وقبل البدء في حديثها أشعلت سيجارة وراحت تنفث دخانها في الفضاء. نظرت إليَّ بهدوء وقالت:

"لا تستغربي من حديثي! ولن أبحث لك عن مقدمات. سأحدثك بكل شيء بصدق وبمحبة لـ"حميد" ولكِ؛ لأنك من أسعدتِهِ!

كانت هذه مقدمة كافية لتجعل مني كتلة من الفضول!

صمتُ. واصلتْ:

شعوري تجاه "حميد" كثيراً ما حيرني. أحيانا أجده أباً حانياً، وأحياناً أخرى أخاً صارماً. أما فترات شعوري بأنه صديق مخلص وصادق فكان لا يفارقني. بل هو في الأصل حبيب، فلم أعرف في حياتي رجلاً غيره، عكسه تماماً، تنقل بين النساء كما تتنقل النحلة بين الأزهار، لامتصاص الرحيق المميز لكل زهرة، أقصد امرأة. في نهاية المطاف كان يعود إليّ يحكي لي عن تلك

الزهرة التي كانت معه. يقول إنني أشبه أمه، التي كانت تعرف قصص والده الغرامية ومع ذلك كانت تستقبله بكل ابتسام. يؤكد لي مراراً أنه لا يمكنه تخيل حياته بدوني!... أنا أيضاً لا أتخيل حياتي بدون "حميد"، رجل عمري! كم أحب هاتين الكلمتين: "رجل عمري"! وكم أحب العمر الذي مضى مع "حميد"!.

اسمي "حورية"، أطلقه عليَّ أبي تيمناً بوالدته، التي أغرقتها جنية بركة الماء الكبيرة في القرية قبل ولادتي بعامين. لم أعرف معنى هذا الاسم وجماله إلا مع "حميد". يردد دون ملل: "حورية روحي" الآتية من الجنة، البشر يحلمون بحور الجنة ولا يعرفون أن حور الأرض ألذ وأشهى. أضاف لي اسماً آخر، هو "مسك"، يقول إني مسك النساء جميعا، وأن ما يتفصد من جسدي من عرق هو رائحة الآلهة التي يريد عبادتها مدى الحياة.

أنا الرابعة ضمن تسعة أشقاء، ستة ذكور وثلاث إناث. فينا من وجد فرصة لتلقي العلم حتى وصل لدرجة الدكتوراه، وفينا الأُمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة. الأربعة الذكور الذين سبقوني بالكاد يجيدون القراءة والكتابة؛ لكنهم يجيدون التجارة والحساب. رفضوا قبل الثورة الالتحاق بالمسجد لتلقي أساسيات القراءة والكتابة وحفظ القرآن، بحجة اهتمامهم بمساعدة والدي رحمة الله عليه في تجارة الفضيات وتنقلهم بين القرى لشراء ما تريد النساء بيعه ومن ثم تهذيبه وتنظيفه وأحيانا إعادة صقله وبيعه. وبعد الثورة رفضوا الالتحاق بالمدارس، بحجة أن أعمارهم قد تجاوزت سن المدرسة وأصبحوا يافعين ولن يتلقوا

تعليمهم مع أطفال. شقيقتاي وجدتا الفرصة للتعليم ولمن يخدمهما طيلة الفترة بمحبة وإخلاص ورضا. كنتُ خادمة الجميع. تزوجتا بعد الثانوية العامة، فهذا أقصى ما يمكن أن يفعله والدي وأشقائي لهما في المدينة القديمة.

سنون عمري الخمس بعد قيام الثورة كانت مناسبة لدخول المدرسة؛ لكن أبي وأمي لم يفعلا. كان عمري مناسباً أكثر لمساعدة أمي في أعمال المنزل وفي تربية أختي الصغيرة وأخي الذي تبعها بعام. لم أشعر بدفء حضن أمي. هي في الأساس لم تكن تحضني أو تدلعني كما تفعل مع إخوتي. وفي كل ولادة جديدة لها كنتُ أتأملها وهي ترضع صغيرها وأسأل نفسي: هل أرضعتني؟! هل حضنتني؟! هل قبلتني يوماً؟! لماذا لا أذكر شيئاً من هذا؟! لماذا لا يهتم بي وبتقبيلي وباحتضاني أحد في هذا المنزل؟! لماذا الكل مشغول بمتطلباته التي يجب أن أحققها له ولا يسألني أحد ماذا أريد؟! لم اسمع كلمة شكر اوحتى سؤالاً عن الحال؟ اعتقدت احيان كثيرة انني كائن غير مرئي لشدة تجاهل كل من حولي لي؛ والا لماذا أسمع كلمات: هاتي، احضري، اذهبي، افعلي... ولا أسمع غيرها؟!

إذا أرادت أمي معاقبة أحد أخوتي تقول إنها ستنزله إلى "حِرّ" الحطب! في حين أنني أنزل إلى ذلك "الحِر" المظلم والمخيف ثلاث مرات في اليوم لجلب الحطب الذي ستخبز به أمي، قبل أن تعلمني كيف أخبز لأقوم بتلك المهمة بدلاً منها! صادقت ظلام "حِر" الحطب، وتوقعت ما هي أصوات الفحيح التي أسمعها وأنا فيه، ولم أشعر بالقهر من عدم دخول الإنارة

إليه إلا بعد أن تم إنارته لشقيقتيَّ. كبرتا وأصبحتا تقومان ببعض المهام لمساعدتي، هذا ما كان ظاهرا للعيان؛ لكن الحقيقة هي أنني كنت أعلمهما كل ما يتعلق بالبيت ونظافته والطبخ والخبز وإجادتها حتى لا تتزوجا إلا وقد خبرتا كل تلك الأمور.

لم يحرمني ارتباطي بأمي وبمساعدتها من فرصة التعليم فقط؛ بل ومن فرصة الزواج! عيوب من يتقدمون لخطبتي، التي يقنعني بها أبي، تزداد يوماً بعد يوم. سكوتي وقبولي لذلك الوضع سكَّن داخلي ولم أعد أتحدث، وأكتفي بإيماءة رأسي وموافقتي على كل ما يقوله أبي وأشقائي.

ماتت أمي وعمر شقيقتي الصغرى ست سنوات، لأتحمل بقية مشوارها في البيت وإدارته ونظافته وخدمة أبنائه، دون أن أبدي أي اعتراض أو تذمر.

صرت امرأة منهوبة، نهبتني المسؤولية من ذاتي ومن شعوري بحقوقي أو المطالبة بأبسطها. نهبني كل من حولي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولم يسأل أحد عما أريد أو كيف أريد الحياة. وحدها صنعاء كانت تمنحني الحياة. وحدها ساعاتي برفقتها كانت تزيل عني كربة الوحدة وتعوضني عن الحنان الذي فقدت. أسيرُ كأميرة في أزقتها، وأبتهجُ مع الناس في صرحاتها، وفي ساعة صفاء روحي وأنا أستظل تحت شجرة إحدى مقاشمها أحلم بمن ينتشلني مما أنا فيه. وحدها صنعاء كانت كفيلة بأن تكون غذاءً لروحي وعقلي معاً.

بعد موت أمي بشهر، تزوج والدي بامرأة أخرى قريبة من سن شقيقي الكبير. لم يشاورنا في الأمر أو يأخذ رأينا، فقط طلب

مني إخراج كل ما يتعلق بأمي من حجرته؛ لأن زوجته الجديدة ستأتي بعد أيام. منذ ذلك اليوم أُصيبت صورة أبي التي في أعماقي بشرخ لم يهتم هو بمعالجته، ولم أهتم أنا بلأمه، تركته مفتوحاً لأتذكر حزني الذي لم يحترمه، ولأتذكر أمي التي أفنت عمرها وشبابها في إسعاده وفي إنجاب الذرية التي يريد، مقابل ثلاثين يوماً وأقل هي كل ما استطاع تقديمه لها من حزن. صرت بعدها ألقي في الشرخ كل ما مر بي من أحزان: نسيان أبي لأمي، سوء معاملة زوجَيْ شقيقتيَّ لهما عندما كانتا تشكوان لي وبمرارة، لا مبالاة أشقائي بي وبمعاناتي وبوحدتي... وجدتني في النهاية أرمي في ذلك الشرخ بأحلامي في الحياة مع كل هؤلاء.

لم يكن لي صديق غير المدينة، عجينة الصلصال التي أشكلها كل صباح كما أريد لأمد نفسي براحة، وبجسور تواصل بينها وبين أعماقي، بعيداً عن كل المحيطين بي. كان آخر من انسلخ عني هي صديقتي بنت الجيران! قالت إن أمها أخبرتها أنني "مخاوية" لجنية أو جني في "حِرِّ" الحطب، وهي التي تمنع الأفاعي والحشرات فيه من إيذائي، وتجعلني أرى الحطب في ظلام الحر الدامس، وتساعدني في أعمال المنزل فأنجزها سريعاً رغم كثرتها، فالبيت مليء بالبشر الذين لم أعد أنا منهم. وأضافت صديقتي كما أخبرتها أمها أنني سأتحول عما قريب إلى "بدة"، وعندما طلبت منها أن تحكي لي ما قالته أمها أجابت بأن "البدات" يتعلمن أصول "البدبدة" من جداتهن، حيث يصعدن الجبل مرة قبل الصبح ومرة من بعد الغروب لمدة سبعة أيام، ثم يكشفن عن سوءاتهن لأول بزوغ شمسي لمدة أربعين يوماً، ثم

يغتسلن بعد أربعين ليلة تحت النجوم وهن يدلكن أجسادهن بورق شجر"الضرو"، ليصبحن، بعد إنهاء هذا الطقس، "بدات"، لهن القدرة على مسخ أي رجل، بعد توحد إحداهن معه، إلى طائع لها ولرغبتها أو تحويله حماراً يغادرها للأبد.

شتاء صنعاء في "حارة بحر رجرج" عرفني بتفاصيل جسمي. البرد يجتاح مساءات وليالي المدينة، أتكور فيها مثل أرنب جبلي تحت الدثار الخفيف وأبدأ بفرك ما أستطيع من جسدي طلباً للدفء. بتعاقب الشتاءات عرفت تفاصيل جسدي أكثر، وتحسست كل جديد كان ينمو له. واستعذبت حالتي وجسدي تحت الدثار، إلى أن داهمتني ذات ليل شتائي تلك الرعشة التي قادتني إلى اكتشاف الأنثى. زادت عذاباتي، وأصبحت حركات جسدي محسوبة ومراقبة ومقموعة: نظرات عينيَّ، تلويح أصابعي، سير قدميَّ، اهتزاز صدري وردفيّ، كل حواسي... شيئان أفلتا من سجن أشقائي في المنزل وحصار الناس خارجه: أذني التي لم يفطنوا إليها فكانت صلتي بالأغاني وأصوات وحركات العالم الذكوري، وروحي التي سكنت روح "حميد" وجسمه... احببت الأغاني الصنعانية بصوت الرجال، كنتُ أشعر أن أصواتهم لي، وحكايا أغانيهم أنا ملهتمها الوحيدة. تمنحني عالم من المتعة والخيال: أحمد السنيدار، علي السمة، علي الأنسي، محمد الحارثي، انتظر جديدهم بلهفة عاشق. تؤنس وحدتي وانا اقوم بمهامي الكثيرة في المنزل وخارجه. أغني ما سمعته لحميد، انصاته لي يدغدغ كل مشاعرالود والرغبة معاً،

فاشعره كل عالمي الذي استحق أن تسكنه روحي دون ان يكون لأحد سلطة عليَّ.

"حميد" مثلي، المدينة صديقته وحبيبته وعشيقته التي يهوى. هذا ما وحدني معه، وهذا ما جعلنا نقضي هذه الفترة في أعطاف مشاعرنا وفي أعطاف المدينة القديمة التي جذرنا فيها كل تاريخنا معاً. كبرت مع "حميد"، وكبر معي. أشبعت رغبتي مع "حميد"، كما أشبع رغبته. تبادلنا الأدوار؛ لكنا في النهاية كنا شخصاً واحداً يحتفظ بالسر في قلبه.

سكنني "حميد" منذ اكتشافي مراقبته لي وأنا أقوم بغسل ملابس إخوتي في "الكظامة" بعد أذان الفجر. وفيها يغتسل الرجال قبل ذهابهم إلى المساجد ومن ثم تتوجه النساء قبل شروق الشمس لغسل ملابسهن في "غيل آلاف" الذي كان يميز مدينة صنعاء بتدفق جريانه من أعلى قرية "حدة". كنتُ أول من يتواجد قبل مجيء النسوة، لذلك أنهي مهمتي وأخلع ملابسي وأستحم بذلك الماء الذي لم أكن أشعر ببرودته إلا بلسماً لكل ما أعانيه.

اقترب مني "حميد" كهلام في غبش ذلك اليوم متأملاً ومكتشفاً جسمي. أعتقد أنه كان في الثانية عشرة من عمره، وأنا أكبره بعامين أو ثلاثة أعوام. أنهى تأمله بالهرب، وأنهيت دهشتي بارتداء ثيابي وحزم الملابس التي "صبنتها" وعدت إلى المنزل. ليلاً داهمتني عوارض شعرتها لأول مرة، ونبض لذيذ اعترى أعضائي الداخلية، وأنا أفكر بنظرات "حميد" ودهشته من رؤية نصف جسمي العاري في "الكظامة". تجولت يدي

منتشية تحت غطائي الوثير. شعرت بعدها بدفء سرى في جسدي ونمت وكأني أولد من جديد.

تكرر تلصص "حميد" لفترة طويلة دون أن يجرؤ على الاقتراب، وتكرر استمتاعي بتلصصه في "الكظامة" فجراً، وليلاً أيضاً. فاجأته يوماً قبل أن أخلع ملابسي للاستحمام وطلبت منه الاقتراب. لم نفعل في غبش ذلك الفجر غير اكتشاف ما زاد في أجسادنا وتحسس ما كان نافراً أو غائراً. في المرات الأخيرة لم يكتف "حميد" بتلصصه، بل ورافقني حتى باب المنزل، ثم غادر دون أن يتكلم. تلاشت تلك اللقاءات أثناء حرب السبعين يوماً حيث قل استخدام "الكظامات" الثلاث الموجودة على حدود سور مدينة صنعاء القديمة، الأولى القريبة من "مقبرة خزيمة"، والثانية بالقرب من "باب السبح" أمام "مسجد قبة المتوكل"، والثالثة في "باب شعوب"، إلى أن تم ردمها جميعاً وشق اول شارع اسفلتي"شارع علي عبد المغني" عليها.

بعدها لم يكن صعباً اكتشاف مكان جديد لنا. الفرز في العلاقات الاجتماعية سهّل ذلك؛ فالكبار من الرجال بعد أذان العصر مشغولون بمقايل القات، والنساء مشغولات بـ"التفرطة" اليومية في البيوت، التي لا تخلو مناسباتها من موالد وأعراس وتعازي موت، من وقت العصر حتى المغرب. والأطفال تائهون وحائرون ومستمتعون باكتشافاتهم الذاتية بين أزقة المدينة وحاراتها وأعطاف منازلها الدافئة.

تحت شجرة التوت الوارفة الظلال والتي كانت تغطي كل من يتغلغل بين أوراقها، كانت لقاءاتنا أنا و"حميد". استمرت

سنوات طويلة. نَمَتْ فيها رغبتنا، حتى أصبح الخريف الذي تسقط فيه أوراق الشجرة من أسوأ فصول السنة لديَّ، وفي خريف قاسي أخبرني "حميد" أنهم سيغادرون المدينة إلى بيت في صنعاء الجديدة، ليتضاعف حقدي على ذلك الفصل الباهت أكثر وأكثر.

مات أبي وقد تزوج ثلاثة من أشقائي، وأكملتُ مهمتي في العناية والخدمة مع الباقين حتى تزوج الجميع، عداي. خرجوا من صنعاء القديمة تاركين لي منزلنا في حارة "بحر رجرج"، الحارة الملاصقة لسور صنعاء في جهتها الجنوبية. أتناوب على زيارتهم ورؤية أبنائهم، وأرفض عروضهم عليَّ بالبقاء في منازلهم ولو لأيام؛ لكني لا أرفض أبداً ما يجودون به عليَّ من مال، امتناناً منهم وعرفاناً بصنيعي في تربيتهم على حساب أحلامي في الاستقرار والحياة في ومن أجل عائلة تخصني وحدي.

عندما أخبرني "حميد" أنه سيتزوج كان كمن يخبر صديقته لا حبيبته؛ فقط ليشعرني أن لقاءاتنا، التي تحولت من وقت العصر في طفولتنا إلى وقت ما بين المغرب والعشاء، تحت شجرة التوت ذاتها في "مقشامة الوشلي"، ستقل! أخبرني أيضاً أنه لم يتخيلني ولم يتمناني زوجة؛ لأن ما بيننا من حب ورغبة وشغف سينهار بل سيقُتل لو تحول إلى زواج. هكذا قال له أبوه في سن مبكرة، وهكذا يطبق نصيحته الغالية: " العشيقة هي العشيقة، والزوجة هي الزوجة، وكلاهما بالقدر ذاته والمكانة الرفيعة في القلب لمن يعرف قيمة ما يفعل، وإهانة إحداهما هي

إهانة لذاته أولاً". أنهى حديثه بقبلة واحدة فقط، في حين أن لقاءاتنا تحت الشجرة لم تكن إلا لتبادل القبل. قبلة "حميد" مشبعة للرغبة، لا تترك خلية في جسمي إلا وتبعث فيها الحياة.

العشق لا يعرف الصعاب. لا يعترف بوجودها في الأصل. لا يهمه حلكة الليل أو غبش الفجر؛ المهم هو اللقاء والتصاق حياتهما معاً، كما يشتهيان، في مأوى لا يجمع سواهما. بعد زواج "حميد" وشعوري القاتل بالوحدة، أصبح مكان لقائنا هو منزلي. لم أكن أهتم بما سيقوله من سيراه خارجاً أو داخلاً إلى منزلي. كما لم أبحث عن مسميات لعلاقتي به، ولا عن ورقة تثبت شرعية علاقتنا. كل ما كان يهمني هو شعوري بحب ما بيننا مني ومنه، وتفانينا في الوصول إلى السعادة بطرقنا المبهجة الخفية عن الأعين وعن فضول الناس.

يمنحنا الحب الجرأة لمواجهة ذواتنا ومواجهة الآخرين، كما يمنحنا الخوف من القضاء عليه بتلك الجرأة. لذلك لم نستفز أحداً بعلاقتنا، وتركناها مجهولة وغامضة كغموض تلك المدينة وغموض أساطيرها وحكاياتها التي يشيب لها الولدان ويتناقلها الناس كأنها من أعمال الجن الخارقة أو الإنس المسحورين. كان خروج "حميد" في الفجر ودخوله في بعض المساءات لا يوحي بأكثر من ناسك متعبد في محراب المرأة العانس "المخاوية" للجن منذ صغرها في ذلك البيت ليؤنس وحدتها ويبهج وساوسها بعد أن تركها أشقاؤها الثمانية نهباً للمدينة القديمة، وأصبح كلٌّ منهم مشغولاً بحياته الصاخبة في صنعاء الجديدة. تحول لغز لقاءاتنا إلى أسطورة يستمتع الناس بتناقلها حتى ولو بوشوشة

لا تكاد تخرج من حلوقهم؛ يخافون أذية "البدة" التي قد تسخط عليهم فيصبحوا لها عبيداً، كالإنسي الذي يحرسها الآن، أو تحولهم إلى كائنات أخرى يمكن أن تكون أي شيء إلا أن تكون من البشر. تحولتُ في نظرهم إلى "بدة" لا يريدون إيذاءها أو تناقل أفعالها، بل العيش معها بسلام.

لم أستطع أن املأ قلبي بالإيمان الديني لكثرة تدخل البشر فيه، لكأني بهم أفسدوه. قلبي خاوياً منه كإناء نحاسي تدخله ريح الحياة فيصددر أنيناً جارحاً. كان لابد أن املأ قلبي بشيء فكان الحب. جنته وناره أقرب من حبل الوريد.

هذا هو "حميد" في حياتي! ألم أقل لكِ إنه رجل عمري. قبِلت بحبه وبتناقضاته وبتقلباته. علاقة غريبة؛ لكنها حدثت! علاقة لم يجرحني فيها أو يشعرني بعدم قيمتي لديه! علاقة أمان بوجود رجل في حياتي لا يعرف عنه أحد شيئاً، وغموض حياتي المحير لسكان الحارة لم يكن يعنيني بقدر ما كان يعنيني "حميد" وراحته معي ولي. استمتاعنا بتلك الحياة منذ طفولتنا واكتشافنا لأبجديات الرغبة وبقاؤنا معاً كل تلك الفترة، هي الحياة التي لا أعرف غيرها.

أصبحتُ واحدة من نساء "حارة بحر رجرج"، الحارة التي تخشاها نساء صنعاء القديمة بسبب ما كثر حولها من أقاويل نسائها الغواني الجميلات، آسرات قلوب كل من رأوهن، وعاشقات كل من نال استحسانهن من الرجال. لا يوجد أحد لم يسمع بـ"حارة بحر رجرج"، كما لا يوجد أحد، من نساء

ورجال، يلج "باب اليمن" إلا ويلتفت يساراً متسائلاً عن الحارة في أعماقه أو راغباً في المرور بها واكتشاف ما يُحكى عن قرب.

لا يهمني إن حدّثتِ "حميد" بقدومي وحكيي لك عن تفاصيلنا التي لا يعلمها أحد غيرنا؛ لأن هذا من أجله. ظهورك في حياته أربكه وأسعده في آن. حكى لي كل ذلك ببساطة، كما حكى لي يوماً من الماضي أنه قرر الزواج. ألم أقل لك إن علاقتنا لن يفهمها أحد؟! لذلك لا تندهشي لو جئتك يوما راجية ألا تتركيه، وأن تفهميه كما فعلت أنا.

"حميد" الآن يريد أن يستبدلك بكل هذا. لم أخبر أحداً عن سري هذا، وأقوله لك لأن هناك ما هو مختلف فيك عن سائر نسائه. شغفه بك ورغبته فيك كأنثى لم أجدها في علاقته بغيرك. هكذا وضعتك الأقدار في طريقه كما وضعته الأقدار في طريقي رحمة بي من الظروف التي فرضت عليّ ولم يكن لي فيها خيار أو حتى قرار.

"حميد" في أغواري مذ عرفك لم يعد محباً لما يفعل كالسابق أو صادقاً معي كما تعودت منه. ينتقم لا أعرف ممن! هل مني؟! أم من ظروف حرمته منك؟! مذاق انتصابه كاذب، بلا رغبة لوصول الذروة! المرأة تعرف صدق ما يلجها من الرجل. تستقبل لذة قوته النابعة من الرغبة برغبة مماثلة وبانقباضات متعة متتالية تسبق رعشتها المبتهجة به. تعرف أن لرائحتها عبقاً يلتهمه ويسري في أوصاله حياةً، لأنه أصدق ما يخرج منها له، وأن لبياضها المندلق والمتدفق نشوة باختلاطها بمائه في آن، قبل سَكينة الاخضلال لعالم رغبتهما اللا متناهي.

"أنتِ الحال وأنت السكينة"، إذا سمعت هذه الكلمات من "حميد" فاعرفي أنك المرأة التي أراد أن يعيش معها ما تبقى له من العمر؛ لأنه كان يرددها دون كلل أو ملل كلما أبهجني برؤيته وكلما أطفأ نار شوقي ورغبتي وكلما غادرني على أمل اللقاء. ما أؤكده لك أنك الآن ساكنة في فؤاده، أكثر من سكني فيه. وجد فيك كل ما لم أستطع أن أفعله معه في المدينة. حياته معي في المدينة كانت تحت ظلال الأشجار وبين أوراقها، وانتهت بين أربعة جدران، بينما حياته معك في المدينة كان ومازال في جسدها وروحها معاً، تتنفسان هواءها بعمق، تتلمسان جدران منازلها، تسيران بعلانية في أزقتها، تجاهران بعلاقة قد تكون أو لا تكون وكأنها من حقكما، ضاربين بكل ما تعارف عليه في المدينة من عادات وتقاليد عرض الحائط.

استمرت علاقتي بـ"حميد" لأنها تحررت من الغيرة المعروفة بين المحبين، رغم شدة حبي له وشعوري بحبه. تحررت من الالتزام اليومي. هل أقول إنها اعتمدت على الشوق بيني وبينه وعلى لهيب الانتظار لممارسة حرية وقوة الرغبة ومتعتها في آن؟!

"حميد" أصبح لا يفرق بين امرأة عابرة بالفؤاد وامرأة ساكنة في الفؤاد. بعد أن عرفك "حميد" يريد تحويلي إلى عابرة، وهذا لن يكون أبداً! لن أقبل عبور "حميد" بعد أن عشت سكنه وسكينته".

***

أنهت امرأة الستارة حديثها. كنت واجمة. لم أسألها أو أعقب على كل ما قالته. لملمت الستارة حول جسمها وأدخلت سجائرها "الروثمان" إلى حقيبتها السوداء وغادرت. لم تنتظر ردة فعلي أو حديثي؛ كمن ألقى من على كاهله حملاً ثقيلاً وفَّر هارباً لا يعلم إلى أين!

قررتُ في مكاني سارحة في تلك الحياة التي عاشها معها "حميد"، وتخيلت تلك اللحظات التي خصها بها! ولوهلة مرت كالبرق تمنيت تلك الحياة التي عاشتها معه وله كما قالت. كأنَّ الأمر لا يعنيني! وكأنَّ من حكت عنه ليس "حميد" الذي أعرفه وأحبه! بل كأنَّ الحكاية ليست سوى أسطورة لتلك "البدة" التي سكنت "بحر رجرج" وجعلت نسوة الحارة يخشين على أزواجهن منها. سرحتُ في أسطورة "البدات" مدهوشة من تفكيري، ومن ردة فعلي، ومن أمنيات غوصي في حياة لم أعشها، وفي تاريخ أتمنى استعادته. حسدت "مسك" أو "حورية"، وتمنيت لو أنني "بدة"، "بدة حميد" وحبيبه ومعشوقته. لم أُثَر أو أحنق أو أشعر بالغيرة. كل ما كان يؤلمني هو إخفاء "حميد" حكايته مع تلك المعشوقة الحورية التي لن يزول حبها من قلبه مهما فعلت.

الرجل الصادق في مشاعره يحتفظ بعشقه في جوفه. يبتلع عشقه كل مرة يرى فيها عشيقته ولا يخرجه إلا لها. الحديث عنه ينتقص عشقه وهو يريده كاملاً.

لم يحدثني عنها؛ لكنه فعل وحدثها عني. أنا العابرة في حياته، رغم كل ما أخبر به "حورية" عني وعن حبه لي. أنا

العابرة، وهذا ما يحزنني الآن، بل هذا ما يقتلني! هل أستحق هذه الصدمة في أول تجربة حب أمرُّ بها؟!

فجر اليوم التالي استيقظت كمن مسه جان وتولى السير به إلى حيث يريد. توجهت إلى "حارة بحر رجرج" باحثة عن بيت "حورية"، عن "مسك حميد" وحياته، عن المرأة التي تنقصني، وربما عن الرجل الذي فقدت! لم أجدها. دقي على الباب في تلك الساعة المبكرة أزعج الجيران وأثار انتباه المارة. في انبلاج الضوء الشفيف رأيت على الباب عبارة: "هذا البيت محجوز من قبل محكمة الأمانة حتى يتم البتُّ في تركة المرحوم محمد عبد الله...".

وقفت واجمة. التقت عيناي بامرأة مارة في ذلك الفجر تجاوزت منتصف العمر، قصيرة لدرجة أن الستارة التي ترتديها نصفها منسحب خلفها. لا تضع لثاماً على وجهها، لذلك لفت انتباهي تلك الهالة التي تشع من وجهها وتبعث على الطمأنينة. وجهت كلامها لي: "لا تتعبي نفسش بدق الباب يا بنتي! صدقيني ما عدرجعش البدة، ما ابسرناهاش من أيام. كانت تتجول في الحارة بملابسها الزاهية كأنها في جبال قريتها، ما لبستش يوم سوادنا، ولم تخرج من حارتنا إلا في أوقاتها المفضلة بعد الفجر أو قبل المغرب. ما عترجعش؛ قد لبست السواد، اتشحت به، وما خلتش حتى عيونها لتبسر الطريق. ما عدرجعش "بدة بحر رجرج"، صدقيني ما عترجعش!".

أين اختفت "حورية"؟! وهل لي الحق أن أناديها بـ"مسك"، كما فضل "حميد" تسميها؟!! هل طردها أشقاؤها من المنزل؟! هل

اكتشفوا أنه أكثر قيمة من منازلهم الجديدة فقرروا استرداده بعد أن وهبوه لها تعويضاً عن عمرها الذي سرقوه وشبابها الذي ولى؟! أم تراها الآن في منزل "حميد"؛ لجأتْ إليه لينقذها من ظلم الحياة؟! أين أجدها؟! ولماذا جئت أبحث عنها في هذه الساعة المبكرة؟! هل حقاً زارتني البارحة وحكت لي ما حكت من قصتها مع "حميد"؟! أم أنني حلمت بكل ذلك؟! يا إلهي! أشعر رأسي يكاد ينفجر.

عدتُ إلى المنزل. شعرت بوهن في جسدي. أرتجف من البرد وأهذي من الحمى. تهاوت أمنياتي، وضاع حلمي بحياة طالما تمنيتها ورسمت تفاصيلها مع "حميد"، رغم كل ما فعله معي في السابق إلا أنه كان هناك بصيص أمل في تغييره!. حارت أمي في هذياني. حاولت تهدئتي، دون أن تخوض في تفاصيل ما جرى. فضلتْ بعد احتضاني وتهدئتي لدقائق أن تتركني غارقة في دموعي، أنسج من أحزاني طوق نجاة.

***

بعد أيام من بقائي في المنزل غشاني فيها حزن شديد وعدم رغبة في الحديث أوالعودة للعمل في المرسم، جاءتني أمي تحمل ظرفاً مغلقاً. ناولتني إياه وهي تقول إنه كان في أسفل حقيبة الأوراق الخاصة بأبي والتي أعطتني إياها في السابق. عللتْ عدم رؤيته في حينه بأنه تدحرج بين هيكل الحقيبة وقماشها من الداخل.

ليس أمامي سوى تصديقها، ودحر أي فكرة تقول إنها أخفته عني ولم تشأ أن أطلع عليه وفكرت أن شغلي به في حالتي السيئة هذه هو أفضل من إخفائه عني. هل كانت هذه رغبة والدي أيضاً؟! ولماذا هذا الظرف بالذات الذي أخفته عني طيلة التسع السنوات

الماضية؟! وهل هناك ترتيبات أو وقت محدد كانت بينها وبين أبي لتسليمي إياه؟! لا أعرف! أسئلة دارت في خلدي وأنا أتناول منها الظرف وأضعهُ على الدرج الملاصق لسريري، والذي كتب عليه: "لصباح عمري الذي لم تغب شمسه يوماً".

ما إن غادرتْ أمي حجرتي حتى نهضت وكلي فضول لمعرفة ما تحويه تلك الرسالة الطويلة. لم تكن صعبة الفتح، وكأن أحداً قرأها قبلي. خط أبي المتوسط الحجم كان أول ما استقبلته عيناي. لم أتمالك نفسي، فأجهشت بالبكاء واحتضنت الرسالة كأني أحتضن أبي في هذه اللحظة، وكأنه سيبدأ في حديثه الحاني معي كما كان يفعل. ترى ماذا في رسالتك يا أبي؟!

بدأت القراءة بلهفة:

"صبحية، ما أطلبه منك قبل قراءة هذه الرسالة هو مسامحتي على الحياة التي قررت أن تعيشيها بعيداً عن وطنك وأهلك. اعتقدت أنك ستكونين مثل أغلب الصغار القانعين بما يختاره الآباء لهم؛ لكن هذا لم يحدث معك، منذ دخولك المدرسة واكتشافك ذلك العالم المختلف عما أنت عليه في المنزل، عندما أخبرتك المدرسة أنك يمنية ولست مصرية، عدتِ يومها لتسأليني: لماذا لا نعيش في اليمن؟! لم أجد ما أرد به عليك في حينها، واستطعتُ التملص من عقلك الصغير ومن براءتك في قبول أي إجابة. أنا الآن سأجيب على سؤالك. أعرف أنني لن أكون أمامك لتسأليني عما قد يثير في نفسك أي حيرة؛ لكن هكذا أفضل. خانتني شجاعتي مرات عديدة حاولت فيها أن أفعل ذلك وجهاً لوجه.

سأبدأ معك من اللحظة التي قررت فيها إنهاء عزوبيتي والزواج، بعد النصر الذي حققناه وفككنا حصار صنعاء بملحمة سيذكرها التاريخ لكل الأجيال. عندما رأيت والدتك، في منتصف الحصار، وهي تحدث صديقاتها بصوت صارم قائلة: "صنعاء هي حقنا، ومصنع الغزل والنسيج حقنا، والدفاع عنه واجبنا؛ لأنه مصدر رزقنا ومستقبل عيالنا..."، قررت أن تكون هي شريكة حياتي. تناوبت والدتك والعاملات في المصنع على حمايته. حملن السلاح ورابطن في حراسته وحمايته بردم معظم أجزائه بالتراب حتى لا يتأثر بأي تفجير قد يطاله. ليست هي فقط من فعل ذلك لصنعاء، بل إن والدها وأشقاءها تطوعوا في المقاومة الشعبية وحملوا السلاح ودافعوا عنها حتى النصر.

ذهبت لخطبتها؛ لكن للأسف قالوا إنها متزوجة! زوجها مختفٍ منذ أول عشرين يوماً في الحصار. لا يعرفون إن كان حياً أو ميتاً. كثيرون في تلك الفترة لم يعودوا. ربما تلقى رصاصة غادرة وهو يؤدي مهامه في أحد محاور القتال! أوربما تلقى قنبلة هو ورفاقه فانتهوا جميعاً!...

انتظرت لمدة أربعة أشهر دون أن يظهر ذلك الزوج. بعدها وأمام إصراري وافق والدها على تزويجي إياها. نعيم الحياة الذي وهبتني إياه أمك كان يخفف عني وطأة قسوة الحياة في تلك الفترة.

والدتك مثل أغلب نساء صنعاء، جمالهن آسر للفؤاد، متفانيات في خدمة بيوتهن وأبنائهن وأزواجهن. لدلالهن نكهة خاصة، ولغنجهن في لحظات الحب سر جذاب يوقعك في عشقهن

حتى آخر العمر. ما أضافته والدتك هو قدرتها على تحمل قرار الغربة، وعلى احتمال تناقضات رجل عاش أسوأ فترة في حياته يعاني من خيانة الرفاق، ومن عدم الشعور بالأمان داخل وخارج وطنه. ومع ذلك لم تشعرني يوماً بامتعاض أو ندم على ما تركته خلفها، وقبلت الحياة التي اخترتها لنا جميعاً.

ستقرئين عن صراعات الرفاق في تلك الفترة في الكتب. سيمر عليك تواريخ محددة لأحداث لم يتكلم عنها أحد رغم مرارتها، ستحيرك كما حيرت الكثيرين؛ لكن ما يهمني أن تعرفيه أن ذلك الصراع لم يكن مناطقياً أو مذهبياً كما تم الحشد له ليثبت في الذاكرة الجمعية لليمنيين، بل إن جوهر الصراع كان في خشية القوى التقليدية من قوى الحداثة والمدنية التي أظهرها الشباب في الجيش وفي نسيج المجتمع أثناء الدفاع عن صنعاء. تلك القوى التقليدية كانت أجبن مما تتخيلين. هي التي هربت من أرض المعركة بحجج واهية إلى محافظات أخرى. استقبلت الحديدة رئيس المجلس الجمهوري وكل من استدعاه للقيام بمهام وطنية وهمية. كما استقبلت سوريا ومصر والعراق من ارسلهم بذات الحجج الوطنية الكاذبة التي كانت في جوهرها هروب من ارض المعركة. وبدلاً من أن تبدي خجلها من العار الذي قامت به فعلت العكس تماماً؛ عادت بصفاقة تطلب العودة إلى مناصبها السابقة! وكأن ما فعله الجيش والمقاومة الشعبية كان من أجلها ومن أجل مناصبها لا من أجل اليمن وإنقاذ صنعاء!

لم أجد في مذكراتهم، التي أعتبرها وقحة، ذكراً لهؤلاء الجنود الذين دافعوا دون قيد أو شرط عن الوطن، ونسبوا الكثير

من الأفعال لهم وكأنهم هم من دافعوا عن صنعاء وانتصروا، ويريدون المكافأة! هذه الصراعات استمرت بعد فك الحصار لمدة ستة أشهر، وأدت إلى أحداث أليمة وحزينة ومؤثرة في حياة اليمنيين حتى اليوم تُعرف بأحداث أغسطس الدامية 1968م. تصارع الرفاق بعد أن اتفقوا. غدر وخيانة ممن عاهد ووعد بالإصلاح السلمي، دون الاغتيالات، ودون القتل أو الملاحقة...! مؤامرة مدبرة لوأد مشروع اليمن المدني الحديث.

كنتُ ممن وقع عليهم هذا الظلم الكبير في تلك الأحداث. تم اقتيادنا للسجن دون تهمة ودون تحقيق. أرادوا كسر شوكة المدنية التي قالوا إننا لا نعرف خطورتها على اليمن رغم انتماءاتهم لأحزاب سادت تلك الفترة وولائهم لدول غير اليمن أغدقت عليهم الأموال. تم تقليم أظافر كل الأحزاب الوليدة في تلك الفترة، بسجن أفرادها ومؤسسيها. وجدنا أنفسنا بين جدران "سجن القلعة" دون أن يعلم الأهل أين نحن!

كانت والدتك قد بدأت تشعر بأعراض الحمل عندما تم اقتيادي إلى السجن حال خروجي من باب سينما "بلقيس" في ميدان التحرير التي كنت أشاهد فيها فيلم "زوربا". تصوري أنه في تلك الفترة المبكرة من أواخر الستينيات كان في صنعاء اضافة لسينما "بلقيس" السينما "الأهلية" في باب شعوب. وسينما "الشعب" و" الثورة" كانتا في الهواء الطلق. في حين دخلت صنعاء الألفية الثالثة دون سينما او مسرح.

لم أرَ شقيقك "نصر" عندما وُلد، وسُمح لوالدتك بالزيارة بعد أربعة أشهر من الولادة. كانت قد أجلت تسميته وطلبت مني

أن أفعل، فسميته "نصر" تيمناً بنصرنا الذي يجب ألا يخبو بريقه في ذواتنا وذوات الأجيال.

خمسة عشر شهرا في "سجن القلعة"، الذي يطلقون عليه حالياً "قصر السلاح"، ذلك المكان البغيض لكل قاطنيه. ومع ذلك شعرت بنشوة غامرة وأنا أدخله مع رفاقي. نشوتي سببها هو خوف تلك القوى التقليدية التي ظنت أنها تحكم اليمن بطريقة صحيحة من رؤانا وأفكارنا. اعتقدوا أن سجن بعضنا وتشريد البعض الآخر واغتيال من تبقى هو الحل. وكم كانوا واهمين!

"سجن القلعة" في شرق صنعاء تحتضنه تبة عالية مطلة على صنعاء، بل هي ربوة جميلة مؤهلة لأن تكون حديقة ومتنفساً للناس يطل على مدينتهم، لا سجناً يشعرهم بالرهبة والخوف. سور القلعة الطيني المحتضن للمكان، والذي يسمح عرضه لأكثر من مترين بسير الجنود عليه أثناء نوبات حراستهم، تشعرك بالخوف الدائم. لونه الترابي يزيد من شعورك بالكآبة. ومع ذلك وجوه زملائك المسجونين لا تدعوك إلا للمزيد من التفاؤل والصبر.

مقابل تلك النشوة هناك انقباض من كونك محشوراً في حجرتك بين أربعة حوائط، ومحشوراً بشكل أكبر بين أربعة حوائط أخرى هي سور السجن الخانق لأنفاس حريتك. كل شيء مفروض عليك: متى تأكل ومتى تنام ومتى تستيقظ، بل ومتى تحدث أصدقاءك، ومتى تتوقف عن الحديث... كل شيء ممنوع عليك: الكتابة والقراءة... المتوفر وبكثرة هو الحبس الانفرادي في زنزانة مبنية من الطين وتنفث من أرجائها رائحة العطن

وتتجول على جدرانها وبين أعطاف ما يفترش أرضها حشرات "الكتن" كأنها حُجرتها.

العطن، تلك الرائحة التي ستلتصق بشعيرات أنفك ولن تنفك منها أبداً. رائحة عطنة، بل ألماً عطناً سيتشبث فيك بقوة ولن تتخلص منه بسهولة. حجرة لا تتعدى المتر والنصف عرضاً، والمترين طولاً، ستكون لأشهر عديدة هي كل عالمك، وستتناوب عليها أنت وزملاؤك دون أن تعرفوا لماذا!!

خمسة عشر شهرا وأنا في السجن دون أن يتم التحقيق معي أو حتى أعرف ما هي التهمة الموجهة إليَّ! قالوا: أحاديث تحريض وتمرد لقلب نظام الحكم. تهمة عامة لأكثر من ثلاثمائة سجين. كان هناك كُتاب وشعراء وفنانون وسياسيون ورجال أعمال، ومجانين أيضاً!... كان علينا جميعاً التعايش معاً، بل ومع هؤلاء المجانين العقلاء جداً في التعبير عن مكنونات ذاتهم بالحركة والكلمة والتعبير عن كل ما يطرأ عليهم بالصمت والصراخ والبكاء والضحك. كان الظلم الذي نشعر به هو الجنون ذاته. وكان شعورنا بالحسد لحالهم المتوائم جداً مع المكان هو حديثنا في أغلب الأحيان.

قاوم "عايش" ذلك الانجراف طويلاً؛ لكن كمية القات -وهو الشيء الوحيد الذي لم يكن ممنوعاً دخوله إلى السجن- التي كانت تصله يومياً، وتناوله له حتى وقت متأخر مع سوء تغذية مزمن لجسده الضئيل، جعلت مقاومته ضعيفة أمام هواجس السجن الموحش والبعد عن العائلة والبقاء فترة طويلة بين أربعة

حوائط عطنة؛ ليصبح فرداً مميزاً من أولئك الذين يظلون يصرخون طيلة الليل.

قبل "عايش" كان هناك مجنون مهمته الوحيدة هي الصراخ ليلاً فقط، وطيلة اليوم ينام بعمق ووداعة. يختفي أياماً عن السجن، وكلما سألنا عنه لم نجد إجابة شافية من حرس السجن، بل نجد سيلاً جارفاً من الشتائم المذيلة بفضولنا وأن السؤال أيضاً ممنوع. اقتنعنا أنه ممن يدسونهم بين المساجين لمعرفة أخبارهم أو قلقلة منامهم أو تشويه أحاديثهم؛ أعني نوعاً آخر من التعذيب.

يعلم المساجين أن السجن الذي يقطنونه ويدمر آدميتهم يوماً عن يوم لم يكن في السابق غير مخازن أسلحة، وأنها مخازن مسماة بأسماء القبائل، لتكون الآن حُجرات لهم بالاسم ذاته، فأصبحوا هم "أصحاب حُجرة حاشد" أو "أصحاب حجرة بكيل" و"حجرة صنعاء" و"أرحب"... هذه القبائل تطارد اليمن واليمنيين حتى في السجون.

في جزء من القلعة مسجد صغير لم نكن نشعر فيه بالطمأنينة عندما يتم إجبارنا على الصلاة، خاصة يوم الجمعة؛ لكنه كان مكاناً نظيفاً نوعاً ما، نهرب فيه من كل ما حولنا ونختلي بذواتنا ولو يسيراً من الوقت. يناجي المسجونون الله في لحظات يختلي فيها كلٌّ منهم بذاته. ويردد أغلبهم اسم الله دون توقف.

بعد أن خرج صديقنا "هايل" من غرفته مفزوعاً لم يردد غيرها: "يا الله! يا الله!". كان قد تم وضع أفعى في حجرته وأغلقت الحجرة عليه لمدة نصف ساعة بتعمد من أحد الضباط.

لم ينفع صراخه واستنجاده بنا وبهم. رفضوا حتى أن نقترب لنعرف سبب صراخه. دخل الضابط ذاته وأمسك بالأفعى، التي لم تكن سامة في الأصل، بعد أن ذهبت بعقل "هايل" للأبد. وكل ما تبقى له من الحياة هو ترديد: "يا الله! يا الله!". ترى هل يعرف ذلك الضابط "الله" الذي التجأ إليه "هايل" في قمة فزعه؟! أم أن له "الله" آخر؟!

كُنت المحرض الأول لدعوة المساجين إلى الإضراب عن الطعام، لسوء المعاملة في السجن ولمعالجة أحواله المتردية: حُجرات ضيقة ينحشر فيها اثنا عشر مسجوناً، ونافذة بالكاد تسمح بدخول القليل من الهواء ويتم إجبارنا على قفلها ليلاً، عدم وجود الماء، قذارة الحمامات التي تحولت إلى كومة براز جاف يعلوه كل يوم براز إضافي، قطع الكهرباء بعد التاسعة! كل هذا فاق قدرة تحمل المساجين النفسية والصحية. بدأ جزء منا الإضراب، واستمر بنا الحال لمدة أحد عشر يوماً تم خلالها نقل المتضررين إلى المستشفى لإنقاذهم، وهناك وبعد أن تم معالجتهم تم أيضاً ضربهم ومعاقبتهم على الإضراب الذي لم ينالوا عن طريقه أي شيء غير المزيد من الإهانة.

رضخ بعدها المسجونون لقدرهم. اكتفى كل مسجون باستلام "جلن" ماء، وهو وعاء يستوعب ثلاثة لترات، و"أربع كدم" هي غذاؤه طيلة اليوم. كان البعض يشارك الآخرين ما يصله من طعام من الأهل خارج السجن بعد أن يتم تفتيشه تفتيشاً دقيقاً وتحريك ما في داخل الشوربة أو "السلتة" حتى لا يتم تهريب رسائل للمساجين من خلالها. ومع ذلك استطاع البعض

أن يكتب للمجلس الجمهوري الحاكم آنذاك على أوراق السجائر ويطلب منهم الإفراج عنا أو على الأقل استجوابنا لمعرفة سبب حبسنا كل تلك المدة، دون فائدة.

حصارهم شديد لكل ما كان يبعث فينا الفرحة والتسلية كحرماننا من "البطة"، تلك الكروت التي نصنعها من علب السجائر ونلعب بها للقضاء على الوقت. أما مصادرة قطع الشطرنج التي نحتها عبد الجليل من بقايا الشمع ومعاقبتنا جماعياً حتى يتم إخبارهم كيف دخلت هذه القطع دون معرفتهم فقد أثار فينا الضحك لشدة غبائهم. لم يصدقوا أنها من الشمع لشدة إتقانها. ما فعله عبد الجليل من نحت صورة الزعيم جمال عبد الناصر على أحد حجارة بوابة السجن تطلب منهم التحقيق مع معظم المساجين فيما إذا كانوا قد رأوا من قام بهذا العمل. لم يقولوا شيئاً، واكتفوا بهز أكتافهم بعدم معرفة ما يتحدثون عنه.

في أوقات خلوتي بذاتي في السجن كنتُ أجد في التماهي مع أشكال المسجونين متعة هائلة في تأمل وجوههم المتغضنة والشعر الكثيف للحاهم التي طالت دون أن يجدوا "موساً" نظيفاً لحلاقتها. أطلق لخيالي العنان في تخيل حالهم فيما لو كانوا خارج تلك الأسوار. "عايش" ربما كان رجل أعمال ثرياً أو عالماً فسر لنا كيف نزل أرمسترونج على سطح القمر كأنه مدرس فيزياء، يومها انتشر الخبر بين المساجين وتم تفتيش دقيق لكل الغرف للحصول على ذلك الراديو الذي سمع منه الخبر! وإلا كيف وصل وانتشر لكل هؤلاء المساجين؟! أما "عبد الجليل" فتخيلته فناناً تشكيلياً أو نحاتاً مشهوراً يتنقل بإبداعه في دول العالم ليبهر

الجميع ويعرفون أن ذلك الفنان الرائع ذا المعرفة العميقة وسعة الأفق والخيال هو من اليمن، وأن السجن لم يمنعه من النحت على الجدران، بل واستخدام أظافره عند حرمانه من الأحجار في الرسم، وأن براعته في نحت قطع الشطرنج بمنتهى الدقة من بقايا الشمع تقول إن براعته بلا حدود.

وفي أوقات خلوتي أيضاً كنت أفكر في أصدقائي، في المعارك الكثيرة التي خضناها في أيام حصار السبعين يوماً على صنعاء، فقدتُ الكثير منهم، استبسالهم وشجاعتهم في أرض المعركة كانت تدهشني باستمرار. تعلمت منهم الإقدام وعدم الخوف. صرنا نتسابق لنيل الشهادة، نتوقع الموت في أي لحظة وفي كل لحظة. لم أر في حياتي وجوهاً طاغيةً عليها ملامح الرضا مثل كل الوجوه في تلك الفترة. وجوه تتلقى الموت برحابة صدر. انتزع "حسين" الشظية التي اخترقت صدره نتيجة انفجار أحد الصواريخ، وودعنا بابتسامة رضا. أما "عبد الله" فقد ضحى بحياته من أجلي حين دفعني بعيداً عن اللغم الذي انفجر به وطاير أشلاءه في كل اتجاه. مراقبتنا لـ"علي" وهو يفقد دمه طيلة النهار نتيجة عدم قدرتنا على إسعافه إلا بعد هبوط الليل، كان قاسيا علينا حين وصلنا المستشفى بعد فوات الأوان، وكل ما استطعناه هو التحلق حوله لسماع جملته الأخيرة: "صنعاء أمانة في أعناقكم!".

صبحية: أقول لك كل هذا حتى تعرفي مقدار الألم الذي عانيته، ومحاولتي -رغم ذلك- الاستمرار لسنوات حتى أنتهي من

كل واجب لي تجاه الوطن. خرجت من السجن بعد خمسة عشر شهرا. ولك أن تتخيلي ذاتي المحطمة بعد تلك المدة! لم أخرج من السجن إلى المنزل، رغم شوقي لوالدتك ولـ"نصر" الذي تجاوز عمره العام دون أن أحظى بضمه إلى صدري أو النوم إلى جواره ليلة! لم أر أول خطواته ولم أسمع أول مناجاته ولم تغسل همومي ضحكاته في أرجاء المنزل! قسوة كل ذلك جعلتني أختلي بذاتي لفترة. مكثت في "فندق مناخة"، في آخر "شارع جمال"، لبعض الوقت؛ لكن رحابة صنعاء وحبي لها لم يكفيا لمداواتي، فتوجهت إلى عدن. شعوري بعدم الأمان وبتكرار ما حدث لي في أي لحظة جعلني أصر على ذلك.

أرسلت من يطمئن والدتك عليّ وأني سأعود في أقرب فرصة. زيارتي لصنعاء في أوقات متفرقة لرؤية "نصر" ووالدتك لم تعد تشعرني بالطمأنينة. هناك من الرفاق من لم يخرج من السجن بعد وهناك من اختفى حال خروجه منه مباشرة! ولادتك في بداية العام 1974 جعلتني أفكر جدياً في العودة إلى صنعاء والاستقرار رغم كل شيء؛ لكني لم أستطع، رغم مقاومتي لشعور عدم الأمان الذي سيطر عليَّ حال خروجي من السجن. وفي منتصف العام، تحديداً عندما تولى الرئيس إبراهيم الحمدي حكم اليمن، بحركته التصحيحية في 13 يونيو 1974، شعرت بالاطمئنان لمصير اليمن، ولم أشعر بالاطمئنان لمصيري، فقررت المغادرة إلى القاهرة والاستقرار فيها. كنتِ مع شقيقك حافزاً لي لتنفيذ ما قررته. مستقبلكما وحياتكما في أمان

كان هاجسي، وبقائي في صنعاء لم يكن هو الأمان الذي أريده لي ولكما.

حاولت زرعك في تلك البيئة؛ لكني فشلت. أخذتِ كل جينات حبي للوطن ولصنعاء. لم أجد في تلك الليالي التي كنت تهربين فيها من غربتك غير حكايا الجدات عن صنعاء. ومحاولة الإجابة دون ألم لأسئلتك عنها حال عودتك من زيارتها.

في أحيان كثيرة كان يبلغ بي الألم منتهاه كلما تذكرت ما مر بي فيها، ويبلغ ألم والدتك مداه من فراقها. نلوذ بالصمت، وحده كان قادراً على ابتلاع ألمنا. في تلك اللحظات كنتُ اجعل صوت علي الانسي يصدح في ارجاء الشقه لتسمعها والدتك واكفرعن جزء ولو يسير من ذنبي في حرمانكم جميعا من الوطن. تستمع لها والدتك وابتسامة الرضا على محياها. ترترديها معها دون أن تدركي المغزى الذي حاولتي مراراً معرفته وتفننت أنا في الهروب منه. "علي الأنسي" يغني:

يا قمري صنعاء مالك لا تزعل ريح بالك
الدُنيا حقك ملكك حتى قلبي مملوك لك
من غَيَّر طبعك عني وانت اللي ما تتغير
من حول قلبك مني هذا خاين وحياتك
اذكر ايام الراحة حين كنت اجلس بجوارك
قلي بالله بصراحة هي حلوة او ما رأيك
الايام اللي فاتت اذكرها يرجع حبك

هكذا كنا ننهي معظم خلافتنا أنا ووالدتك: بالصمت والغناء. تحملت الكثير؛ لكن اكثر ما كان يقلقها هو مستقبلك. رفضك

المستمر لكل من تقدم لك طالباً الزواج كان يزيد من حزني، وإلحاح أمك في العودة ولو لفترة بسيطة يتم فيها زواجك كما تتمنين من رجل من بلدك جعلني أفكر في الأمر ولا أظن أن الأمر سيطول!...".

انتهت رسالة أبي. لقد كتبها قبل وفاته بأيام. هل كان موته قراراً اتخذه حتى لا يعود معنا؟! هل فضل العودة جثة هامدة من أجلي؟! لم يعاني من أي مرض قبل وفاته فجأة. هل بلغ حزنه أو خوفه هذا الحد ليتوقف قلبه للأبد؟!

خرجت من حجرتي أشعر بضيق شديد. ألقيت بجسمي في حضن أمي وكأنها كانت في انتظاري ورحتُ في نوبة بكاء طويلة، لم تحاول أن تخرجني منها، وكأني بها سأنهي كل تلك السنوات التي بحثت فيها عن إجابة لقرار والدي بالغربة.

استرجعت وأنا في قمة حزني تلك اللحظة التي عدت فيها من الجامعة ودخلت للسلام على أبي كعادتي كل يوم، طرقت الباب، دخلت، تقدمت باتجاهه، أثار دهشتي انسدال رأسه إلى الأسفل. هرولت محاولة إيجاد سبب لجمود عينه عن الحركة غير أن يكون أبي قد فارق الحياة! أخذت ألبوم الصور من بين يديه وألقيت به بعيداً ورحت أهزه بعنف! علا صراخي مستنجدة بأمي. راحت أمي تجس نبضه، تضغط على قلبه، تهز جسمه، عله يستعيد الحياة التي فقدها! أيقنت معها أن أبي أصبح بلا روح! أن أبي مات!

استقررتُ معها تحت قدميه واجمتين، كل واحدة منا ممسكة بإحدى يديه تبللها بدموعها. صمتنا مطبق على ما سواه من حولنا، وحزننا بلا حدود. حاول "نصر"، الذي هرع إلينا حال استنجاد أمي به

مدنا بالهدوء وضرورة التصرف بحكمة وإيمان، وضرورة تنفيذ وصيته في دفنه بصنعاء، وهذا ما كان...

***

XI

ذات مساء بارد لصنعاء، اعتقد الصغار عندما تحلقوا حول "حميد" و"صبحية" أنهما هبطا من كوكب آخر! بدا لهم أن "صبحية" ترتدي فستاناً من الزبيب الأسود، تغضنات جلبابها المنعكس على سطحه ضوء المصباح في الشارع أوحى لهم بذلك. وربطة رأس "حميد" المنسدلة على معطفه الكحلي الواقي من البرد جعلته مختلفاً عن أي رجل مر على ذاكرتهم الطفولية؛ إلا فيما يسمعونه أو يشاهدونه عن المخلوقات الفضائية.
نظراتهما وحديثهما وكأن لا أحد من حولهما حرض في أعماقهم التحري والتأكد. مد أحد الصغار يده مصافحاً "حميد" واكتفى بهز رأسه الصغير لـ"صبحية". لم يطل النظر في وجه "حميد"؛ لكن وجه "صبحية" بدا له جديراً بالتأمل وضوء المصباح الذهبي منعكس على قسماته المتناسقة. لا يرى الصغير وجوه النساء في هذه المدينة. ربما سأل نفسه في نقاء وجه "صبحية": لماذا يأكل السواد وجوه النساء وأجسامهن في مدينته؟!

إبن سوق!...

مع "صبحية" أعدتُ كل زخم المدينة وذكرياتها، وأنشأت ذكريات جديدة، وتحققت لي أحلام كثيرة. لم أعد أستطع تخيل المدينة إلا لنا. لم يعد للأزقة معنى إلا بعد أن امتزج فيها حضورنا معاً، ولم يعد لـ"المقشامة" ظلال إلا ونحن تحت أشجارها، ولم يعد لغروبها رومانسية إلا ونحن نشاهده، ولم يعد لشروقها معنى إلا ونحن نستقبله معاً. معها تعلمت الحب وعشته في آن.

جاهرت بسيري إلى جوارها دون اكتراث بتلك النظرات الفضولية التي لاحقتنا في أول لقاء، واستمرت في ملاحقتنا كلما مررنا معاً في أزقة المدينة وحواريها. لم تستيقظ المدينة يوماً على وقع خطوات عاشقين مثلنا، ولم تنم على مناجاة أمنيات ذات العاشقين بالتوحد مدى الحياة مثلنا أيضاً...

كل يوم كانت المدينة تزداد انبهاراً بنا وبعشقنا. لا أنسى ذلك الرجل وهو فاغراً فاه دهشة بعاشقين غائبين في قبلة طويلة في ركن جامع "حارة الوشلي" الذي اعتقدا أنه منزوٍ عن الأنظار، ولم ينبس ببنت شفة. أولئك الصغار المبهورون بتشابك الأيدي لذات العاشقين يتجولان في المدينة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها. عيون النساء المطلة من النوافذ على الشوارع مبهورة بتكرار رؤيتهما في أوقات اليوم المختلفة يسترقن السمع لغزله الصباحي لقدمَيْ معشوقته الممتلئتين، ولأظافرها المضرجة بالحُمرة، ولغزله عند غروب الشمس لعينيها الصغيرتين المكحلتين بأحلامهما. يلجان الليل ويمنيان نفسيهما بإحدى حُجرات صنعاء

القديمة، خافتة الضوء، رومانسية النوافذ، دافئة الجدران... كانا معاً. وكانت المدينة بأسرها، لهما فقط... أزقتها، "صرحاتها" "مقاشمها" "أسواقها" "مناظرها" المُزَيّنةُ لأعلى المنازل، "تجاوبيها" المطلة على أروع المناظر!...

كل هذا كان لنا... كان لنا... كان لنا!...

هناك من قام بفعل خبيث ليفرقنا، لينهي كل هذا الوجد بقليل من الجهد وكثير من الألم!

خلقنا للحارات أسماء تخصنا، وأسراراً لا يعرفها غيرنا. بعثنا الحياة في الحجارة بنقش طلاسمنا، لتستقبل ابتسامتنا كلما مررنا بها. جعلنا من أماكن ذكرياتنا مزاراً لنا، نقرأ فيه فاتحة حبنا وتعويذات سحرنا الذي كان.

كيف يكون لمدينتي معنى بدونها وقد أضافت لتاريخي فيها تاريخاً آخر لم أحلم به يوماً، إلا على سبيل الأماني المستحيلة؟!! يا إلهي! كيف أضعتها وقد زرعت في أعماقي كل هذه الدهشة للمدينة من جديد، وقد أحيت في روحي كل هذه البهجة للناس وللعمر المتبقي لي؟!! ها أنا أعود من جديد للسير في أزقة المدينة وحيداً إلا من ذكرياتي معها، تسبقني دموعي في أغلب الأحيان. أكابد شوقي لمحادثتها وأختلق الأعذار للاتصال بها. صوتها هو كل ما أملكه الآن. لم تخذلني يوماً في الرد عليَّ. كنت غبياً عندما فقدتها. لم أستطع الحفاظ عليها رغم النعيم الذي وهبتني إياه.

في غيابها أستحضر وجودها، تغشاني، تلامسني حتى العظم... أبكي من فرط شوقي لرؤيتها، ومن انتظار أمنيتي لولوج عالمها السحري ونعيمها الفردوسي. أكاد أتنفس رائحتها! أكاد

ألامس يدها! ما الذي لم أفعله لتصفح عني؟! ما الذي لم أفعله بعد لتسامحني، لتغفر لي؟! استنفدت كل ما لديّ من شوق، استجديت بكل ما كان لها من حب، مرغت كبريائي تحت قدميها... دون فائدة! كل هذا جعلني أشعر بمقدار جرحها. لديها حق! أنا أستاهل كل ذلك وأكثر.

المطر في المدينة لا يقاوم. يختلط بدموعي وأشعر بالمرارة. عدت أسير وحيداً من جديد. كيف استطعت أن أكذب أمام صدق مشاعرها وتلقائية أفعالها؟! كيف استطعت أن أراوغ في الإجابة كلما ألمحت إلى نهاية حكايتنا التي ستكون الزواج كما تحلم كل النساء؟! كيف استطعت أن أكون أنانياً إلى هذه الدرجة وأمنحها الوهم والسراب والتشبث بأمل كاذب لم ولن يتحقق؟!...

لي عائلة، زوجة وأولاد، أنعم بدفئها، ولي عشيقة أنعم بحضنها، ولي "صبحية" أردتها حياة ثالثة لأكمل معها باقي ثغرات المتعة واللذة في الحياة، دون أن أفكر فيها وفي حياتها ومتطلباتها!

عندما حدثتني عن زيارة "حوريتي مسك"، كانت تتمنى لو أنفي كل تلك القصة التي لا يصدقها عقل، لو أخبرها أنها "بدة" لم تتمكن من مسخي لأصبح عبداً لها، أنها مندسة لتقتل أحلامنا وتفرقنا بعد أن ألهبتها نار الغيرة وصدي الطويل لها؛ لكني لم أفعل. قلت لها إن كل ما حدثتها به "حوريتي مسك" صحيح. لي زوجة وعشيقة. صرخت في وجهي: "وأنا ماذا أكون بعد كل ما كان من حكايتنا؟!".

أنت الحياة التي لم أعشها، والمزحة التي تحولت إلى جد، والتسلية التي انتهت بألم... أنت الحلم الناقص في الحياة الذي لم يتحقق لي!

صرختْ مجدداً وقالت: "كل هذا لك، وكل هذا من أجلك! أين أنا؟! ما الذي أردت أن تفعله من أجلي؟! وما الذي أردت أن تفعله في حياتك نحوي لتثبت حبك؟! أنت لا تعيش إلا لك! أنت أناني، بل إن الأنانية متجسدة فيك!".

كلامها هوى بي في بشاعة تلك الكلمة التي لم أدركها، وبشاعة ما أقوم به وما أفكر به وأنه بالفعل كان لي ولسعادتي ولذاتي. لم أخرج يوماً برفقتها لأنها تريد ذلك ولأن هذا سيدخل السعادة إلى قلبها! لم أحدثها إلا لحبي في سرد ذكرياتي والتمتع بدهشتها وهي الغائبة والغريبة عن البلد وعن الأهل والتي لا تعرف شيئاً ولن يقول لها أحد غيري ذلك!

لم أرد على أمنيتها ورغبتها في العيش معي تحت سقف واحد وإنجاب أبناء لن تجعلهم يغادرون الوطن كما فعل معها أبوها!

كانت تتحدث لوحدها وأنا أنصت لدوي كلماتها المرتدة في الفضاء دون تعليق. هذا أنا باختصار؛ فكيف يمكن أن أبدأ معها من جديد أو أنهي معها الحكاية دون ألم؟!!

***

XII

أنا صنعاء وصنعائي أنا!...

ماذا بعد!...

شعرت بقوة وربما نشوة وأنا أرفض لقاء "حميد". شعرت بجرحي ما يزال مفتوحاً لم يلتئم بعد. لا نعرف كيف تكون البدايات. لا نختارها عادة، ويسوقها إلينا القدر؛ لكنا نعرف النهايات؛ لأنّنا غالباً من يصنعها. هل بإمكاني صناعة نهاية حكايتي مع "حميد"؟! أم أترك القدر يفعل ذلك؟! لكن القدر ليس دائماً عادلاً، ولا يمنحنا ما نريد؛ فلماذا نعول عليه إنقاذنا أو جرنا إلى دائرته التي لا تلائم هوانا غالباً؟!

جرحني كذب "حميد"، وجرحني كلامه السيئ عني وعن علاقتنا. جرحني استمراره في الكذب، وفي المزيد من استخدام الألفاظ الجارحة. وكانت "حوريته مسك" هي مسك الختام لتلك الحكاية. يوماً بعد يوم أحاول انتزاع المدينة التي وهبني إياها بوجوده في حياتي؛ فهل أنا قادرة على الاحتفاظ بها بدونه؟! لا أعرف! ارتبط كل شيء به، تجذر كل شيء؛ لأنه كان مصدره! فهل سأستمر في حبها وهو خارج تكوينها، في أعماقي؟! لا أعرف أيضاً! ربما لأني لا أعرف ماذا يريد "حميد" مني وماذا يريد من المدينة التي يعشقها! كلانا خابت توقعاته. المدينة -كما يبدو- لا تبحث عن وسيط لتستقر في قلوب من يحبونها. المدينة تريد أن تقدم ذاتها وتقدم تاريخها دون وسيط. لذلك لا تسأل القادمين إليها هويتهم. تحتضن الكل، وتحب الكل، وتمنح دفئها كالشمس، لكل من نزل أرضها وسكن منازلها.

متى سيفهم "حميد" ذلك وهو يقدم لها كل يوم اعتذاراً يليق بها عن هجره وعن زياراته المتقطعة؟ وهي لم تتركه أو تتخلَّ عنه يوماً، ومنحته ما يريد.

كانت الحضن الذي يلتقفه وهو في أوج حزنه وفرحه، والسند الذي يمنحه القوة وهو في شدة ضعفه وحيرته، والملجأ الوحيد الذي لا يمكن إلا أن يبوح في حضرتها بأسراره وتناقضاته.

***

الصدفة جمعتهما، "حميد" و"غمدان".

زيارة مفاجئة إلى مرسمي. يحمل كل واحد منهما الصورة الجماعية التي كانت في المأدبة مع "الفندم" في القصر الرئاسي.

برر "حميد" إحضارها لي ورغبته في وضعها في المرسم بأنها ستعرف الناس بي أكثر وبتاريخ والدي وتضحيته الكبيرة من أجل الوطن وتحريره في فترة من أصعب مراحل تاريخه.

برر "غمدان" إحضارها لي بأن وضعها في المرسم أفضل من أن يرميها في سلة المهملات. هكذا بمنتهى الصراحة!

قبلت هديتيهما بعد أن قبلا شرطي في حرية اختيار مكان وضع الصور الثلاث!...

جزيرة صير بني ياس، الإمارات 2009
صنعاء 2013